الرّهبانيات رسالة للمستقبل

سلسلة
الشأن العام في قضايا الناس
حاجات وأبحاث، تخطيط واستشراف

منشورات جامعة سيّدة اللويزة
لبنان ١٩٩٩



سلسلة

الشأن العام في قضايا النّاس

حاجات وأبحاث، تخطيط واستشراف

وقائع مؤتمر

الرهبانيات: رسالة للمستقبل

تحـــريـــر		جورج مغامس

منشـــورات		: جامعة سيّدة اللويزة

إدارة		: مكتب العلاقات العامّة

تـنفيـــــذ		: مطابع معوشي وزكريّا

الطبعة الأولى		: ايّار ١٩٩٩

القيــــــاس		٢٥×١٧,٥

سلسلة
الشأن العام في قضايا الناس
حاجات وأبحاث، تخطيط واستشراف

الرّهبانيّات
رسالة للمستقبل

وقائع المؤتمر المنعقد
في دار سيّدة الجبل - فتقا
٢٧ - ٢٨ تشرين الأوّل ١٩٩٥

جامعة سيّدة اللويزة

لبنان ١٩٩٩

تمهيد

في سنة ١٦٩٥، عرف لبنانُ النظامَ الرهبانيّ، بشكله المتجدّد والمستمرّ. تأسّست الرهبانيّة، في دير عتيق، على أيدي مجموعة من الآباء المبدعين والقدّيسين، وفي جوّ من الصّلاة والإيمان والمحبّة. لم تكنِ الرهبانيّةُ غريبةً على المسيحيّة؛ فكثيرون كانوا، في تقاليدهم وممارساتهم وقيمهم الأخلاقيّة، رهباناً دون أن يعلموا حقيقةَ الرهبانيّة.

وتألّقت أشعّةُ الرّوح في نفوس بعضهم، فجعلوا من هذه الممارسات نواةً لإنشاء مؤسّسة، بالمعنى النظاميّ الصارم، لهذه اللفظة.

وكانتِ الرهبانيّةُ المارونيّة.

اليوم، وفي مرور ثلاثماية سنة، على نشأة هذه المؤسّسة، أسئلةٌ كثيرة تَطرحُ نفسَها:

- أين الرهبانيّاتُ اليوم، من رهبانيّاتِ ذلك الزمان؟
- هل حافظت الرهبانيّات على الأسس والمبادىء التي تأسّست عليها، أم طوّرتها، بحكم الظروف الزمنيّة، أم ألغتها وتجاوزتها، بحكم التّقاليد الغربيّة الجديدة؟
- هل لا يزالُ الرّاهبُ راهباً، على مشارفِ القرن الواحد والعشرين، بالمفهوم الإكليريكيّ الحقيقيّ للفظة «راهب»؟ وهل حان الوقتُ لكي تتغيّرَ «اللفظة»، فنطلقَ على من كان «راهباً» اسماً آخر؟
- هل تقوم الرهبانيّاتُ اليوم، بالدّور الوطنيّ، والإنسانيّ والروحيّ والتربويّ والاقتصاديّ الذي التزمت به، خلال مرحلة التأسيس وبعدها، أم إنّها أخلفت هذا الدور، فأضاعته أو هو الذي أضاعها؟ وما هي الأسباب؟
- من خلال السينودوس الذي انعقد من أجل لبنان، وعلى ضوء الإرشاد الرسوليّ، أين يبرزُ التجدُّد في العمل الرهبانيّ؟ وهل يمكن اعتبارُ السينودوس حدّاً فاصلاً بين تاريخين؟
- لماذا الانقسامُ بين الرهبانيّات؟ هل الفروقاتُ بينها هي شكليّة أم أساسيّة؟ هل يمكنُ إعادةُ توحيدِها؟
- على ضوء الخبرة والتجربة، ما هو الدّورُ الذي يمكن للعلمانيين أن يقوموا به، إلى جانب الآباء الرهبان؟ وكيف يمكنُ «تشريع» هذا الدور؟

- كيف يمكنُ للرهبانيّات أن تؤسّسَ لوطنٍ، كلبنانَ – متعدّدِ الأديان والمذاهب، متنوّعِ الثقافات – زمناً جديداً يقومُ على الحرّيّةِ واحترامِ الآخرِ والتّسامح والمحبّة؟
- كيف نحافظ على الحياة الديريّة في زمن العلم والتّواصل والعولمة؟
- في سنة ١٧٣٦، وفي المجمع اللبنانيّ المنعقد في دير سيّدة اللويزة، صدرت مقرّراتٌ هامّة على صعيد العمل التربويّ والنّشاط الثقافيّ. أين نحن اليوم من تلك التطلّعات الثوريّة البنّاءة؟

أسئلةٌ كثيرة، صادقةٌ وصريحة، تبرزُ في الحديث عن الرهبانيّات في يوبيلها المئويّ الثّالث.

وجامعةُ سيّدة اللويزة التي تنتمي إلى الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، بصورة خاصّة، والتي تؤمن بدور الرهبانيّات في بناء المستقبل، رأت نفسَها مدعوّةً إلى محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، في مؤتمر خاص عقدته في ٢٧ و٢٨ تشرين الأوّل ١٩٩٥، برعاية غبطة البطريرك المارونيّ نيافة الكاردينال مار نصراللّه بطرس صفير الكلّي الطوبى، وبمشاركةِ عددٍ كبير من أهل الاختصاص: رجال دين، راهبات، مفكّرين، بحّاثين، ومن جميع الأديان والمذاهب والمناطق والأعمار... وذلك بهدف إلقاء الضوء على هذه الأسئلة الهامّة.

لقد حمل المؤتمر عنوان «**الرّهبانيّات: رسالة للمستقبل**».

وإنّنا، إذ نقدّم لأسرة الجامعة وللفيف الرهبان ولأصدقائنا من المعنيين بهذا الموضوع – رجال دين ودنيا – المحاضراتِ والمداخلاتِ التي قدّمها المشاركون، في هذا الكتاب الخاص، فإنّنا نأمل – بجدّية وإخلاص – ألاّ تكون هذه الرسالةُ صرخةً في وادٍ، بل مشعال نور نستضيء به جميعاً، في زمن العتمة والتّعب والخوف.

اللّهمّ، أعطِنا رهباناً على قدر الحاجة والمحبّة والتجدّد والخدمة، وأنقذنا من الذين اختزلوا الرسالةَ بثوب، وهم يعلمون أنّ الثوبَ لا يصنعُ راهباً.

مدير العلاقات العامّة
في جامعة سيّدة اللويزة
سهيل مطر

برنامج مؤتمر
الرّهبانيّات: رسالة للمستقبل

الإفتتاح

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة	**الأب فرنسوا عيد**
كلمة رئيس عام الرهبانيّة المارونيّة المريميّة	**الأباتي سعد نمر**
كلمة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق	**الكردينال نصرالله بطرس صفير**

القسم الأوّل

الجلسة الأولى

الموضوع **من الرسالة الرهبانيّة: الدّور والخيار في لبنان والعالم**

الرّئيس **المطران حميد موراني**

المحاضرون

الأب العامّ جورج حرب

الدكتور أديب صعب

الدّكتور سامي مكارم

القسم الثـاني

الجلسة الثانيـة

الموضوع **البعـد الـروحيّ: مـن المؤسّس إلى اليـوم.. وغـداً**

المحاضرون

الأباتي يوحنّـا سليـم

الأباتي مـرسيـل أبي خليـل

الأمّ ماري كـزافيـه سكـاف

الأب اليـاس خليفـة

القسم الثّـالث

الجلسة الثّـالثة

الموضوع **البعد الثّقـافيّ والتّربـويّ: مـن المؤسّس إلى اليـوم.. وغـداً**

الرّئيس **المطران يـوسف بشاره**

المحاضرون

الأب كميـل زيـدان

الأستاذ عبّـاس بلّـوط

الدّكتـور رفيـق عيـدو

الأب سميـر خليـل

القسم الرّابع

الجلسة الرّابعة

الموضوع **العمل والعلاقة مع الأرض والمجتمع: تطلّع نحو الحرّيّة والسّيادة والاكتفاء الاقتصاديّ والمساواة**

المحاضرون

المونسنيور سمير مظلوم
الدكتور جوزف أبو نهرا
الدكتور سمير خوري

القسم الخامس

الجلسة الخامسة

الموضوع **الإنتماء والهويّة**

المحاضرون

الأب سليم دكّاش
النّائب بشاره مرهج
الدّكتور فادي مغيزل
الدّكتور مصطفى دندشلي

القسم السّادس

الجلسة السّادسة

الموضوع **مناقشة عامّة وتوصيات**

الرّئيس **المطران حبيب باشا**
توصيات المؤتمر

الإفتتاح

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة **الأب فرنسوا عيد**

كلمة رئيس عام الرهبانيّة المارونيّة المريميّة **الأباتي سعد نمر**

كلمة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق **الكردينال نصرالله بطرس صفير**

كلمة الأب فرنسوا عيد
رئيس جامعة سيّدة اللّويزة

أيّها السّادة والإخوة والأصدقاء

أرحّبُ بكم، بمحبّة وتقدير، شاكراً لكم حضورَكم هذا المؤتمرَ، الذي تَفتتحُ به الجامعةُ مؤتمراتِها، للعام ٩٥ – ٩٦، والذي تَختتمُ به الرهبانيّةُ حلقاتِها الدراسيّةَ حول اليوبيل المئويّ الثالث، ودور الرهبانيّة وهويّتها ورسالتها.

أيّها السّادة

كانت مناسبةً، لا أكثر، الاحتفالاتُ بهذا اليوبيل. الأهمُّ من الاحتفال هو ما سيبقى، ما سيُخطّط للمستقبل، كيف نتجدّد، وكيف نحقّق هدفَ السينودوس من أجل لبنان؟

إلى هذا النّور المشعّ بالرّجاء نتطلّع من دون أن نُغفلَ تعاليمَ الماضي والتّراث.

في تقرير «تجمّع الرؤساء العامّين»، نُشر في روما بعد السينودوس الذي عُقد حول «الحياة المكرّسة ورسالتها في الكنيسة والعالم»، ورد تقسيمٌ لتاريخ الحياة الرهبانيّة إلى خمس محطّات هي:

١– من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٥٠٠ : مرحلة آباء الصحراء
٢– من سنة ٥٠٠ إلى سنة ١٢٠٠ : مرحلة الحياة الديريّة
٣– من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٥٠٠ : مرحلة الرهبان المتسوّلين
٤– من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ : مرحلة الرهبنات الرسوليّة
٥– من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ٢٠٠٠ : مرحلة المنظّمات التربويّة والتعليميّة

من هذه المحطّات الخمس نرى بوضُوح كيف انتقلتِ الحياةُ الرهبانيّة من التفتيش عن الله في الصحراء إلى اختبار الله في العالم.

هذه المسيرةُ تحقّقت على مستويين اثنين:

١- المستوى الدّينيّ - الشخصيّ

٢- المستوى الدّينيّ - الاجتماعيّ

فعلى المستوى الدينيّ الشخصيّ الذي يتمثّلُ بالتزام الراهب المشوراتِ الإنجيليّةَ الثلاث: الطّاعة والعفّة والفقر، اختزل هذا الإنسانُ المكرّس ذاتَه ليضعَها في بُعد ثلاثيّ يؤسّسُ شخصيّتَه ويكرّسُها نهائيّاً وبكمال للّه المطلق الأوحد.

فالفقر ليس حرماناً، بل اختبارٌ جديد لعطايا الرب، به يدركُ الإنسانُ أنّه حصل على كلّ شيء.

والطّهارةُ ليست غياباً عن الآخر، بل فيضٌ بحبوحةٍ عظمى.

والطّاعة هي السلطةُ على الذّات لتتميم إرادة الله فيه.

هذا التكريسُ لم يكنْ في عمقه سوى شهادةٍ أمام العالم لخيُورٍ أبديّة... إنّه المَعادُ في الزمن أوّلاً، وشهادةُ المَعاد لأبناء هذا الزمن. فالفقرُ مثلاً هو موقفٌ متواضع، والفقرُ الماديُّ هو تقشّفٌ وتجرّدٌ للفقر - المتواضع أمام خيور العالم... كما أنّ الفقرَ هو التزامٌ وموقفٌ ضدَّ الفقرِ في العالم.

فتحقيقُ الذّات يمرُّ في بُعدِه العموديّ نحو الله، وتقودُه طريقُه الأفقيّةُ نحو الإنسان. من هنا، فالعموديّةُ هي لمشاهدة الله، بينما الأفقيّةُ تُختصرُ بالقول: إنّ رأيتَ أخاك، رأيتَ الله.

هذان البعدان يلتقيان في الرّاهب - المكرّس ويمرّان، كما يوضح السينودوس الأخير، حول: «الحياة المكرّسة ورسالتها في الكنيسة والعالم»، بالمحطّات الأساسيّة الثلاث: الدّعوة والتّكريس والرّسالة.

فالدّعوةُ هي ثالوثيّةٌ في عمقها، تمرُّ بجواب الإنسان وتكريسه، ليكونَ، على غرار المسيح - المكرّس للآب، رسولاً في العالم. ومن هنا، يُعتبرُ التكريسُ اليوم «رسالة في العالم».

فالحريّةُ التي يَعملُ لأجلها الرّاهبُ، من خلال نذوره الثلاثة، أي الحريّة من: الملكيّة والعاطفة والذّات، تصبح حريّةً لأجل... التكريس، أي لأجل الرّسالة في العالم.

من هنا، فالرّسالةُ هي حَملُ بشارةِ المسيح للمستقبل:

- بالعيش والعمل لأجل قضيّة يسوع
- بالعيش وإعلان الخلاص بيسوعَ المحرِّر
- بعيش الحياة الرهبانيّة كتوجّهٍ جديد في معنى مشاريعنا وأعمالنا الاجتماعيّة
- بالعيش الرهبانيّ لاستعادة حريّة الكلمة الإنجيليّة وقدرتها.

فإذا اندرجت مواضيعُ هذا المؤتمر الذي تعقدهُ الجامعةُ في إطار الأبعاد الوجوديّة والاجتماعيّة بكلّ أوجهها، فما ذلك إلاّ ثمرةٌ لعطيّةِ التكريس.

فإذا كان صحيحاً القولُ: إذا رأيتَ أخاك، رأيتَ الله، فأكثرُ عمقاً وصحّةً القولُ: إذا رأيت الله، رأيت أخاك أيضاً.

وبردييابيف يقول:

Là où il n'y a pas de Dieu, il n'y a pas d'homme non plus.

حيث لا وجودَ للّه، فلا وجودَ للإنسان أيضاً.

قال أحدُ كبار هذا العصر: «إمّا أن يكونَ القرنُ الواحدُ والعشرون عصرَ الرّوح أو لا يكون». فروحُ الله يُحيي الإنسانَ ويقودُه، فهو يختارُه ويقيمُه ليأتيَ بثمار وتدومَ ثمارُه.

من هنا أكاد أقول: إنّ التّاريخ، ربّما، يعيدُ نفسَه. وإنّنا في بحثنا عن الرّوح والله والإنسان، إنّما نعودُ من جديد إلى مرحلة آباء الصحراء.

فنحن اليوم، نعيشُ في صحراء، صحراءٍ من الظّلم والظّلامة، صحراءٍ من العبوديّة للمادّة والآلة، صحراءٍ من اللهاث وراءَ حضارةٍ مزيّفة.

في هذه الصحراء، نتطلّعُ إلى الله، لعلّنا بروحه نتجدّد.

وفي لبنان، وفي هذه المرحلة بالذّات، وعلى أبواب انعقاد السينودوس المقدّس، **بعد** شهرٍ تماماً، نحن بحاجةٍ إلى دراسةٍ معمّقة وإلى تطلّعات طموحة فيما **يعود إلى دور** الرهبانيّة في لبنان: ماذا عن الغد؟ وهل نتصنّمُ مكانَنا؟ هل نقفُ ونتركُ الزّمنَ **يتقدّم؟**

إستحقاقاتٌ كثيرة، ليس أهمَّها الاستحقاقاتُ السياسيّة، تنتظرُنا. فكيف **نُعِدُّ العُدَّةَ** لمواجهتها والإطلالةِ على القرن الواحد والعشرين؟

ومن جديد، أتساءل: ما هو دورُنا في لبنان؟ وفي محيطنا الإقليميّ؟

إنّنا إذ نأملُ نجاحَ هذا المؤتمر، أتقدّمُ بوافر الشّكر من أبينا غبطة البطريرك الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير على رعايته، ممثّلاً بسيادة أبينا المطران يوسف بشاره، كما أحيي قدسَ الأبِ العام سعد نمر رئيسِ رهبانيّتنا الحبيبة ومجلس مدبّريه على إشرافهم ومشاركتهم. كما أشكر سلفاً جميعَ المحاضرين والباحثين والمناقشين على ما أعدّوه من أبحاث ورؤى. وللأمّ رئيسةِ هذا الصرح الإنسانيّ الرّوحيّ الثقافيّ، احترامُنا ومحبّتُنا. وأهلاً وسهلاً بكم.

كلمة الأباتي سعد نمر
الرئيس العام للرهبانيّة المارونيّة المريميّة

إذا ما أردنا أن نتكلّمَ عن المستقبل، علينا أن نغوّصَ في الماضي البعيد، وأن نعيَ جيّداً حاضرَنا، لننطلقَ منه ومن مقوّماته ومعطياته لنرسيَ أُسسَ مستقبلٍ، ليس هو ملكُنا، بل ملكُ اللهِ والأجيالِ الصاعدة.

من هنا كلامُنا عن الحياة الرهبانيّة في أبعادها الخمسة التي لا يمكنُنا، في مثل هذه العُجالة، أن نقولَ فيها كلَّ شيء. بل ما نتوخّاه من هذه الكلماتِ هو أن نسلّطَ بعضَ الضوء على مضامينِ تلك الرسالة، وعلى ما يمكنُها أن تجسّدَه آمالاً كباراً للأجيال الطالعة والعاملة في قلب الكنيسة والمجتمع والوطن.

ماذا أعطتِ الرهبانيّةُ على الأصعدة:

١) **الصعيد الروحيّ**: الحياة الليتورجيّة، الصّلاة، التأمّل الفرديّ (النّسك والتوحّد)، التأمّل الجَماعيّ، وكيف ابتدأت، في لبنان، وفي أيِّ تاريخ، الحياةُ الرهبانيّةُ المنظّمة، والتي ترعاها القوانينُ بكلّ المفاهيم مع مؤسّسي الرهبانيّتين المارونيّة المريميّة واللبنانيّة المارونيّة في سنة ١٦٩٥.
أين أصبحتِ اليوم؟ وأنّى نحن اليوم من عمق الحياة الروحيّة بأبعادها التأمّليّة، والغوصِ، من خلال الصلاة الفرديّة والجَماعيّة، في أسرار الثالوث وكنيسة المسيح.

٢) **الصعيد التربويّ والثقافيّ**: أبصرتْ أوّلُ مدرسةِ النّورَ في جوار الأديار وتحت السنديانة، بتلقينِ التّعليمِ الدينيّ من قبل الرهبان، وشرحِ الكتاب المقدّس، وتعليمِ اللغاتِ العربيّة والسريانيّة والكرشونيّة، والحساب. ومن هنا، يمكنُ مقارنتُها مع ما تقومُ به الرهبانيّاتُ اليوم على هذا الصعيد: هناك المدارسُ الحديثة، والمعاهدُ المتطوّرة، والجامعاتُ التي تستعملُ أحدثَ ما توصّل إليه العقلُ البشريّ من آلاتٍ متطوّرة إلكترونيّاً، واختراعاتٍ وتقنيّةٍ على جميع الأصعدة، وفي كلّ الحقول والميادين. التكيّفُ مع عالمنا الحاضر، لأنّ الرهبانيّةَ هي في العالم، وليست من العالم، كما قال المسيحُ الذي من أجله تركنا كلَّ شيء وتبعناه.

٣) **الصعيـد المهنيّ والحــرفيّ**: النّجارة، والحداده، وتصليح الأحذية، والحلاقـة (قصّ الشعر)، والخياطة، والحياكة، والطّباعة (أوّل مطبعة في دير مـار أنطـونيـوس قـزحيّـا سنــة ١٦١٠...)

٤) **الصعيـد الـزراعيّ**: الرهبان هم أوّلُ من اعتنى في حراثة الأرض وزرعها، ومن سوّى جبالَها وطحنها حتّى أصبحت جلولاً صالحة لزراعـة الأشجـار المثمـرة.
وفي هذا الصدد، ترك لنا المؤسّسُ عبدالله قراعلي كتيّباً، شرح لنا فيه كيفيّةَ تربية «دود القـزّ».

٥) **الصعيد الـوطنيّ**: هم من أعطَوا الوطنَ القيمةَ الحقيقيّة، من خلال محبّتِهم للأرض وتعلّقهـم بها والذّودِ عنها حتّى الموت. ومنهم من دافع عن المبادءِ التي تحفظُ لكلّ إنسان حقوقَه وكرامتَه وحـرّيتـه. ومنهـم مـن ضحّى في سبيـل مـواطنيهـم في وقتِ الملمّات. ونذكرُ هنا الأب بطرس الخويري الذي كان يقطعُ البحرَ ليـلاً، آتيـاً مـن مصر، ليحملَ المساعداتِ للمحتاجين والمعوزين، أثنـاءَ الحربِ العالميّة الأولى التي أودت بحياة الكثيريـن.



كلمة الكردينال نصرالله بطرس صفير
بطريرك انطاكية وسائر المشرق

البركة الرسوليّة تشملُ حضرةَ ولدِنا الأب فرنسوا عيد،
رئيسِ جامعة سيّدة اللويزة، المحترم

تعقدون مؤتمراً تحت عنوان «الرهبانيّات: رسالة للمستقبل»، في السّابع والثّامن والعشرين من تشرين الأوّل الجاري، وذلك في إطار اليوبيل المئويّ الثالث لتأسيس الرهبانيّة في لبنان. وقد رأيتم أن تبحثوا، في هذا المؤتمر، بعضَ وجوهٍ من رسالة الرهبانيّات في لبنان للمستقبل، فاخترتم أربعةَ أبعاد، وهي الروحيّةُ والثقافيّة والاقتصاديّة بما فيها العملُ والعلاقةُ مع الأرض، والمجتمعيّةُ والوطنيّة. وقد وكلتم معالجةَ هذه المواضيع إلى نخبة من خيرة رجال الفكر والقلم، من إكليريكيين وعلمانيين. وستخلصون، بعد العرض والنّقاش، إلى توصياتٍ تنيرُ طريقَ المستقبل.

إنّا، إذ ندعو لمؤتمركم بالنّجاح، نأملُ أن يكونَ خطوةً تقودُ إلى تعميق مفهومِ رسالةِ الرهبانيّة في لبنان. وهي رسالةٌ قام بها من اعتنقوا الحياةَ الرهبانيّة عندنا، طوالَ ثلاثمائة سنة، فكانوا للشّعب المسيحيّ الآباءَ الروحيين يصلّون ويعلّمونه الصلاة، ويتثقّفون ويثقّفونه على القيم الدينيّة والأخلاقيّة والإنسانيّة، ويعملون، باليد وعرق الجبين، في الزّراعة، ويتقنون الحِرفَ من طباعة وتجليد وخياطة، إلى ما سوى ذلك من أمثالِ هذه، فقامت بينهم وبين من عاشوا معهم من أبنائهم وإخوانهم روابطُ وثقى شدّتهم جميعاً إلى هذه الأرض التي طبعوها بطابعهم، بعد أن أخذوا عنها، وبخاصّةٍ عن صخورها، ما عُرفوا به من رسوخِ إيمانٍ بالله، وصلابةِ إرادة، وثباتٍ على المبادىء، وصدقٍ في التّعاطي، يقيناً منهم أنّ من لم يكنْ صادقاً مع نفسه، فكيف باستطاعته أن يكونَ صادقاً مع النّاس، وأنّ من لا يثبتُ على مبادئه يميلُ مع كلّ ريح، فكيف لا يخجلُ من نفسه، ويفقدُ كلَّ احترام.

ولا بدَّ من التّأكيد أنّه ما من مجتمعٍ ينهضُ إلاّ إذا قام ترابطٌ ووفاقٌ بين أبنائه. وما من وطن يزدهرُ إلاّ بتضافرِ جهودِ كلِّ المواطنين. وهذه قيمٌ يجبُ أن يتلقّنها المواطنون

في العائلة أوّلاً، وعلى يد مربّين أكفّاء، يمتازون بتقوى الله، واستقامةِ المسلك، وصدقِ المواطنيّة، مع ما تقتضيه من تضحيةٍ بالمصلحة الخاصّة وإيثارٍ للمصلحة العامّة، والذين نذروا نفوسَهم للّه كالرّهبان هم أجدرُ من يقومُ بهذه الرّسالة.

وعلى أمل أن يكلّلَ اللهُ مؤتمرَكم بالنجاح، نسألهُ تعالى أن يسدّدَ خطاكم إلى التّوفيق ويشملكم برضاه وبركاته.

بكركي في ٢٢ تشرين الأوّل ١٩٩٥
الكردينال نصرالله بطرس صفير
بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

القسم الأوّل

الجلسة الأولى

الموضوع **الرسالة الرهبانيّة: الدّور والخيار في لبنان والعالم**

الرّئيس **المطران حميد موراني**

المحاضرون

الأب العامّ جورج حرب

الدكتور أديب صعب

الدكتور سامي مكارم

كلمة المطران حميد موراني

مداخلتي تتألّف من ثلاثة مقاطع

المقطعُ الأوّل يتناولُ العنوان: **«الدّور والخيار في لبنان والعالم»**. وكنتُ أتمنّى لو كان العنوانُ أكثرَ موضوعيّةً وأقلّ شموليّة، مثل: «الدّور والخيار في لبنان والعالم العربيّ وبلدان الإنتشار». لا أقولُ ذلك لأنيّ مطران دمشق، بل عن اقتناعٍ اكتسبتُه سنة ١٩٧٠ حين كنت أؤلّف كتابي: «تاريخ العلوم عند العرب». وقد وجدتُني أمام تساؤل: هل أتكلّم على «الحضارة العربيّة» أو «حضارتنا العربيّة»، فاخترتُ العبارةَ الأخيرة. ولا مجال لمزيد من الشرح. وأكتفي بعبارة وردت في بيان بطاركة الشرق الأوسط الذين اجتمعوا في بزمّار هذه السّنة، وتضمّن بيانُهم الكلامَ على «عالمنا العربيّ». يبقى أن نحدّدَ عروبةَ لبنان. المسلمُ عربيٌّ بالتّقليد أو بالانتماء التقليديّ، وأكاد أقول «الطبيعيّ»، إلى العروبة. والمسيحيُّ ينتمي إلى العروبة بالاختيار والرضى لكونِ «العروبة قدرنا» كما قال الرئيس سركيس. ورسالتُنا في هذا العالم رسالةُ حقيقةٍ ضدّ الإيدولوجات، ورسالةُ حريّةٍ تجاه تقييد هذه الحريّات. وبذلك تكونُ عروبتُنا عروبةً نقديّة.

المقطع الثاني: **الوجدان التاريخيّ المارونيّ**. وهنا اسمحوا لي أن أحدّدَ المكانَ الذي أنطلقُ منه، وهو مجموعُ النتائج التي توصّلتُ إليها في كتابي «الوجدان التاريخيّ المارونيّ» و«في هويّة لبنان التاريخيّة» وفي دراسات هي في طور الإعداد بعنوان: «الموارنة: هويّة في أزمة أو نحو هويّة جديدة». الهويّة المارونيّة هويّةٌ دينيّة. وكلُّ ما هو دينيٌّ يعطي المجالَ الأوسعَ للماضي. الدويهيّ يقول: «نسل مارون» «الأمانة لمارون». وعلى هذا الأساس نراه يقول: «نحن معانون من ألف سنة. وبيعةُ الله، لو لم يكنِ اللهُ سندها، لكانت هُدمت». الزمنُ المارونيّ ثقلةٌ في ماضي التقاليد وحاضره، قائمٌ على الثّقة التي تنطلقُ نحو المستقبل على أساس الاستمراريّة والاتّصال. التعلّقُ بالماضي كان مصدرَ اعتزازٍ، ومصدرَ سلوكٍ، ومنبعَ قيم.

ينفتحُ إلى المستقبل إنطلاقاً من أمانته لذاته. أمانة الموارنة وطاعتهم وثباتهم وغيرتهم

ومحبّتهم وشجاعتهم هذه المحامد لم تخصَّ أهلَ جبل لبنان وحدهم، بل لسائر الموارنة، الذين كانوا تحت طاعة البطريرك يوحنّا، الذي جعل من الموارنة «قطيعاً أعظم».

فالهويّةُ المارونيّة متماسكةٌ في أبعادها التاريخيّة منذ الماضي إلى الحاضر والمستقبل. يُضاف إلى ذلك دورُ البطريرك. واليوم نجدُنا أمام واقع يجعلُ من البطريرك الحارسَ لهذه الهوية. وهذا ما يقولُه الدويهيّ حينما يؤكّدُ أنّ البطريرك هو المتكلّمُ على شعبه والمتقدّمُ عليه.

أزمتُنا اليوم تمنعُ علينا الإتّصال بماضينا، وقد غيّبتنا عن حاضر التاريخ. ومستقبلُنا لا أفقَ له. وأعتقدُ أنّنا نستطيعُ أن نفسّرَ ذلك كما يلي: «الموارنة كانوا يلجأون إلى الجبل. والبطريرك الدويهيّ يقول: أهلُ هذا الجبل يعتقدون أن لا أحدَ يستطيعُ أن يصلَ إليهم».

فما يُعرفُ بالإنعزاليّة المارونيّة ليس بدون أسس. لكنّ الموارنةَ تخلّوا عن هذه الحالة، يوم دخلوا في النهضة العربيّة والقوميّة العربيّة ضدّ الأتراك. وقد انتقلوا إلى تجربة مفاجئة تاريخيّاً، وهي أن يتخلّوا عن الجبل – الملجأ إلى المشاركة بينهم وبين المسلمين في دولة واحدة. والأزمة الحاليّة لا تدلّ إلى نجاح هذه التجربة المشتركة. وأعتقدُ أنّنا أمام بدايةٍ جديدة، وهناك علاماتُ أزمنة ثلاث تشيرُ إلى الإنطلاق من جديد: – السينودس من أجل لبنان – الدعوة التي لا تزال قائمةً إلى عقد مجمع مارونيّ – وأخيراً، سيامةُ ٤٤ كاهناً بوضع يد صاحب الغبطة.

وهذا يعني ضرورةَ العودة إلى هويّةٍ أساسُها الخيارُ الإيمانيّ، وبالتّالي إلى تحوّل جذريّ في سلوكنا وخطابنا. وهذا لا يعني التنازلَ عن الخيار السياسيّ، لكنْ ضبطَه تحت رسالةٍ، على الموارنة أن يؤدّوها في عالمنا العربيّ.

رسالة الرهبنيّات

وفي هذا المكان، بين الخيار الإيمانيّ والخيار السياسيّ، تستطيعُ الرهبانيّاتُ أن تحدّدَ رسالتَها للمستقبل، على أساس تقاليدها، ومن أبرزها القداسة. تساءل الرئيس حلو مرّةً أمامي: هل نحن مدعوّون إلى اتّباع شربل قسّيس أم شربل مخلوف. نحن بحاجة إلى قداسة في شعبنا، حتّى لا نعبدَ المالَ ونرتكبَ العنفَ في سبيل مصلحةٍ سياسيّة ونمالقَ

بالمساومة على الحقيقة. نحن بحاجة إلى نماذج سلوك تذكّرنا شهادةَ القداسة. وبدون القداسة تتحوّلُ الرهبانيّة إلى إيديولوجيا من نظام مختلف، بدل أن تكونَ «مكاناً سويّاً». كما يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: إلى جانب القداسة، يجب أن نهتمّ بتحديد الحاجات الثقافيّة للشعب كلّه. والجامعاتُ المارونيّة مدعوّةٌ أن تذهبَ في العمق، لا في التوسّع. وبذلك، تستطيعُ أن تَدخلَ إلى مجال الثقافة العربيّة الأوسع. وهذا الحضورُ يجبُ أن يقومَ على أُساس حاجاتنا الثقافيّة. في الستّينات كانت ثقافتُنا جماليّةً.. (هويّة لبنان التاريخيّة) في السبعينات قمنا بنقله إلى الثّقافة النقديّة مع ناصيف نصّار في نقده للمجتمع الطائفيّ ومع صادق جلال العظم في كتابه «نقد الفكر الدينيّ» ومع جو مايلا ومنير شمعون وأنا.

في نقد ثقافتنا

وحاجاتُنا الثقافيّة الأبرز اليوم هي تجذيرُ الأنا للتحوّل من المظاهر والتسرّع، إلى المسؤوليّة الجديّة، واكتساب روح الموضوعيّة عن طريق العلوم الصحيّة والعلوم الإنسانيّة. في كتابي حول هويّة لبنانَ التاريخيّة، هناك دراسةٌ عنوانُها: خلاصنا! إيمانٌ صافٍ وعقلٌ موضوعيّ. والحاجةُ الثقافيّة الأعمقُ والأصعبُ هي في توجّهنا إلى المستويات العليا: الحريّة، الحقيقة، المطلق، الرّوح، إلخ... وبذلك نسعى إلى توجيه الأنظار إلى رحاب إنسانيّة الإنسان، بدل أن تقيّدنا المركانتيليّة.

وأختمُ كلَّ ذلك بتوجّهات برغسون: نحن بحاجة إلى «نداء الأبطال» لنتركَ «المجتمع المغلق» إلى «المجتمع المفتوح». كما نحن بحاجة أيضاً إلى «نداء القدّيسين» لنتركَ الدّينَ الجامد من أجل «الدين الديناميكيّ». إذاً رسالةُ الرهبانيّات ليست بسهلة، إذا أرادت هذه الرهبانيات أن تعملَ بروح الرسالة الجديّة والمتماسكة.

كلمة الأب جورج حرب
الرئيس العام لجمعيّة المرسلين اللبنانيين

أيّها الحفل الكريم

إنّ الحديثَ عن البعد الروحيّ للرهبانيّات، من المؤسّس إلى اليوم... وغداً، إنّما هو الحديثُ عن استمراريّة الكنيسة في عَنصرة دائمة، تجدّدُ المفاهيمَ الروحيّةَ والكنسيّة، وتبلورُ أنماطاً مستحدثة لعيش تعاليم المسيح، وتُذكي الإستماعَ إلى صوت الرّوح إلى الكنائس يدعوها دوماً إلى عيش قيمِ الحياةِ المسيحيّة بكلّ أبعادِها ومستلزماتها على كلّ الأصعدة، لا سيّما الروحيّ منها. والحياةُ الرهبانيّة، منذ انطلاقتِها الأولى وحتّى الآن، سواءٌ في الغرب أم في الشّرق، لم تكنْ يوماً إلاّ التّعبيرَ عن عمل الرّوح في الكنيسة يستحثُّها لتسيرَ نحو الكمالِ الذي دُعينا إليه كلُّنا من قبل المسيح: «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويَّ كاملٌ هو» (متى ٥/٤٠). وهذه الدّعوةُ إلى الكمال يمكنُ أن يعيشَها المعمّدُ المؤمنُ العادي، كما يجبُ أن يعيشَها المكرّسُ لله بالنّذور أو بالكهنوت. وتاريخُ الكنيسة خيرُ دليلٍ على رَبَواتٍ من القدّيسين، علمانيين وإكليريكيين، فهموا دعوةَ المسيح على حقيقتها، والتزموها حياةً أعطت ثلاثين وستين ومئة، كما كانتِ التجارةُ بالوزنات الخمس والإثنتين. فمن يعيشُ في مفهوم التّواصلِ واللقاءِ ما بين اللهِ والإنسان، لا بدَّ من أن يكونَ التكاملُ والكمالُ الذي يؤدّي إلى الله الغايةَ والهدفَ في سرّ الملكوت.

هكذا كانت رغبةُ مؤسّسي الرهبنةِ الحلبيّة اللبنانيّة: إبراهيم حوّا، عبد الله قراعلي، يوسف البَتن وجبرايل فرحات؛ والأربعةُ من مدينة حلب التي عرفتْ آنذاك ازدهاراً روحيّاً كبيراً وحياةً كنسيّةً متجدّدةً أثمرت وعياً دينيّاً متقدّماً لدى أغلبيّة المؤمنين، وذلك على أيدي المرسلين الغربيين وأسقفِ المدينة آنذاك المطران جبرائيل البلوزاوي الذي أصبح بطريركاً.

إنّ الرّوحَ الذي هبّ في كنيسة حلب، أرسل الشبابَ الأربعة إلى لبنان، إلى وادي قنّوبين، وادي القدّيسين، حيث مقرُّ البطريرك العلاّمة إسطفان الدويهيّ، الذي رحّب

بهم واحتضنهم وبارك توجّهَهم في تنظيم الحياةِ الرهبانيّة، الزّاهرةِ آنذاك، إنّما غيرِ منظّمةٍ قانونياً. فانكبّ المؤسّسون لوضع القوانين التي تنظّمُ العيشةَ المشتركة والحياةَ الديريّة والصّلواتِ الجَماعيّةَ والأعمالَ اليدويّة في إعمار الأديار كما في الأرض، وُقِفَت لهم لإعالتهم، كذلك الأمرُ في الخدمة الروحيّة للشّعب المتواجد بالقرب من أديارهم وفي التّعليم والتّثقيف العلميّ والدينيّ، ممّا جعل الناسَ يلتفّون حولهم، وينخرطُ الكثيرون في صفوفهم، ينهلون من مَعين خبرتِهم الروحيّة لحياةٍ أقربَ إلى السّماء منها إلى الأرض التي كانوا يُخصبونها بعرق جباههم التوّاقة دوماً إلى الكمال وإلى القداسة.

لم تكنِ الحياةُ في الرهبانيّة يوماً حياةَ استرخاءٍ وهروبٍ من صعوباتِ هذه الدنيا ومشاكلِها، وطلباً لراحة أفتقدها طالبوها؛ إنّما هي التزامٌ مطلَق لعيشٍ حميم مع الله، وتكرّسٍ نهائيّ لخدمةِ الملكوت الآتي، ولروحنةِ المجتمع والكنيسة من خلال الشّهادة اليوميّة للقيم وللمفاهيم التي عاشها وعلّمها سيّدُنا يسوعُ المسيح. كذلك، لم تكنِ الحياةُ في الرهبانيّة، يوماً، حياةَ استعلاءٍ أو استكبارٍ أو استحداثِ طبقةٍ جديدة من طبقات المجتمع والكنيسة، إنّما هي بالرّوح تتغذّى منها الكنيسةُ والشّعبُ، وتقوّي عزائمَ الإيمان، وتشدُّ أواصرَ المحبّة، وتشهدُ بالرّجاء للملكوت الآتي والذي ننتظرُه جميعُنا.

وقد علّم المؤسّسون أنْ لا حياةَ رهبانيّةً ما لم تكنْ هناك صلواتٌ وتأمّلاتٌ وأهازيجُ وترانيمُ روحيّةٌ في النّهار كما في الليل تأكيداً على قول السيّد: «حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكونُ بينهم» (متّى ١٨/٢٠). وهكذا كان، إذ وُضع نظامٌ للحياة الروحيّة الجَماعيّة في كلّ دير، سمة الحياة المشتركة، عاشه الرهبان، رغم كلِّ المصاعبِ التي اعترضت مراحلَ التأسيس وما بعده، يغذّون منه حياتَهم الروحيّةَ الخاصّة ونزوعَهم إلى اللّقاء مع الرّب والتأمّل في أعماله العجيبة في مخلوقاته. وهذا النّوعُ من الحياة الروحيّة الجَماعيّة العميقة، في كلّ الأديار، جعل الكثيرين من الرّهبان يتميّزون بقداسة حياتهم وإشعاعها بين أبناء الشّعب المؤمن، كما أفرز بعضاً منهم ليعيشَ حياةَ الزهدِ والتقشّف والنّسك في المحابس والصوامع، فكان منهم القدّيسون أمثالُ شربل وغيرِه الكثيرين الذين رحلوا عن هذه الدنيا في رائحة القداسة.

لا شكّ أنّ أموراً كثيرة تبدّلت وتغيّرت منذ الخمسينات وحتّى اليوم بنوع خاص. ولا

شكَّ أنّ رياحَ التغيير ستفعلُ فعلَها أيضاً حاليّاً ومستقبلاً، لأنّ الكنيسةَ والرهبانيّاتِ والجمعيّاتِ فيها لا بدّ من أن تصغيَ إلى صوت الرّوح يناديها لتواكبَ كلَّ عصرٍ وكلَّ جيل، مع الأمانة المطلقة لروح المؤسّسين. فعلى كلّ رهبنة أو جمعيّة مكرّسة أن تنظرَ لوضعها بعين الإيمان، وتتقصّى دوماً روحَ المؤسّسين لتعلمَ ما المطلوبُ منها اليومَ وغداً، وتعملَ بالنتيجة بهدي ذلك الرّوح الذي أطلقها وأوصلها إلى عالم اليوم، وسيوصلُها إلى عالمِ الغد إنِ استمرّت على الأمانة لرسالتها.

إنّ طريقةَ الحياةِ الروحيّة في الرهبانيّات لم تعدْ كما كانت من قبل، لأنّ عالمَ اليوم يتطلّبُ مواكبةً ومرافقةً في كلّ المجالات والحقول. والكنيسةُ، معلّمةُ الشعوبِ والأمم، والتي تحتضنُ الرهبانيّاتِ على اختلافِ تنوّعها، هي مرسلةٌ إلى هذا العالم لتقولَ له كلمةَ البشارةِ الحلوة، كلمةَ إنجيل المسيح الذي يدعو العالمَ إلى التحرّر بالحقّ والحقيقة، وإلى السّير في طريق السّلام والمؤاخاة، وإلى الشّهادة لحياة الملكوت من خلال حياةٍ كريمة وصادقة لكلّ إنسان على هديِ تعاليم الرّب يسوعَ القائل: «أنا هو الطريقُ والحقّ والحياة» (يوحنا ١٤/٦). فالرهبانيّاتُ كلُّها مدعوّةٌ اليوم وغداً لتشهدَ للمسيح، جماعةً وأفراداً، ناقلةً إلى العالم رسالةَ المسيحِ والصّورةَ المشعّةَ لوجهه الإلهيّ والإنسانيّ الذي لا همَّ عنده سوى الإنسان، كلِّ إنسانٍ وكلِّ الإنسان: «ما من حبّ أعظمُ من هذا وهو أن يبذلَ الإنسانُ نفسَه عن أحبّائه» (يوحنّا ١٥/١٣). فالرهبانيّاتُ في عالم اليوم يجبُ أن تجسّدَ هذا البذلَ وهذه التضحيةَ على مثال المعلّم الإلهيّ، لا أن تسترخيَ وكأنّ شيئاً لا يعنيها. هي مدعوّةٌ اليوم لافتداءٍ جديدٍ يخلّصُ العالمَ من العبوديّة والاستعباد لأصنامٍ اخترعتها المدنيّةُ المعاصرة لسحق الإنسان في عيشه وحرّيته واختياره وسيادته على نفسه، ولإبعاده عن القيم الأخلاقيّة والروحيّة والإنسانيّة.

والرهبانيّاتُ اليوم، كما بالأمس، عليها أن تكونَ في خدمة الإنسان والمجتمع على مثال المعلّم أيضاً: «إبنُ الإنسان لم يأت ليُخدمَ بل ليَخدم». هي حالةُ الإستعداد الدائم للخدمة: روحيّاً، علميّاً، ثقافيّاً، إنسانيّاً وحضاريّاً. مجتمعُنا ينوء تحت وطأةِ التعجيز في كلّ شيء بأغلبيّةٍ ساحقة منه. والرّهبانيّاتُ هي جزءٌ من هذا المجتمع. إنّها حقّاً تعملُ الكثيرَ في خدمته، لكن يمكنُها أن تعملَ الأكثرَ من خلال قراءةٍ جيّدة لعلامات الأزمنة، وللدّور الذي أراده لها اللهُ والمؤسّسون. فبالتّضامن والتّضافر والعمل المشترك، يمكنُ

تأديةُ وتأمينُ خدماتٍ كثيرة للمجتمع تعجزُ عنها رهبانيّةٌ بمفردها. وهذا ما يوجبُ على المسؤولين عن الرهبانيّات أن يتلاقوا دائماً ويتدارسوا ما يمكنُ عملُه من خلال تنسيقٍ مشترك لعمل اجتماعيّ مطلوبٍ اليوم أكثرَ من أيّ يومٍ مضى. كلُّنا نؤمنُ بالرّب الواحد، ودعوتُنا مصدرُها واحدٌ، وهدفُها واحد، والكنيسةُ التي تحتضنُنا واحدةٌ، والإنسانُ هو واحد. كلٌّ هذا يدعونا لكي نوحّدَ الجهودَ، ونعقدَ الخناصرَ، ونشبكَ الأيادي في أعمالٍ تضامنيّة مدروسة لخدمة الله في الإنسان والمجتمع.

والسّينودس الخاصّ من أجل لبنان، ليس هو دعوة لتقويم الإعوجاج السياسيّ فقط، إنّما هو دعوةٌ تجدّديّة بالرّوح، تجذّرُنا في أصالتنا الرهبانيّة وفي الأمانة لروح المؤسّسين؛ كما أنّه صوتُ الرّوح يدعونا على أبواب الألف الثالث لأن نكونَ مستعدّين لنسمعَ صوتَ المعلّم: «ها أنذا واقفٌ على الباب أقرع» (أعمال ٣/٢٠). فالسّينودس هو للعلمانيين، كما للرهبانيّات كلّها، صوتُ المسيح، صوتُ الرّوح، يوجبُ علينا تعميقَ إيمانِنا بالله، وعيشَ دعوتِنا المكرّسة بروحٍ نبويّة يلتقي فيها اللهُ والإنسانُ، ونلتقي نحن بهما عاموديّاً وأفقيّاً لنعطيَ معنىً لحياتنا. فالبعدُ الروحيّ لا يمكنُ فصلُه عن البعد الإجتماعيّ والثقافيّ والحضاريّ. والبعدُ الروحيّ هو الذي يحتضنُ بقيّةَ الأبعاد كلّها، لأن بدونه يبقى الإنسانُ مشوّهاً وبعيداً عن هدفه الأساسيّ الذي هو الملكوت. لهذا نرى أنّ الأمانةَ لروح الدعوة الرهبانيّة وللمؤسّسين توجبُ عيشَ البعدِ الروحيّ لعلاقة المكرّس بربّه بطريقةٍ صادقة، ملتزمة، مقتنعة وقانعة، بعيدةٍ عن الرّوح الفرّيسيّة، كما توجبُ القيامَ بحملةٍ تثقيفيّةٍ دائمة في كلّ الأوساط التي تطالها الرهبانيّاتُ لإنعاش الحياة الروحيّة الملتزمة، ليكونَ عملُ الكنيسة كاملاً ومتكاملاً، لأنّنا جميعاً شعبُ الله ونكوّنَ معاً جسدَ المسيح السرّي. فمن المسيح نستقي لنرويَ غليلَنا في صحراء هذه الحياة، ومن الرّوح نتغذّى لئلاّ نخورَ على الطريق.

فالبعدُ الروحيّ للرهبانيّات اليوم وغداً في لبنان، كما كان بالأمس، رغم الأخطاء الكثيرة الملازمة لطبيعة البشر، يلتقي مع البعد الإجتماعيّ والرسوليّ، ويجعلُ الرهبانيّاتِ، وضمن نطاقِها، ملتزمةً رسالةَ الخدمةِ والكلمة في آنٍ معاً، لمجتمعٍ متطلّبٍ ينقصُه الكثير: روحيّاً، أدبيّاً، ثقافيّاً ومادّياً. فمعنى وجودِنا اليوم وغداً هو التزامُ قضايا الإنسان، والعملُ في تحسين أوضاعه في كلّ الميادين.

كلمة د. أديب صعب

الرهبنة وتغيير العالَم

الرهبنةُ نزعةٌ متأصّلة في نفس الإنسان، تتفاوت قوّتُها من فرد إلى آخر. لكنّها قد تبقى كامنةً لدى بعضِ النّاس، بل لدى غالبيّتهِم. وما يميّزُها الإقرارُ بأنّ هذا العالَم الماديّ بكلّ ما عليه، لا كيانَ له في ذاته، لكنّه يستمدُّ كيانَه من حقيقةٍ أكبرَ منه ومغايرةٍ له، وأنّ هذه الحقيقةَ المطلقة هي التي تُغدِقُ على العالم معناه وقيمتَه. وفي هذا مغزى قولِ المسيح بأنّ مملكتَه ليست من هذا العالم، هذا القولِ الذي نجدُه على نحوٍ أو آخَر في كلِّ الأديانِ قبل المسيحيّةِ وبعدَها، معبّراً عن ذاك الذي يجعلُ الدّين ديناً، أي عن جوهرِ الدّين. ولا نعدو الحقيقةَ، لا بل نصيبُها في الصّميم، إذا قلنا بأنّ الرهبنةَ جوهرُ الدّين. لا الأخلاقُ هي الدّينُ، علماً أنّ الدّينَ لا يكتملُ إلاّ بالأخلاق وأنّ عملَ الصالحات لدى المؤمنِ ينبعُ من إيمانه الذي يبقى ميتاً بلا أعمال؛ ولا إصلاحُ المجتمع هو الدّينُ، علماً أنّ أساسَ الإصلاحِ الإجتماعيّ الراسخ هو إصلاحُ النّفوسِ في العمق وأنّ هذا الإصلاحَ هدفُ الدّين. لكنّ ثمّةَ أمرين لا يكونُ دينٌ بدونهما: الإقرارُ أوّلاً بأنّ السّقوطَ هو انفصالُ هذا العالم عن حقيقته المطلقة، والإقرارُ ثانياً بأنّ الخلاصَ هو إعادةُ الاتّصال بهذه الحقيقة.

ليست الرهبنةُ، إذاً، إنعزالاً عن العالم، كما صَوَّرَها بعضُهم، بمعنى عدمِ الإكتراث به. هنا حالٌ مَرَضيّةٌ متفشّية في أوساطٍ أكاديميّة كثيرة، تنزعُ إلى تَوهُّم الخلافاتِ والفوارقِ أو إلى تضخيمها. من هنا نشأت مشادّاتٌ كثيرة غيرُ ضروريّةٍ بين العلم والدّين، مثلاً، أو بين هذا الدّين وذاك أو هذه المدرسة الفكريّة وتلك، أو بين الفلسفة والدّين أو العقل والإيمان. ممّا قيل عن المسيحية، مثلاً، أنها دينٌ يقوم على الرهبنة، وأنّ الرهبنة تنتهجُ مبادءَ كاعتزالِ العالم وإماتةِ الجسد وهجرِ المجتمع. لكنّ هذا الكلامَ ينطوي على بلبلة كبيرة. فالرّهبانُ عملوا على حفظ التراث القديم، السّابق للمسيحيّة، عبر جمعهِم مخطوطاتِ العالم الكلاسيكيّ في أديارهم ودرسِها. هكذا حُفظت من الضياع

أعمالٌ كثيرة، بينها كتاباتُ أفلاطون وأوسطو والرواقيّين وعددٍ من المسرحيّين والشّعراء والأُدباء في اللغتين الإغريقيّة واللاتينيّة. وفي تخومِ أديارهم، أنشأ الرهبانُ مدارسَ كانت حجارَ الأساس في جامعاتِ القرون الوسطى، ومنها أكسفورد وكيمبريدج والسوربون، وبالتّالي أساس الجامعات الغربيّة الحديثة التي غدت نموذجَ التراث الجامعيّ الرفيع حول العالم. وأقام الرهبانُ المستشفياتِ والمدارسَ ودورَ الأيتام والكثيرَ من مؤسّسات الرعاية الصحيّة والاجتماعيّة. كما نشطوا في الزّراعة وفي بعض العلوم الطبيعيّة.

لم يكنِ الرهبانُ، إذاً، أعداءَ المعرفة والتربية، ولا أعداءَ العلم والخدمة الاجتماعيّة. بل أقبلوا على هذه جميعاً، وأدّوا الدّورَ الذي ارتضَوه لأنفسهم فيها على وجهٍ حَسَن. صحيحٌ أنّ تجاوزاتٍ حصلت هنا وهناك، كالتضييق على حريّة الفكر أحياناً وممارسةِ الإقطاع بمعناه السلبيّ أحياناً والتعصّب الدينيّ والطائفيّ أحياناً. من الطبيعيّ أن يلازمَ مقدارٌ من الخطأ كلَّ عملٍ بشريّ. لكنّ الكلامَ غيرَ المسؤولِ عن هذه المساوىء، أي الكلام الذي يكتفي أصحابهُ إجمالاً بالروايات المتناقلة من دون أن يتحرّوا عن صحّتِها، عمل على تضخيم المساوىء ورسمِ صورةٍ مشوَّهةٍ للواقعِ الرهبانيّ. والمطلوبُ درسُ التاريخ الرهبانيّ من جديد بناءً على أفضلِ مناهجِ الدراسةِ التاريخيّة والاجتماعيّة، سعياً إلى تكوين صورةٍ عادلةٍ للواقع.

إلاّ أنّ الرهبانَ لا يحتاجون إلى أيٍّ من هذه الأدوار لردّ تهمةِ الإماتة والإنعزال. غيرُهم يستطيعُ تأسيسَ المدارسِ والمستشفياتِ والمزارع وسواها من مؤسّسات العملِ الاجتماعيّ. دَورُ الراهبِ الأساسيُّ، كما قلنا، هو اعتزالُ العالم لا سعياً إلى انعزال، بل سعياً إلى ربط هذا العالم المادّيّ الزّائل بحقيقته الروحيّة الأزَليّة. وهنا، كما قلنا أيضاً، يكمنُ جوهرُ الدّين. ليس كلُّ اعتزالٍ رهبنةً أو ديناً. قد يصدرُ الاعتزالُ عن دوافعَ كالتّعب أو الهرب أو الخيبة أو الخوف، من دون أن يكونَ مرتبطاً بأيّ حقيقةٍ إلهيّة. وحدَه الاعتزالُ الذي يحصلُ من أجل ربط الكون بالله هو الاعتزالُ الرهبانيّ. وهذا ليس انعزالاً عن العالم والمجتمع بمقدار ما هو محاولةٌ لتحويل العالم والمجتمع إلى وضعٍ أفضل. لذلك قد تكونُ في أشَدِّ الأمكنة عزلةً عن العالم من غير أن تكونَ بالضرورة راهباً، وقد تكونُ منخرطاً في هموم هذا العالم واهتماماته وأنت راهبٌ حقيقيّ. وفي إحدى روايات دوستويفسكي أنّ رئيسَ ديرٍ قال لواحد من مريدي الرهبنة لديه يوماً

بعدما اكتشف موهبَته في العمل مع النّاس إنّه سيرسلُه إلى المجتمع ليكونَ راهباً وسطَ العالم.

الحقُّ أنّ في الرهبنة خطَّين، يقول أحدُهما بالانغلاق في الدّير وتكريسِ الوقتِ كلّه للصّلاة والتأمّل، فيما يقولُ الآخرُ بالانطلاق إلى العالم وتهذيبِ النفوس عبر إقامة المؤسّسات التربويّة والطبيّة والاجتماعيّة. هنا أيضاً يمكنُ أن يهرعَ محبّو الخلافاتِ والخطوطِ الفاصلة، وطالما فعلوا، للمفاضلة بين الرهبنة كما يفهمونها والرهبنةِ كما يفهمُها الآخرون، وربّما للخروج أخيراً بأنّ ثمّة رهبنةً أصيلةً وأخرى زائفة. وإذ لا يصعبُ الاعترافُ بأنّ التعصّبَ على كلّ صعيد من نَوازعِ النّفسِ البشريّة، إلاّ أنّه من جملةِ النوازعِ العدوانيّة التي يجبُ إخمادُها واستئصالُها. إنّ أيّاً من نَوعَي الرهبنةِ لا يجوزُ أن يلغيَ النّوعَ الآخر. ولطالبِ الرهبنةِ أن يمارسَها حسبَ الموهبةِ التي أُعطيتْ له. ولكنْ سواءٌ أكانتِ الرهبنةُ اعتزالاً في ديرٍ أم عملاً في المجتمع، فهدفُها الأوّلُ والأخيرُ هو تغييرُ العالم. وهذا يعني تحقيقَ معجزةٍ بتحويلِ العالمِ من كتلةِ حجارٍ وترابٍ وأكفانٍ متحرّكة إلى «علّيقة مشتعلة»، أي إلى مرآةٍ تعكسُ وجهَ الله.

لكنْ لا يستطيعُ تغييرَ العالمِ إلاّ من غَيّر نفسَه أوّلاً. وهذا يقتضي صراعاً طويلاً مع كلّ أمراضِ هذه النّفسِ وضعفاتها. وذلك هو الجهادُ الحقيقيّ الذي قد نحسبُ أنفسَنا مؤهّلين له فيما تيّاراتُ العالمِ كلُّها تتجاذبُنا وتجرفُنا ونحن غيرُ واعين، بل نتوهّمُ أنّنا أقوياءُ لأنّنا نستطيعُ قهرَ سوانا وسَبْقَهم إلى مركزٍ أو جاهٍ أو سلطان، وأغنياءُ بالأموال التي جمعناها. أمّا الرّاهبُ فيقطعُ محطّاتٍ كثيرةً على طريقِ تنقيةِ الذّات قبل أن يحقّ له البقاءُ في الدّير أو العملُ في العالم لتحويله إلى ما يشبهُ الدّيرَ، أي إلى دار قداسة. إذ ذاك يمكنُ أن يقولَ مع بولسَ الرسول: «في كلّ شيء نُظهرُ أنفسَنا كخدّامٍ للّه: في صبر كثير، في شدائد، في ضرورات، في ضيقات، في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب، في أسهار، في أصوام، في طهارة، في علم، في أناة، في لطف، في الرّوح القدس، في محبّة بلا رياء، في كلام الحقّ، في قوّة الله بسلاح البرّ لليمين ولليَسار، بمجد وهوان، بصيتٍ رديء وصيتٍ حَسَن، كمضلّين ونحن صادقون، كمجهولين ونحن معروفون، كمائتين وها نحن نحيا، كحزانى ونحن دائماً فَرِحون،

كفقراء ونحن نغنّي كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كلّ شيء» (٢ كورنثوس، ٦: ٤-١٠).

اليوم، في نهاية هذا القرن الذي تَميَّز بنزعات معادية للدّين وللرهبنة ارتبطت بأوساطٍ علميّة وفكريّة وثقافيّة وبأنظمةٍ سياسيّة مختلفة ومتصارعة، ما هو الخيارُ المفتوح أمام الرهبانيّات؟ كما أرى، هذا الخيارُ هو، باختصار، ليس في الإقلال من المؤسَّسات، ولكنْ في الإكثار من الشهادة. الراهبُ نورٌ يضيءُ في الظّلام (فيلبّي ٢: ١٥). إنّه رسولٌ يشهدُ للّه وسط عالمٍ معادٍ أو غيرِ مكترث. ولئن جعل من نفسه حَكَماً يؤنّبُ كلّ انحراف في المجتمع والدّين والسّياسة، فلأنّه أدَّبَ نفسَه أوّلاً ولم يكفَّ عن تأديبها، ولأنّ صفاءَ رؤيته وزهده بمتاع الدنيا الزائل أتاحا له أن يطرحَ الحلولَ الأساسيّة في كلّ نطاق.

وإذا شاء الرهبانُ أن يستمرّوا في إنشاء المؤسَّسات التربويّة والطبيّة والاجتماعيّة، فَلْيعلموا أنّ المطلوبَ منهم يفوقُ كثيراً المطلوبَ من سواهم، لأنّهم تأمّلوا ودرسوا وصَلّوا وصاموا واستَلهموا اللهَ قبل أن يعملوا. ولكنْ، ليحرصوا على ألاّ تتحوّلَ الرهبنةُ إلى مؤسَّسة، فتفقد عندئذٍ مبرّرَ وجودِها. ذلك أنّ الرهبنةَ حركةٌ إصلاحيّة داخل دينها، نشأت عندما أخذ الشكلُ يطغى على الجوهر، محوّلاً الكنيسةَ إلى مؤسّسة ومبتعداً بها عن روح المسيحيّة. دَورُ الرهبنة الأساسيّ هو حَفزُ التجدّدِ باستمرار في الكنيسة. وهذا يحتّمُ السّهرَ الدائم لئلاّ تغرقَ الكنيسةُ في سُباتٍ يسهّلُ لِقوى هذا العالمِ أن تخنقَها، فتنحرفُ عن رسالةِ المسيح التي جاءت ثَورةً على الفرّيسيّة باسم المحبَّة. الرّاهبُ إنسانٌ يصلّي بلا انقطاع، حاملاً شوطَ المسيح لِطردِ الصيارفة من الهيكل، ومجسِّداً في شخصه مثالَ السامريّ الصالح (لوقا، ١٠: ٣٠-٣٧) وما قاله بولس الرسول عن المحبّة (١ كورنثوس، ١٣).

ومتى أنشأ الرهبانُ المؤسَّسات، ليعلموا أيضاً أنّهم يعملون في مجتمع تعدّدي، وأنّ كلَّ مجتمعٍ في العالم هو مجتمعٌ تعدّدي شاءَ أم أبى، بمعنىً واحدٍ على الأقلّ هو تعدّدُ أفرادِه الذين يجبُ احترامُ حريّةِ كلٍّ منهم وكرامتِه. الرّاهبُ، في مجتمع كهذا، معلّمٌ في كلّ ما يفعل. وهو يعلّمُ بالقدرة، لا بالإكراه. والإقرارُ بالتعدّديّة يحملُ معه

اقتناعاً راسخاً بأنّ ما يفعلُه سوانا، خصوصاً المؤمنون من الأديان الأخرى، قد لا يختلفُ في مراميه الأخيرة عمّا نفعلُه نحن، وهو تحويلُ العالمِ إلى مسكنٍ للرّوح القدس. في مفهومٍ كهذا، يكملُ الواحدُ الآخرَ ولا يلغيه. وتصيرُ الرهبنةُ حركةً توفيقٍ بين الأديان لا من أجل القضاء على خصائصِ كلّ دين، بل من أجل اكتشافِ الرّوح الواحدة في كلّ الأديان، أي ذلك العنصر الذي يجعل منها أدياناً. وهذه الروحُ، كما قلنا، هي روحُ القداسة التي تدفعُ المؤمنَ من أيٍّ دينٍ كي ينظرَ إلى العالم لا ككيانٍ قائمٍ في ذاته، بل كمخلوق يستمدُّ كيانيّتَه من الله. وإذ يكتشفُ المرءُ هذه الرّوحَ، فهو يختبرُ أعلى ما يمكنُ أن يختبرَه إنسانٌ في حياته. لكنّ التحدّيَ ألاّ تخنقَه همومُ هذا العالمِ وتحجبَ عنه النّورَ الذي شاهَدَ قَبَساً منه، وأن يحوّلَ ذاتَه نوراً يضيءُ الطريقَ له ولسواه في متاهات هذا العالم. بهذا النّورِ يحصلُ المرءُ على الفن الحقيقيّ، لأنّ الغنيَّ هو من استغنى عن كلّ ما عدا اللهَ واغتنى بالله. عندئذٍ يَصِحُّ فيه قولُ المعَرّي في وصف الراهب:

«أغنى الأنام تقيٌّ في ذُرى جبلٍ ... يرضى القليلَ ويأبى الوشيَ والتّاجا

وأفقرُ النّاسِ في دنياهُمُ ملكٌ ... يُضحي إلى اللجِبِ الجرّارِ محتاجا»

كلمة د. سامي مكارم

الرسالة الرهبانيّة: الدور والخيار

في لبنان والعالم

أن يتكلّمَ المرءُ في الرهبانيّة دوراً وخياراً أمرٌ ليس بالسّهل. وكيف يكونُ سهلاً التكلُّمُ حول مؤسّسةٍ قامت على تنزّل الرّبّانية صفاتٍ من الغيب إلى عالم الحسّ، ومن المطلق إلى النسبة، ومن الإعلال إلى المعلول، ومن البسيط إلى المركّب، ومن اللطيف إلى الكثيف، ثمّ تبقى الرّبّانيةُ في هذا الإنسان ربانيةً دون أنْ تؤثّرَ فيها سلباً طبائعهُ الحسّيّةُ والنسبيّةُ والعِلّيّةُ والتركيبيّةُ والكثافيّة بما في هذه الطبائعِ من نزوعٍ إلى إثبات الأنا وشهوةِ الحسّ وضيقِ النسبة وحتميّةِ العلّة المحدودة وفسادِ التركيب وظلمةِ الكثافة. لكأنَّ الرهبانيّةَ بتنزّل صفاتها من الملكوت إلى عالم الملك ترجيعٌ، أو قلِ استلهامٌ، لذلك الفعلِ الإلهيّ الآبويّ القائمِ في المسيح الإبن. غير أنّ الفعلَ الناسوتيّ «الإبنيّ»، كما المسيحيّةُ تقول، هو والفعلُ اللاهوتيّ الآبويّ جوهرٌ واحد. أمّا الإنسانُ فأمرُه مختلف، وإن يكنْ يتّخذُ من وِحدةِ الآب والإبن نموذجاً له وغاية.

ومع أنّ الإنسانَ روحٌ ومادّة فإنّ فيه صفاتٍ هي نتيجةٌ لكونه مخلوقاً محدوداً مركّباً مكوّناً من جسدٍ هو حقلٌ للخطيئة. أما قال القدّيس بولس في رسالته إلى أهل رومية، «فأنا إذن بالرّوح عبدٌ لناموس الله وبالجسد عبدٌ لناموس الخطيئة»[١]؟ فكيف للإنسان إذاً أن يتجاوزَ التركيبَ إلى البساطة الإلهيّة؟ أم كيف له أن يتخطّى رِبقةَ الشهوات التي تظهرُ في الجسد إلاّ بالرّوح؟ هنا الجهادُ المضني المتواصل المستمرّ. ويا للمصيبة الكبرى إن تخلّى الإنسانُ عن هذا الجهاد، جهاد الروح، في العبوديّة لناموس الله التي هي الحرّية الحقّ، ضدَّ الجسد وعبوديّته لناموس الخطيئة التي هي العبوديّةُ الظلمانيّة الإبليسيّة في الإنسان. والإبليسيّةُ شفّافةٌ تدخلُ في الإنسان من حيث لا يدري. وقد

١- رسالة القدّيس بولس إلى أهل رومية، ٧: ٢٥.

تدخلُ فيه حتّى خلل العبادةِ والطّاعة إذ يطمئنّ إلى طاعتهِ للّه فيتخلّى عن جهاده فتحلّ فيه عبوديّةُ ناموسِ الخطيئة. من هنا وَجَبَ التيقّظُ الدائمُ المستمرّ، حتّى في العبادة والطّاعة، لخطر دخول الإبليسيّة في الإنسان مهما بلغ هذا الإنسانُ من شأوٍ بعيد في العبادة والرهبانيّة والقدسيّة. هنا يحضرُني وليٌّ من الأولياء المتصوّفة لدى الموحّدين (الدروز)، وهو الشيخ محمّد أبو هلال المعروف بالشّيخ الفاضل، وكم بين التصوّفِ والرهبانيّة من قربى، إذ يقول إنّ هذا الخطر هو «أعظم ما يُبتلى به العلماءُ والزهّاد المشمّرون عن ساق الجدّ. فإنّهم لمّا قهروا أنفسَهم بالمجاهدة وفطَموها عن الشّهوات وحَمَلوها على أصنافِ العبادات، عجَزَت أنفُسهم عن الطّمع في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارح وطلبت الاستراحةَ إلى التّظاهر بالخير وإظهار العلم والعمل، فوجدت مَخلَصاً من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القبول عند الخلق ونظرهم إليها بعين الوقار والتّعظيم، فنازعت في إظهار الطاعة وتوصّلت إلى إطلاع الخلق ولم تقنعْ باطّلاع الخالق، ففرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده جلّ جلالُه، وذلك غايةُ الطغيان».

هذا هو الخطرُ العظيم الذي يتعرّض له العبّادُ والزهّاد والرهبان، إلى أيّ دينٍ انتمَوا، فيقعون في الخطيئة من حيث لا يعلمون، وتتحوّلُ المحبّةُ لديهم من محبّةٍ خالصة إلى محبّة زائفة إذ تتحوّلُ من محبّةٍ للّه، وبالتّالي محبةٍ للبشر جميعاً، إلى محبّة للأنا، وهي «محبّةٌ» خاليةٌ من صفات المحبّة الحقّ، ضيّقةٌ لا تتّسعُ إلاّ لتصلَ إلى محبّة المقرّبين إليك الذين يجمعُك بهم الانتماءُ إلى دين معيّن، فيخلو مفهومُك للدّين من مضمونه الإنسانيّ الشامل، وبالتّالي من مضمونه الإلهيّ، ليأخذَ مفهومَ القبيلة الضيّق الأرضيّ، وتخسر بذلك انتماءَك إلى مدينة الله، بعبارة القدّيس أوغسطين، وتقنع بانتمائك إلى مدينة الأرض، مدينةِ الدنيا. فإذا كان الإنسانُ قد أنعم اللهُ عليه بنعمة الإحساس، فإنّ هذا الإحساسَ، كما يقول القدّيس أوغسطين أيضاً، يجبُ أن تتّخذَه الروحُ فعلاً تفعلُه وتؤثّر به في الجسد فترتقي به، لا أن يكونَ مجرّدَ عاطفةٍ تنفعلُ بها الرّوحُ وتجرُّها إلى نزعات المدينةِ الأرضيّة المضادّة لمدينة الله.

إنّ هذا الخطر، لَعمري، سهلٌ أن يقعَ فيه رجالُ الله، أمسيحيين كانوا أم مسلمين أم كانوا ينتمون إلى أديانٍ أخرى. وهذا ما حصل فعلاً في الحرب اللبنانيّة الأخيرة حيث

شارك كثيرٌ من رجال الدّين رهباناً وكهنةً كانوا أم شيوخاً وعلماء؛ وذلك إمّا بأيديهم وإمّا بأقلامهم وإمّا بقلوبهم. وهذه هي الكتاباتُ المختلفة التي كُتبت أو نُشرت تشهدُ بذلك، ولم تكنْ غايتُها إلاّ تشويهَ الحقائق، خلف ستار نشر الحقائق، بغيةَ رمي الشّقاق وإذكاء العداوة والبغضاء، كنشر كتبٍ منسوبةٍ إلى الموحّدين مزوّرة مشوَّهة أو كتب تتناولُ عقائدَ الموحّدين وعقائدَ غيرهِم بأنواعٍ من التحامل والاختلاق مغلَّفةٍ بغلافٍ من العلميّة واصطناع التجرّد بغية الإمعان في الطعن. وهذا بكل تأكيدٍ مخالفٌ كلَّ المخالفةِ لتعاليمِ الدّينِ القائمةِ على المحبّة، وعصيانٌ واضح لفضائل الرهبانيّة القائمةِ على الطاعة والفقر والعفّة.

إنّ حياةَ الرهبنة، أيّها الرهبانُ الأجلاّء، لا تكونُ رهبانيّةً حقيقيّة إلاّ إذا كانت موجّهةً إلى الله. ومن خلال هذا التوجّه تكونُ موجَّهةً إلى الإنسان. بذلك وحدَه يكونُ العملُ عملاً إنسانياً يؤتي ثمارَه ويعلو بالإنسانيّة إلى مراقي كمالها. فالعبادةُ، عبادةُ اللهِ المحبِّ المتأنّس كما في المسيحيّة، الرحمنِ الرحيم كما في الإسلام، هي التي يجبُ أن تكونَ وتكونَ وحدَها وراءَ كلّ عملٍ إنسانيّ، سواءٌ أكان هذا العملُ عملاً دنيويّاً أم عملاً دينيّاً. وكلُّ عملٍ لا تكونُ العبادةُ من ورائه هو عملٌ باطل. وهذا بالذّات ما عناه الأب تياردە شردان بقوله: «وانطلاقاً من الأيدي التي تعجُن، وحتّى تلك التي تقدّس، فإنّ القربانَة الكونيّة العظمى ينبغي ألاّ تُهَيَّأ وتُسوَّى إلاّ بالعبادة». ويواصلُ هذا الراهبُ الفيلسوف المستنير فيقول: «حينئذٍ يغدو الفاصلُ ضئيلاً بين حياة الدير وحياة العصر. وفي ذلك الوقت فقط يدرِكُ عملُ أبناء السماء (وفي الوقت عينه، عملُ أبناء العصر) كمالَهُ الإنسانيَّ المرغوبَ فيه»[٢].

وأُضيف هنا منطلِقاً من هذا القول أنّ في ذلك تلاقياً بين جميع ذوي النيّات الحسنة إلى أيّ دين انتمَوا. فهذه الفضائلُ الأساسيّة للرهبنة التي ذكرناها سابقاً، وهي الطّاعةُ والفقرُ والعفّة، هي ذاتُها المقاماتُ الأساسيّة التي يقومُ عليها التصوّف الإسلاميّ كالتّوبة والورع والصّحبة والزّهد والفقر والصبر والرضا والتوكّل. أليست الطاعةُ في أساسها

٢– تياردە شردن، الجوّ الإلهيّ تعريب المطران عبده خليفه والأب جورج رحمه الأنطونيّ (بعبدا: المعهد الأنطونيّ، ١٩٧١)، ص ٣٢.

توبةً من الآثام وعودةً إلى الله وورعاً؟ والورع، كما قال أحدُ المتصوّفة هو «ملازمة الأعمال الجميلة»[٣]. وأيُّ أعمالٍ جميلةٍ يلازمُها الإنسانُ هي أجملُ ممّا يقومُ به الرهبانُ في وقفهِم حياتَهم على العبادة وخدمةِ البشريّة وتربيةِ النشء وتعليمه. ثمَّ أليست الطاعةُ هي الصّحبةُ عند المتصوّفة. والصّحبةُ عندهم هي ما قاله المتصوّفُ الكبير ذو النون المصريّ: «لا تصحبْ مع الله إلاّ بالموافقة، ولا مع الخلق إلاّ بالمناصحة، ولامع النّفس إلاّ بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلاّ بالعداوة والمحاربة»[٤]. ثمّ أليست الطاعةُ الرهبانيّة مطابقةً كلَّ المطابقةِ لمفهوم الطاعة عند المتصوّفة. وهذا دليلٌ منهم آخر هو أبو سعيد الخرّاز يقول: «صحبتُ الصوفيّةَ خمسين سنةً ما وقع بيني وبينهم خلاف. فقيل له: وكيف ذاك؟ قال لأنّي كنتُ معهم على نفسي»[٥]. وهذا الراهبُ الحقّ يصحَب إخوانَه عُمرَهُ فيكون معهم على نفسه.

ثمّ أليس الفقرُ الرهبانيّ مطابقاً لمقامَي الفقر والصبر عند الصوفيّة؟ والفقرُ عند الصوفيّة هو، كما قال أحدُ كبارِهم، وهو أبو عليّ الروذباري، واصفاً الفقراءَ بأنّهم المستغنون بالمعطي عن العطاء[٥]. فالرّاهبُ الفقير كالمتصوّف الفقير هو مفتقِرٌ إلى الله لا إلى عطائه. غايتُه هو اللهُ المحبّة، يسعى إليه ويعملُ في سبيل تحقّقه به. هو سبحانَه نورُه الذي به يهتدي. والإنسانُ إذ يعرفُ افتقارَه إلى الله يكونُ قريباً منه يدخلُ على الله فيقبلُه الله، لأنّه بافتقاره إليه يكونُ متضرّعاً له معترفاً بعجزه وحاجته إليه. والفقرُ لا يُدخلُ الإنسانَ إلى الله إلاّ إذا كان هذا الإنسانُ داخلاً إليه تعالى دون أناه، داخلاً إليه بذاته النورانيّة التي كلّما اقتربت من الله قوي نورُها بازديادِ سطوعِ نورِ الله حتّى يستهلكَها هذا النّورُ فتصبحُ روحاً صافياً ونوراً إلهيّاً يضيءُ أرجاءَ هذا الإنسانِ ويضيءُ مكانَهُ وزمانَه فيلطُفان ويشفّان فإذا بذاته تُشرفُ من خلالهما على ما في العالم إلهاماً فتغرقُ وقد أشرقت عليها شموسُ الحكمة، في أنوارٍ من الغبطة والفرح والسّعادة والحبور إكراماً، وتأتيها الكراماتُ تساعدُها على فعل ما هو خيرٌ وما هو جميل. من هنا كان

٣- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٨، مصوّر عن طبعة فلوغل)، ص ٢٧٢.
٤- أبو نصر السرّاج، اللُمَع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور (القاهرة: دار الكتب الحديثة؛ بغداد: مكتبة المثنى: ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠)، ص ٢٣٤.
٥- المصدر ذاته، ص ٧٤.

الفقرُ شرطاً للوصول إلى الحقّ. ولا وصول إليه إلاّ إذا حُمِل الفقرُ على محمل الجدّ. ولا يُحمَلُ الفقرُ على محمل الجدّ إلاّ إذا استعان المرءُ عليه بالصّبر. والصّبرُ إنّما هو ضبطُ النفس في صراطها نحو الحقّ. ولكنْ كيف يستطيعُ المرءُ صبرَ هذه النّفسِ في صراطها هذا، وهي القلقةُ المضطربةُ المتلهّفةُ الضائعةُ الحائرة، إلاّ بشعوره الدائم بفقره إلى اللهِ وحاجته إليه. حتّى أولئك الذين استطاعوا ذلك، إذ واجهوا النّور اللدنيّ، كيف يستطيعون صبرَ أنفسِهم وإلزامَها على الانضباط، وقد صدّعها الحبُّ وأسكرها الشّوق، وصعَقَها هذا النّورُ المحض؟ هنا تكمنُ قوّةُ الإنسان وتهيّؤه المُسبَق الصارم الدّائب الذي لا يسمحُ بأيّ انفلات. وهذا ما يشدّدُ عليه في الأصل النظامُ الرهبانيّ الذي لا يسمحُ للنّفوسِ الرهبانيّة أن تحيدَ ولو للحظةٍ عن خطّ هذا الانضباط إلى أهوائها لا في عبادتها ولا في أعمالها اليوميّة. هذا الصبرُ، صبرُ النّفس في صراطها نحو الله، لا يتمُّ إلا بالمحبّة. فالإيمانُ مهما بلغ من علوّ الدرجات لا ينفعُ المؤمنَ شيئاً إنْ لم يكنْ مقترناً بالمحبّة. ذلك ما عناه بولسُ الرّسول إذ قال: «ولو كان لي الإيمانُ كلُّه حتّى أنقلَ الجبالَ ولم تكنْ فيَّ المحبّةُ فلستُ بشيء»[٦]. والمحبّةُ بدورها لا تكونُ شيئاً إن لم تضمَّ جميعَ البشر بمختلف أديانِهم وشعوبهم وفئاتهم ومشاربهم. حتّى الوثنيُّ إن دخلتِ المحبّةُ قلبَه دخل اللهُ إليه. أوَليس اللهُ محبّة؟ والمحبّةُ ليست بالكلام؛ وإنّما هي إرادةٌ وفعلٌ وممارسةٌ وطبيعة. فمن لم تكنِ المحبّةُ فيه كذلك فهو في العدم لأنّه لا يكونُ شيئاً. إذ ذاك لا ينفعُه إيمانُه ولا نطقُه ولا علمُه ولا بذلُه ولا تضحياتُه، كما قال بولس الرسول. فَلْنتنبّهْ جميعاً، أيّها الرهبانُ الأجلاّء، إلى ذلك لأنّه بذلك يبلغُ الراهبُ وكلُّ ذي نيّةٍ حسنة الفضيلة الرهبانيّة الثالثة، وهي العفّة.

وما العفّةُ؟ إنّها العفّةُ عن أهواء النفسِ جميعِها. وأهواءُ النّفسِ لا تقتصرُ على تلك التي تُترجَمُ شهواتٍ تَختصُّ بالجوارح وحسب. وإنّما هي عفّةٌ عن البغضاء والغرور والكبر.

عفّةٌ عن النّظر من فوق إلى كلّ من لا يؤمنُ بما أؤمنُ به.

عفّةٌ عن بغضي إيّاه وكراهيتي وعدم شمولي له بالتّقدير والاحترام والاهتمام وحتّى بالإعجاب.

٦- رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنتس، ١٣: ٢.

عفّةٌ عن الاطمئنان إلى النّفس مهما بلغت هذه النّفسُ من إيمانٍ أو علمٍ أو من نظرِ الناس إليها بالمحمَدة والتقدير.

العفّة هي الزّهدُ في هذه الأشياء جميعِها.

العفّةُ هي الزّهدُ في كلّ ما ليس إلهيّاً.

العفّةُ هي الإقبالُ على الأشياء الدنيوية على أنّها وسيلةٌ لا غاية.

العفّةُ هي الزّهدُ في أن تُتّخذَ الأشياءُ عوضاً عن الله.

هنا يغمرُ ذا الزّهدِ أو ذا العفّة، لا فرق، نورُ الرّضا، ويكونُ من خلف هذا النّورِ نورُ السكينة، ومن خلفه نورُ الفرح. ذلك لأنّ الزهدَ الحقّ هو نفيُ كلّ غايةٍ سوى الله. وجهُ اللهِ وحدَه هو مقصدُ كلّ عملٍ وكلّ فعلٍ وكلّ فكر. لا عوضَ عنه ولا بديل. ألم يقلْ وليُّ اللهِ يحيى بن معاز واصفاً الزّهدَ بأنّه «تَركُ البُدّ»[٧]؟ والبدُّ لغةً هو العَوَض. إذ ذاك تغدو الأحكامُ الإلهيّةُ جميعُها سلاماً ورحمةً ونعمة. وإذ يرضى المرءُ عن الله يَتنزّلُ عليه رضوانُ الله. ويتّصلُ الرضا بالرضوان فتحلّ على الإنسان الطمأنينةُ. والطمأنينةُ لا ينالُها إلاّ المحبّون، إذ تنكشفُ الحجبُ أمامهم فيصلون إلى شهود وجه الحبيب الأعلى. فإذا بالمحبّ تُستهلَك إرادتُه بإرادة الحبيب. وهذا ما عبّر عنه الحلاّج شهيدُ الحبّ إذ قال:

يا نسيمَ الرّيح قولي للرشا	لم يزِدْني الورِدُ إلا عطشا
لي حبيبٌ حُبُّه وَسْطَ الحشا	إن يشا يمشي على خدّي مشى
روحُه روحي وروحي روحُه	إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشا

وإذ تستهلكُ إرادة هذا المحبّ بإرادة الحبيب الإلهيّ فيستقبلُها المحبُّ بالفرح يجدُ نفسَه يسلّمُها إليه تعالى ويَكِلُها إلى نعم الوكيل، فيتحقّقُ به ويصبحُ في الله. أو كما قال تيارده شردان، «إنّه إنّما ينشدُ اللهَ واللهَ وحدَه من خلال حقيقة الكائنات»، ليَزيدَ

٧- أبو بكر محمّد الكلاباذي، التعرّف المذهب أهل التصوّف (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م)، ص ٩٣

فيقول: «إنّ الأهميّةَ بالنّسبة إليه موجودةٌ حقيقةً في الأشياء، ولكنّها في تعلّق تامّ بالحضرة الإلهيّة فيها. وهكذا يغدو النورُ السماويّ بالنسبة إليه ملموساً ومدرَكاً في شفافية الكائنات، ولكنّه لا يريدُ إلاّ هذا النورَ، فإذا ما انطفأ هذا النّورُ لأنّ ذلك الشيء، قد تحوّل عن مكانه، أو تجاوزه أو ترجّح، فإنّ أثمنَ مادّةٍ لا تغدو في نظره سوى رماد. وهكذا، فهو لا يفتّشُ عن نفسه حتّى في ذاته وفي تطوّراته الشخصيّة التي يهبُها نفسَه، بل يفتّشُ عمّا هو أعظمُ منه، عن الذي وقف نفسَه عليه. فهو لم يعدْ شيئاً في نظر نفسه الذي يكمّله. وليست الذرّة التي تعيشُ فيه بل الكونُ كلُّه»(٨).

وهكذا نرى أنّ الدينَ في الرهبنة الحقّ هو خبرةٌ دينيّة ذوقيّة لا خبرة عقليّة كما عند توما الأكوينيّ أو عند إبن رشد أو إبن ميمون. ولذلك نرى أنّ الرهبنةَ وحدَها هي المرشّحةُ والمدعوّةُ إلى اكتشاف الوحدة في الأديان لما فيها من نزعة للخبرة والذّوق والعرفان والتصوّف. بهذا التصوّف المسيحيّ والإسلاميّ نستطيعُ أن نصلَ إلى هذه الوحدة وأن ننتهيَ من هذا التفتّت والتشرذم الروحيين بين النّاس. هذه هي في نظري الرسالةُ الرهبانيّة. وهذا هو دورُ الرهبانيّة وخيارُها في لبنانَ والعالم.

٨- تيارده شردن، الجوّ الإلهيّ، ص ٣٨-٣٩.

القسم الثّـاني

الجلسة الثانيـة

الموضوع **البعد الـروحيّ: مـن المـؤسّس إلى اليـوم.. وغـداً**

المحاضرون

الأباتي يوحنّـا سليـم

الأباتي مرسيـل أبي خليـل

الأمّ ماري كـزافيـه سكـاف

الأب اليـاس خليفة

كلمة الأباتي يوحنّا سليم
الرئيس العام للرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة

البعد الروحيّ الرهبانيّ من المؤسّس إلى اليوم

أوّلاً: الملاحظات الخمس

١- مؤسّس ومجدّد

٢- معرفة القوانين وشخصيّة المجدّد

٣- في الغرب هناك أنماطٌ من الحياة الرهبانيّة. أمّا في الشّرق فالحياةُ الرهبانيّة حافظت على نمط واحد.

٤- الرهبنة في الشّرق اعتُبرت كمرجعيّة يعودُ إليها جميعُ المعمّدين.

٥- الإبقاء على الألفاظ: حياة رهبانيّة...

ثانياً: الدّعوة الرهبانيّة وسرّ الثّالوث الأقدس والفصح الدائم

١- الأب يهب تلامذةً لابنه. الابن يقبلُهم والرّوح القدس يجذبهم لاتباع المسيح

٢- التّلمذة والاتباع وسرّ العبور الدائم

ثالثاً: الحياة الرهبانيّة هي هبة من الله لكنيسته من أجل العالم، وعلاقة أخوّة، وآية، وسرّ

رابعاً: الدّعوة إلى التجدّد

١- وثيقة الخطوط العريضة للحياة المكرّسة (عدد ٣٣)

٢- خطاب البابا

٣- ما هي صورةُ الدير في التّقليد الرهبانيّ شرقاً وغرباً، وما هي صورةُ الدير في التقليد المارونيّ.

خامساً: الرهبنة الأنطونيّة في أهمّ محطّاتها التاريخيّة

مقدّمة:

نحاولُ في بحثنا السريع أن نبديَ بعضَ ملاحظات على المفردات المتداولة ومدلولها، كما نسعى أيضاً للتحدّث عن الهويّة الرهبانيّة وعلاقتِها بالثّالوث الأقدس وسرّ الفصح. وننتقل بعدها للتكلّم على تأسيس الرهبانيّة الأنطونيّة ومسيرتها مدّةَ ثلاثةِ قرون، وما هي الخطوطُ الإيجابيّة التي يجبُ إظهارُها لتبقى مسيرتُنا الرهبانيّة في الأمانة الخلاّقة للتأسيس وللتجديد، وما هي صورةُ الدير التقليديّة في الكنيسة المارونيّة.

أوّلاً: بعض ملاحظات على المفردات

١- أسمحُ لنفسي في أوّل المطاف بإبداء خمس ملاحظات حول كلمة مؤسّس ومكرّس وراهب وروحانيّة وموهبة. اعتاد الشرقيّون أن يسمّوا المؤسّسين مجدّدين وإصلاحيين، لأنّهم يَعتبرون، بحقّ، أنّ الرّوحَ القدس، العامل لحياة الكنيسة، هو ملهمُ الرّجال والنّساء على أخذ المبادرات العائدة لخير الجسم الكنسيّ ولخير شعب الله. والكنيسةُ تعترفُ بعمل الرّوح القدس، من خلال أبنائها المَواهبين، وتثبتُ، بسلطانها، أعمالَهم ومؤسّساتِهم، وتتبنّى قوانينَها ورسومَها، وتشجّعُ المؤمنين للانتماء إليها.

٢- هناك مفارقة بين الشرقيين والغربيين: الغربيّون يغالون في التمسّك بالقوانين حتّى العبادة، لذلك نراهم يتحدّثون عن قوانين مار مبارك ومار فرنسيس ودومنيك واغناطيوس أكثرَ ممّا يتحدّثون عن هؤلاء المَواهبيين؛ أمّا الشرقيّون فيتحدّثون عن قداسة أنطونيوس أبِ الرهبان وشخصيّته، وعن باخوميوس أبِ الشّركة الكنسيّة، ويكرّمونهم. أمّا القوانينُ فلا يأتون على ذكرها إلاّ نادراً. ورهبانُ باخوميوس، بدورهم، كانوا يطرحون السؤال على ذواتهم: «هل نحن بصدد عبادة شخص»؟ كلاّ!

نحن نكرّمُ المسيحَ السّاكنَ في باخوميوس. باخوميوس هو أَولدَنا بالرّوح، هو أبونا الروحيّ، علاقتُنا به علاقةُ الأبناء بأبيهم الرّوحيّ.

ونحن بدورنا كرهبانٍ وأبناء الكنيسة المارونيّة، نجهلُ قوانينَ مار مارون الرّاهب، كما نجهلُ قوانينَ رهبانه. نعرفُ أنّ مارون كان صفيَّ الله، جاذباً وهادياً النفوسَ

إليه، بمَثله وشهادة حياته وتقواه ومحبّته، وشافي الأمراض المستعصية؛ ولكنْ نجهلُ بالتّدقيق القوانينَ والأنظمة التي اعتنقها رهبانُه فيما بعد.

٣- «في الشّرق، حافظتِ الحياةُ الرهبانيّة على وَحدةٍ تامّة، فلم تَشهدْ، كما في الغرب، تكوّنَ أصنافٍ عديدة من الحياة الرسوليّة. إنّ التعابيرَ المتنوّعةَ للحياة الرهبانيّة، من الحياة الديريّة المتشدّدة كما تخيّلها باخوميوس أو باسيليوس، إلى حياةِ النّسك الأكثر صرامةً كما عاشها أنطونيوس أو مكاريوس المصري، تشبه مراحلَ متنوّعةً للمسيرة الروحيّة، أكثر منها اختياراً ما بين أوضاعٍ مختلفة للحياة. ومهما يكن، فإنّها كلّها تعودُ إلى الحياة الرهبانيّة نفسِها أيّاً كان الشّكلُ الذي يعبّر عنها. (نور الشّرق عـ ٩، ١٩٩٥).

٤- بكلام وجيز، تؤكّدُ التعاليمُ الكنسيّة أنّه لا يوجدُ في الشّرق سوى نمطٍ واحد من الحياة الرهبانيّة، بينما في الغرب هناك أنواعٌ وأنماطٌ من الحياة المكرّسة، أين نقفُ نحن الآن من تراثنا المارونيّ الشرقيّ وما أخذناه عن الغرب؟ وهل بإمكاننا أن نتجدّدَ فعليّاً إذا استمرّينا بغربةٍ عن تقاليدنا وتراثنا الرهبانيّ؟

نحن بحاجة للعودة إلى الجذور والينابيع، إنّ إلهامَ المجدّدين الأوّل إلى المحافظة على طبيعة المؤسّسة وتجديدها وتنميتها بصورة خلاّقة وأمينة.

الروحانيّةُ الإنجيليّة واحدةٌ في تعدّديّة المواهب. «المواهبُ الروحيّة على أنواع، ولكنَّ الرّوحَ الذي يمنحُها واحدٌ، والخدمةُ على أنواع، ولكنّ الرّبَ واحدٌ، والأعمالُ على أنواع، لكنّ اللهَ الذي يعملُ كلَّ شيء في جميع النّاس واحد. كلُّ واحدٍ ينالُ موهبةً يتجلّى فيها الرّوحُ للخير العام» (١ كور ١٢: ٤-١١).

الرّهبنةُ في الشّرق يجبُ أن تتطوّرَ بروح الأمانة الخلاّقة، وإلاّ تعرّضتْ للإندماج الغامض والمبهم في حياة الكنيسة المحليّة، إذ تُضفي صفةَ التعميميّة على الطابع الخاصّ المميّز.

والرهبنةُ في الشّرق اعتُبرت كمرجعيّة يعودُ إليها جميعُ المعمّدين. «وعلاوة على ذلك، فإنّه لم يُنظرْ في الشّرق إلى الحياة الرهبانيّة كأيّ حالٍ فريدةٍ فقط تليق بفئة من المسيحيين، ولكن، بنوعٍ خاص، كأيّ نقطةٍ يعودُ إليها جميعُ المعمّدين كلٌّ

بحسب المواهبِ التي أعطاه إيّاها الرّبُ، فتكون ملخّصاً رمزيّاً للمسيحيّة» (نور الشّرق عـ ٩).

٥- أتمنّى على واضعي القوانين والرّسوم الرهبانيّة الإبقاء على التعابير التقليديّة: الحياة الرهبانيّة بدل الحياة المكرّسة، والرّاهب والرّاهبة بدل المكرّس والمكرّسة، والمؤسّسات الرهبانيّة بدل مؤسّساتِ الحياة المكرّسة، لأنّ هذه التعابيرَ لها مدلولٌ معيّن في محيطنا الجغرافيّ، البشريّ والثقافيّ؛ فالإسلامُ عندما يأتي على ذكر الرهبنة والرّاهب يعني البتوليّةَ وحالةَ العزوبيّةِ والزّهدَ والنّسك.

ثانياً: الدعوة الرهبانيّة وسرّ الثالوث الأقدس والفصح الدائم

ما هي حقيقةُ الدّعوة الرهبانيّة؟ وكيف نميّزها عن سائرِ الدّعوات في الحياة المسيحيّة الكنسيّة؟ وما يُميز الرّاهبَ عن المؤمن العلمانيّ أو الإكليريكيّ والكاهن الأبرشيّ؟

أسئلةٌ لا بدَّ من طرحها لاستكشاف الهويّة الرهبانيّة. ولا مندوحةَ من الإقرار بأنّ سرَّ تجديدِ الحياة الرهبانيّة أو انحطاطِها كامنٌ في إظهار هويّتِها لكي لا تندمجَ المؤسّساتُ الرهبانيّة ورهبانُها اندماجاً غامضاً في الحياة الكنسيّة سواءٌ على صعيد المؤسّسة أم على صعيد الأفراد.

لن ندخلَ في تفاصيلِ التّاريخ الرهبانيّ، إنّما سنتوقّفُ على نصوصٍ ومشاهدَ إنجيليّةٍ وَجَدَ فيها الرّهبانُ هويّتَهم لأنّها تعبّر عن دعوة المسيح لهم، وتحقّقُ نمطَ حياتِهم. وكما هو معروفٌ، مصدرُ الدّعوةِ يسوعُ الذي يدعو ويختارُ بمبادرةٍ مجّانيّة منه (١ قور ١: ٢٦) وهدفُ الدّعوة هو العلاقةُ مع يسوع أقبلوا إليه (مر ٣: ١٣-٦١) يصحبوه (مر ٣: ١٤) يتبعانه (يو ١: ٤٢) وجدنا المسيح (يو ١: ٤١) والدّعوة تقومُ على الاتباع، اتباع يسوع والإقبال إليه وصحبته والسّير معه، كما تقومُ أيضاً على التتلمذ له والسُّكنى معه والاطّلاع على الأسرار، ممّا ينمُّ عن حميم العلاقة الشخصيّة الباطنيّة.

والعلاقةُ مع شخص يسوع هي أساسُ الرسالة.

وإنّ الإبنَ يجذبُ إليه المدعوّين الذين وهبهم الآبُ له (يو ١٧: ١-٢) «ما من أحدٍ

يستطيعُ أن يُقبلَ إليّ إلا بهبة من الآبِ» (٦/٥٦). وحقيقةُ الدعوة الرهبانيّة تكمُن في أنّ الآبَ يختار ويهب لابنه تلاميذَ ليصحبوه. وإنّ الراهبَ هبةٌ وهديّة من الآب لابنه يسوعَ المسيح (لوقا ٦: ١٢–١٣) يسوع يصلّي إلى الآب. الآب يهبُ التلاميذَ. والابنُ يقتبلُ التلاميذَ ويقدّمهم لـلآب «أنتم للمسيح» «والمسيح للّه» (قور ٣:٢٢) والرّوح القدس يجذبهم إلى الإبن. فالرّاهبُ موضعُ ما يتمُّ من تبادلٍ بين الآب والابن. والرّوح القدس الساكن في المؤمنين يُدخلُ المدعوّين في التبادل بين الآب والابن. ويقدّسُهم ويجذبُهم للتتلمذ ولاتباع يسوع إلى وجه من وجوه يسوع المسيح المصلّي – الفقير والمتواضع – المعلّم، الشّافي المرضى والمهتم بالفقراء. وهذا ما يفسّرُ ولاداتٍ رهبانيّةً جديدةً في الكنيسة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. إنّ الرّوحَ باقٍ في الكنيسة ليجدّدَها ويطهّرَها ويجعلَ منها كنيسةَ الأجيال الناهضة...

ولأنّ الرّوحَ هو مصدرُ هذا الانجذاب، فقد اعتُبرتِ الحياةُ الرهبانيّة، ولا سيّما البتوليّة (متى ١٩، ١١–١٢، ١ قور ٧/٧)، موهبةً روحيّة (Charisme) من مواهبِ الرّوح القدس، وإن كانت هذه الموهبةُ غيرَ واردةٍ في لائحة المواهب الروحيّة (Charismat) التي مارستها الكنيسةُ الناشئة (١ قور ١٢ و١٤) (روم ٦: ١٢–٨) اف ٤–١٤)

من هنا أهميّةُ التجذّرِ في «مواهب المؤسّسين» لاستيضاح الهويّة أي في ما يجذبُهم إليه الرّوحُ القدس من حياة يسوعَ المسيح وشخصيّتهِ ورسالته. والتّقليدُ الشرقيّ يعتبرُ الرّاهبَ إنساناً مملوءاً من الرّوح القدس.

ومن هنا أسبقيّةُ «هويّة» الرّاهب و«كينونته» على العمل و«الخدمة». فالرّوحُ القدس يُحدّدُ الهويّةَ، ويملأُ الكيانَ في اتّجاه يسوعَ المسيح. وبالتّالي، ينالُ الرّاهبُ من الرّوح القدس مواهبَ روحيّةً مثلَ موهبةِ الدموع، وموهبةِ الأبوة أو الأمومة الروحيّة، وموهبةِ النّبوّة والحكمة أو المعرفة، وموهبةِ الشّفاء وإخراج الشياطين... وكلُّها من منطلق امتلائه بالرّوح القدس.

١– الاتّباع والزّهد بالنّفس

«ما كان من ربحٍ لي، عددته خسراناً من أجل المسيح»

بل أعدّ كلَّ شيء خسراناً من أجل المعرفة السامية،

معرفة يسوع المسيح ربّي.

من أجله خسرتُ كلّ شيء وعددت كلَّ شيء نُفايةً لأربحَ المسيح وأكونَ فيه (فل ٣: ٧-٩)

الرّبح والخسران

جدليّة من صميم الحياة المسيحيّة والحياة الرهبانيّة

لقد ألحّ الغرب في «اتّباع المسيح» (Sequela Christi)

٢- التّلمذة وسرّ العبور

«ما من أحد يحيا لنفسه وما من أحد يموت لنفسه

فإذا حيينا فللرب نحيا، وإذا متنا فللرب نموت

فسواءٌ حيينا أو متنا فإنّنا للرب (روم ١٤: ٨)

السّكنى مع يسوع المعيّة

الألفة معه

التملّك والانتماء والاقتداء

الرّاهب وسرّ الفصح

لا تُفهمُ الرهبانيّةُ والمسيحيّة إلاّ على ضوء سرّ الفصح. لقد أحبّنا الله بطريقة مدهشة بأن صار إنساناً حتّى النهاية دون أن يفرضَ ذاتَه على الإنسان أو يُرغمَه على القبول به. طريقةُ الحبّ الإلهيّ هي التجرّدُ عن الذّات. وأخلى ذاتَه آخذاً صورةَ عبد (فيليبي ٢: ٦-١١) أفرغ ذاته.

إنّ سرّ العهد يتمُّ تحت علامة التجرّد. فكلّما كان هذا التجرّدُ عميقاً، كان الاتّحادُ كاملاً.

إنّ تأليهَنا هو لقاءُ تجرّدِ الله مع تجرّدِ الإنسان. وهذا ما يفسّر مستلزمة الإنجيل التي تقوم على أنّنا بمقدار ما نخسرُ أنفسَنا من أجل المسيح يتوثّق اتّحادُنا به.

إنّ حبّةَ الحنطة إن لم تقعْ في الأرض تبقى مفردة.

التجرّدُ في التجسّد هو فجرُ نعمة. أمّا في الصليب فهو التألّقُ والبهاء في عتمة الظلمات.

- يعلّمُنا بولس من خلال شهادة حياته «فما أنا أحيا بعد ذلك، إنّما المسيح» (غلا ٢: ٢٠) حيث يشيرُ إلى اختياره الشخصيّ ويحدّد الوجودَ المسيحيّ القائم على الاتّحاد بابن الله، ليس هذا الوجودُ حياةَ الأنا الجسديّ المكتفي بامتيازاته (فيليبي ٣: ٤-١١).

لقد مات هذا الأنا، ووحدَه الإيمانُ يفتحُ قلبَ الإنسان على محبّة ابن الله المجّانيّة والمخلصة. وعندما يتألّم فإنّما يعلم أنّه يشاطرُ الربّ ألمَه، ويشاركُه في عذابه، وهو لي قوّةُ المسيح يشعر بأنّه قويٌّ حقّاً، فهذا ما يعنيه عندما يقول: «قد لبستم المسيحَ وتمثّلوا بالمسيح» هذا الوجودُ يعني تطابقاً بين حياة المؤمن وحياة الربّ يسوع.

ثالثاً: الحياة الرهبانيّة هي هبة من الله لكنيسته من أجل العالم، وعلاقةُ أخوّة، وآيةٌ وسرّ

وَنزيد في هذا المجال فنقولُ: العلامةُ تشير إلى المشار إليه أو إلى ما تشير إليه. أمّا السّر والآيةُ فيشيران إلى المشار إليه، وفي الوقت نفسه يحقّقان ما يُشيران إليه، بمعنى أنّ الخبزَ والخمر لا يشيران فقط إلى جسد المسيح ودمه، بل إنّهما يحقّقان فعلاً حضورَ المسيح في الخبز والخمر.

أ- الحياةُ الرهبانيّة هي علامةُ دعوةِ يسوعَ المسيح لأتباعه والتتلمذ له. وهذه الدّعوةُ موجّهة إلى الجميع بدون استثناء. وهي أيضاً علامةُ تذكيرٍ للجميع بأنْ ليس لنا مدينةٌ ثابتة هنا، وأنّنا في العالم ولسنا من العالم. «الحياةُ الرهبانيّة هي ذاكرةُ الكنيسة»،

كما ورد في كتاب الأب جان كلود غي.

من الوظائف الخاصّة، في الحياة الرهبانيّة مساعدةُ المعمّدين في الحفاظ على وهج وعيهم للقيم الإنجيليّة الأساسيّة. إنّ العالمَ لا يستطيع أن يتحوّلَ ويقرّبَ لله بدون روح التطويبات» (حياة مكرّسة ٣٣ وك ٤٦).

الحياةُ المكرّسة، بمجرد وجودها في الكنيسة، تُسْهِمُ في تقديس حياة جميع المؤمنين العلمانيين والإكليروس. (حياة مكرّسة رقم ٣٣).

وإنّ القدّيس يوحنّا فم الذهب، كان غالباً يدعو المؤمنين المترجرجين في إيمانهم، والمتزوّجين الذين يمرّون بأزمةِ شكٍّ وعدمِ التزام، بأن يرفعوا أنظارَهم إلى جبال إنطاكية ويتأمّلوا مئاتِ العبّاد والزهّاد والنسّاك والمتوحّدين الذين صلبوا ذواتِهم من أجل حبٍّ المسيح وكنيسته.

والإرشادُ الرسوليّ نورُ الشّرق يقول لنا إنّ الرهبانَ في الشّرق لم يكونوا يوماً فئةً مفصولة لذاتها، إنّما هم مرجعيّةٌ لجميع المعمّدين... (رقم ٩).

ب- الرهبان هم علامة تجاوب الإنسان مع دعوة الرب يسوع. والحياةُ الرهبانيّة ليست علامةَ الآب والابن والرّوح فحسب، بل علامةُ الكنيسة أيضاً، فهي إذن تُظهرُ هويّةَ الكنيسة.

ج- والحياةُ الرهبانيّة هي علامةُ الكنيسةِ عروسِ المسيح العذراء

«هؤلاء الرجالُ والنّساء والإخوة والأخوات الذين يزيّنون عروسَ المسيح في الأديار والمدارس والمستشفيات والرسالات بالأمانة الدائمة والمتواضعة، وبالخدمات العديدة التي يقدّمونها بسخاء إلى الناس» (ك ٤٣). إنّهم حقّاً زينةُ الكنيسة. يا لها من حياةٍ رهبانيّة تنذبحُ خبزاً وخمراً على رخامة الفداء تجاوباً مع دعوةٍ علويّة وتتلمذٍ لها، محقّقةً إرادةَ العلاء، وتتداخلُ الكنيسةُ مع تلك الإرادة، فتتلاقى القيمُ الإنجيليّة وترتفعُ الأعينُ إلى القمم النسكيّة في قمم الجبال، تردّدُ ترانيمَ الإرشاد الرسوليّ الهادي إلى عرسِ مريمَ عروسِ الأرضِ والسّماء.

د- هم علامة الكنيسة الفقيرة الخادمة

الرهبانُ المكرّسون، في خدمتهم لجميع حالات البشر، وخاصّة المهمّشين والمعوزين والغرباء... واليتامى والعجزة... هم علامةُ حضور المسيح في أوجاع البشريّة.
«ما كان جرى للعالم، لولا الرهبانُ (القدّيسة تريزيا أمَة يسوع، كتاب الحياة، الفصل ٣٢: ١١) أهمّية الحياة المكرّسة، بمعزل عن الاعتبارات السطحيّة والمنفعيّة، تنبعُ من كونها بالضبط، فيضَ مجّانيَّةٍ وحبّ. وهي كذلك بمقدار ما يتعرّضُ العالمُ للاختناق بزوبعة الفانيات» «بدون هذه العلامة الحسّية، قد تتعرّض الكنيسة في جملتها للتجمّد وصلابة المنطق الإنجيليّ للتثلّم و«ملح» الإيمان للذوبان في عالم على طريق التعلمن». (الحياة المكرّسة رقم ١٠٥)
حياة الكنيسة، لا بل المجتمع نفسه، بحاجة إلى أُشخاصٍ أهلٍ للتكرّس كليّاً للّه وللآخرين حبّاً بالله.
نحن بحاجة إلى أشخاص يُظهرون وجهَ الله الأبويَّ ووجهَ الكنيسة الأم، يخاطرون لينعمَ آخرون بالحياة والرجاء، بحاجة إلى الفقر الغنيّ حيث هناءُ المسيح في شقاء الأرض، يتغلغلُ ليحلّ الشقاءُ هناءً، ليجعلَ تاريخَ الدموع ابتساماتٍ وزغاريدَ، ليرسمَ وجهَ الرّجاء والإيمان في عيون البشريّة، ويُنعشَ خفقَ الحياة في شرايينها.

رابعاً: الدّعوة إلى التجدّد

التجديد المرتجى

الدّعوةُ إلى التجديد تقتضي معرفةً وعودةً إلى الينابيع. إنّ التجديدَ الملائم للحياة الرهبانيّة يقومُ بأمرين هما الرجوعُ المستمرّ إلى ينابيعِ الحياة المسيحيّة كلّها وإلى الإلهام الأوّل الذي كان في أصل قيام الرهبانيّات، ثمّ التوفيق فيما بينها وبين متغيّرات العصر. وهذا التجديدُ يجب أن يجريَ بدافعٍ من الرّوح القدس، وبتوجيهٍ من الكنيسة، ووفقاً للمبادىء الآتية:

أ- القاعدة القصوى للحياة الرهبانيّة هي اتّباعُ المسيح على سنن الإنجيل
ب- يرجع إلى خير الكنيسة نفسِها أن يكونَ للمؤسّسات الرهبانيّة طابعٌ خاصّ ومهمّةٌ خاصّة.

ج- يجبُ إبرازُ روحِ المؤسّسين ومقاصدِهم الخاصّة إبرازاً أميناً.

د- يجبُ الحفاظُ على روح المؤسّسين وعلى التقاليدِ الصوابيّة.

هـ- يجبُ أن تشتركَ جميعُ المؤسّسات في حياة الكنيسة، وأن تتبنّى وتشجّعَ مبادرتَها، ومقاصدَها في حقول الكتاب المقدس، والليتورجيا، والعقيدة، والرعاية، والحركة المسكونيّة والرّسالة والاجتماع، وذلك كلّه طبقاً لطابعها الخاص ومنحاها في العمل.

و- يجبُ أن تحثَّ المؤسّساتُ أتباعَها على تعرّفٍ كافٍ لأوضاع أبناء عصرهم ولحاجات الكنيسة...

ز- على مقتفي الحياةِ الرهبانيّة أن يتبعوا المسيح ويتّحدوا بالله عن طريق التزامهم المشوراتِ الإنجيليّةَ، فإنّه يجبُ الحكمُ الجازم بأنَّ العملَ على تلبية حاجات العصر لا يكون ذا أثرٍ ما لم يتّسمْ بالتجدّد الروحيّ (مرسوم المحبّة عدد ٢)

«التجديد الفعّال والتّوفيق الصحيح لا يأتيان إلا بإسهامٍ وتعاونٍ من جميع أعضاء المؤسّسة (مرسوم المحبّة عدد ٤)

نستنتجُ من هذه النصوص أنّ التجديدَ يقومُ بالعودة إلى الينابيع والعملِ بأمانة خلاّقة على التعرّف إليها وإحياء إلهام المجدّدين في المؤسّسة وأهميّة العمل بوحي الرّوح القدس الذي يكلّمُنا عبر قنواتٍ متعدّدة:

الكتاب - الكنيسة - الأحداث - المؤسّسة الرهبانيّة وإلهام المجدّدين وحاجات الإنسان المعاصر.

ووثيقة الخطوط العريضة عدد ٣٣ التي كانت تحضيراً لسينودس الأساقفة حول الحياة المكرّسة تحثُّ الرّهبانَ من جديد ليعيشوا التزاماتِهم الرهبانيّةَ بروح الأمانة الخلاّقة:

«لو كان المؤسّسون ما زالوا على قيد الحياة، لما توانَوا عن تلبية نداء الكنيسة من أجل انطلاقةِ حياةٍ إنجيليّة متجدّدة وروحانيّة عميقة وحضورٍ معطاء في سبيل بشارة الإنجيل الجديدة».

هذا النداءُ يختصر لنا محتوى الدّعوة التي أُطلقها قداسةُ البابا يوحنّا بولس الثّاني في

موضوع الحياة المكرّسة ورسالتِها في الكنيسة والعالم يومَ لقائه الرؤساءَ العامّين للمؤسّسات الرهبانيّة كافة، الذين كانوا مجتمعين في روما لدراسة وثيقة الخطوط العريضة لمجمع الأساقفة في الحياة المكرّسة

«لأنّ المجدّدين أو المؤسّسين في زمنهم عرفوا كيف يجسّدون الرسالةَ الإنجيليّة بشجاعة وقداسة، يجبُ على أبنائهم الروحيين أن يظلّوا أمينين لوحي الرّوح، ويتابعوا هذه الشهادةَ مقتدين بأعمالهم الخلاّقة، محافظين على موهبة البدايات، وأن يكونوا باستمرار في حالة إصغاء coute لمتطلّبات الزّمن الحاضر وحاجاته الروحيّة.

من خطاب قداسة البابا يوحنّا بولس الثّاني في لقائه مع رؤساء الرهبانيّات في العالم في نهاية المؤتمر العالميّ للحياة المكرّسة في كانون الأوّل ١٩٩٣.

٣- ما هي صورةُ الدّير في التّقليد الرهبانيّ شرقاً وغرباً، وما هي صورةُ الدير في التقليد المارونيّ

الدير كما وصفه البطريرك الدويهيّ في التقّليد الشرقيّ والمارونيّ والعناصر الأساسيّة المكوّنة للدّير هو مثلّثُ الأبعاد في حياة الجماعة: ملاذاً روحيّاً، اجتماعيّاً وعاملَ تطوير في حياة المجتمع.

أ- إنّه المعينُ الروحيّ لاستملاك الفضائل

ب- إنّه المدافعُ عن وديعة الإيمان الرسوليّة

ج- إنّه مأوى المحتاجين من المؤمنين

ح- يرتبط بالأرض بعلاقة وجوديّة بقدر ما هو متحفّزٌ بمهمّته الرسوليّة.

خ- منذ نشأةِ الدّير في الكنيسة المارونيّة اتّخذ له مهمّةً اجتماعيّةً قيادةَ القطيع الصغير دون أن يفقدَ ارتباطَه بالأرض.

د- واليوم ما زال هذا الخطُّ الأساس منشّطاً ومنمّياً في قلب الكنيسة المارونيّة وفي المجتمع اللبنانيّ، الفكر والثّقافة والتّربية والزّراعة والاقتصاد وحياة الرّوح والإيمان.

المراحل التي مرّ بها الدير

١- في القرن الرابع والخامس ٣٠٠ - ٥٠٠ كان عهد الآباء في الصحراء. بداية الحياة الديريّة مع باخوميوس في الشّرق والانتقال إلى الغرب.

٢- ٥٠٠ - ١٢٠٠ عهد المتوحّدين في الغرب

٣- ١٢٠٠ - ١٥٠٠ عهد المنظّمات الرهبانيّة المتجوّلة

٤- ١٥٠٠ - ١٨٠٠ عهد المنظّمات الرسوليّة

٥- ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ عهد الجمعيّات التعليميّة.

في كلّ عصر وعهد كان الديرُ يتميّزُ بالمقدرة على التكيّف والتّجاوب مع حاجات الكنيسة والعالم. والحياةُ الديريّة التي هي من هبات الرّوح القدس تبقى متجدّدةً وفقاً لطبيعة هذا الرّوح. وبالتّالي، تبقى جواباً على حاجةٍ آنيّة في الكنيسة المحليّة والجامعة. وهذا ما يبرّرُ إمكانيّةَ رهبانيّاتٍ جديدة في الكنيسة. اللهُ يخلقُ العالَم كلّ يوم من جديد من خلال كنيسته.

في الشّرق لم تتبدّلِ الحياةُ الرهبانيّة كثيراً. واستمرّت على صيغتها الأولى كما أطلقها أنطونيوس وباخوميوس وباسيل. ولعلّ السّببَ الرئيسيّ لعدم تطوّرِ المفاهيمِ يعودُ إلى الصعوبات الاجتماعيّة والخارجيّة التي عاشتها الكنائسُ الشرقيّة وخلافاتها في العقيدة وشرذمتها وانتصار السّلام عليها. وهذا يعني، بالنّسبة إلينا اليوم، أن نعودَ من جديد لتوضيح الهويّة الديريّة والرهبانيّة.

البعد الأوّل

الدّيرُ هو المدرسةُ الإنجيليّة التي يتدرّبُ فيها الطّالبُ على حياة الكمال.

الدّيرُ هو المكانُ الذي يأتي إليه طلاّبُ الله وعشّاقه ليكتسبوا خبرةَ الحياة الروحيّة بالتمرّس على الصّلوات والإماتات والأصوام وأعمال الرّحمة وقبول الآخرين والعيش معاً والعملِ معاً والمواظبةِ على أعمال التقوى والعبادة وتنقية الذّات باتّباع المسيح في الإصّحاء الكامل والموتِ عن الذّات: «لستُ أنا الذي يحيا، إنّما المسيحُ هو الذي

يحيا فيّ». «إلبسوا الإنسانَ الجديد الذي خلق على صورة الله ومثاله» «إلبسوا المسيحَ ولا تقتدوا برؤساء هذا العالم المظلم».

البعد الثاني:

كان المؤمنون في الكنيسة الأولى يواظبون على تعليم الرسل، ويحافظون على كنز الإيمان «يا تيموتاوس إحفظِ الوديعة»

الأديار في كنيستنا، وحسب التقاليد التي وصلتنا، هي التي دافعت عن العقيدة الخلقيدونيّة، ومن أجلها استبسل ومات الشهداء. فإلى جانب الاهتمام بالأرض والزّراعة، اعتنتِ الأديارُ بالفكر وتجميع المكتبات والتّعليم والتبشير، وكانت المنارةَ للشّعب طوالَ أجيالٍ وأجيال.

البعد الثالث: مأوى المحتاجين من المؤمنين المسيحيين وغيرِ المسيحيين

إنّ كلامَ الدويهيّ لا يخالفُ التقاليدَ الرهبانيّة العريقة. الديرُ يقدّمُ ليس فقط من الفائضِ عنه، إنّما يقدّمُ أيضاً من حاجيّاته؛ وهذا التّقليدُ الرهبانيّ العريق جعل الدّيرَ في خدمة الفقراء، وهذا هو توجيهُ الكنيسةِ اليوم: اختيارُ الفقراء نصيباً (راجع رسائل قداسة البابا يوحنّا بولس الثّاني) (رسالة الفادي ورسالة العلمانيين)

لقد تعرّض شعبُنا إلى المجاعة وإلى الإبادة في الماضي. وفي أيّام الدويهي وحتّى في أيّامنا، وكان الديرُ الملجأَ والمأوى له ولنا. على هذا شواهدُ وثوابتُ وقرائن. وهذا ما يحملُنا على الاعتقاد بأنّ الديرَ في الكنيسة هو بمثابة القلب، كما جاء في وثيقة الخطوط العريضة لسينودس لبنان عدد ٣٦، وكما قال أيضاً بونهوفر اللاهوتيّ البروتستانتيّ «إنّ الرّهبانَ والرّاهباتِ في الكنيسة هم الدمُ الجديد الذي يجري في عروقها...»

وفي نهاية القرنِ السابعَ عشرَ، عندما حدث تجديدٌ في التّنظيم، سعى الآباءُ المجدّدون، إضافةً إلى تنظيم حياة الجماعة، إلى خيرهم الروحيّ بالاعتزال عن العالم وتقديسِ نفوسهم بالأعمال النسكيّة، كما سعوا إلى خير القريب: بالقيام بأعمال الرسالة والصّلاة في الكنيسة والشعب.

إنّ حياةَ هؤلاء الرهبان هي مزيجٌ من عمل مرتا وراحة المجدليّة. ينهضون عند نصف الليل ليذهبوا إلى الكنيسة في صفوفٍ أشبهَ بجيشٍ جبّار. يقضون في تسابيحِ الله وتلاوةِ القدّاسات حتّى الصباح، حيث يذهبُ كلٌّ إلى شغله المعينِ له حتّى السّاعةِ العاشرة أو الحاديةَ عشْرةَ. قبل الغروب يصلّون ويمضون ما تبقّى من النهار في الصّلاة والتأمّل، وبعد العشاء ينصرفون إلى مغاورهم التي هي أشبهُ بكهوفِ الحيوانات منها بخلايا نفوسٍ قدّيسة.

لقد قال ربُّنا في الإنجيل: إنّ العلامةَ المميّزة التي يُعرفُ تلاميذه بها هي المحبّةُ وليس علينا سوى أن ننظرَ إلى هؤلاء الرهبان الكاملين لندركَ محبّتَهم، فنعرفُ أنّ اللهَ مقيمٌ بينهم، لأنّه من الأكيد أنّه حيثُ المحبّةُ والحبُّ فهناك الله».

خامساً – الرهبنة الأنطونيّة

١– مرحلة التأسيس

إنطلقتِ الرهبنةُ الأنطونيّة المارونيّة، بتنظيمها الحاليّ، في بداية القرنِ الثامنَ عشرَ، بمبادرةِ رجلِ القداسة والتّقى المطران جبرايل البلوزاني مطرانِ حلب، ومصلحِ الحياة الرهبانيّة ومجدّدها في الكنيسة المارونيّة، الذي أنشأ سنة ١٦٧٣ دير سيّدة طاميش، ليكونَ كرسيّاً لأبرشيته، ونموذجاً للحياة الرهبانيّة المتجدّدة. فهذا، بعد أن درّب رهبانَه مدّةً طويلةً على السّيرة الرهبانيّة الشرقيّة القائمة، أرسل النّخبةَ من بينهم أمثال الخوري رزق الله السبعلي والقَسّ بطرس البزعوني أوّلاً، ثمّ رئيس ديره الخوري سليمان الحاج المشمشاني والقَسّ عطاالله الشبابي وموسى البعبداتي ليجدّدوا دير مار أشعيا الرّاهب الحلبيّ، القائم على تلّة عرمتا في تخوم منطقة كسروان. هؤلاء أنشأوا جماعةً رهبانيّةً جديدة في تنظيمها، تجسّدُ الإنجيلَ، وتجاوبُ على حاجة الكنيسة في واقعها الاجتماعيّ، محقّقةً آمالَها وأمينةً على تراثها الشرقيّ الأنطاكيّ المارونيّ.

تميّزتِ الرهبنةُ الأنطونيّة ببساطةِ عيش أبنائها، الذين كرّسوا ذواتِهم في خدمة الله والقريب، وحافظوا على نسكيّةِ الرّسالةِ القائمةِ على اختيار الله في الصّمت والمناجاة الفرديّة والقراءة الربّانيّة والمواظبةِ على الصلاة الجماعيّة الخورسيّة الطقسيّة، وممارسةِ

الأصوام والتقشّفات، وتجسيدِ المحبّة الإنجيليّة التي هي رباطُ الكمال والتي تجعلُ من الجماعات الرهبانيّة ومن الإخوةِ جماعةً واحدة، جماعةَ حوارٍ وصورةً للثّالوث الأقدس، انسجاماً مع تراثها الرهبانيّ العريق. وعلى صورة المسيح المتأمّل على الجبل والمبشّرِ بملكوت الله والشّافيّ المرضى والهادي الخطأةَ والضالّين، عملت رهبنتُنا، بصورةٍ مستمرّة، على إظهار غنى المسيح للمسيحيين وغير المسيحيين، وذلك من خلال شهادة أبنائها الذين سلكوا سبيلَ الرّوح، وتفانَوا بروح الخدمة الرسوليّة، كما ذكر السمعاني في مقدّمة القوانين والرسوم: «... نظراً إلى سيرة رهبانكم الحميدة وإفادتهم الطائفةَ بالوعظ المثل الصالح والتبشير، وبفتح المدارس في ديورتهم للتعليم، وبطاعتهم لرؤساء الكنيسة وامتثالهم للمراسيم البيعيّة، فصاروا بذلك مقبولين جدّاً عند الرؤساء والشّعب ونموذجاً لسائر الملل الشرقيّة... ثُبّتت قوانينكُم (القوانين الرهبانيّة الأنطونيّة روما ١٧٤٠).

نَظرتِ الكنيسةُ المحليّة إلى فرادة رسالتها، ومدى تجاوبها مع حاجات الكنيسة الملحّة، وإفادتها القريب، فباركتها وشجّعتها واعتبرتها نمطاً من أنماط الحياة الرهبانيّة الشرقيّة الثّابتة، فاعتنت بها. وبهديٍ من الرّوح القدس، أُثبتها أوّلاً البطاركة: إسطفان الدويهيّ، البلوزاني وعوّاد ثمَّ البابا أكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٤٠ بقوّة البراءة الحبريّة «أب المراحم»، فأضفى عليها بهذا التثبيت طبيعةً قانونيّة «هو الحقّ الحبريّ» مع كلّ الحقوق والإنعامات التي تعودُ للمؤسّسة التوحيديّة.

٢- لا أظنّ أنّكم بحاجة إلى استفاضة في قراءةٍ تاريخيّة لأعمال مؤسّسةٍ رهبانيّة تعملُ منذ ثلاثمائة سنة.

انتشارها - ميزتها - إندفاعها - عملها - حبساؤها - قدّيسوها وشهداؤها والحوار مع الآخرين.

سأنقل إليكم ما قاله البابا بنديكتوس الرابع عشر الذي خلف البابا أكليمنضوس عن وضع الرهبانيّة في البدايات: (نظراً لحسن تربيتها ولأنّها تعزّز الديانة الكاثوليكيّة ما بين غير المسيحيين والإخوة غير الكاثوليك بضياء نورها اللاّمع: هذه الرسالة كتبت إلى البطريرك المارونيّ والرئيس العام من أجل الدعم والتشجيع).

- أين نحن اليوم؟
- هل ما زلنا هبةَ الله في الكنيسة من أجل العالم؟

منذ أكثرَ من أربعين سنةً أدخلتنا القوانينُ الرهبانيّة الغربيّة في منعطفٍ جديد، فلم نعدْ رهباناً كما هو المفهومُ السائد في الغرب، وأصبحنا في نظرهم تنظيماً رهبانيّاً إرساليّاً على نمط التنظيمات الغربيّة المتعدّدة. والبعضُ من الرّهبان يخجلُ أن يكونَ من سلالة القدامى. إنّه يريدُ الحداثة.

لقد تحوّلنا من رهبنة الرسل والرسوليّة إلى الإرساليّة.

رسوليّة!.......

لقد تنكّرنا لأصولنا تحت عواملِ الجهل والضغط الخارجيّ، وانغمسنا في هموم المؤسّسات. هذا الانزلاقُ ما زال يقودُنا إلى الجفاف.

الحياة الرهبانيّة تحملُ في طبيعتها نوعاً من الهامشيّة، لا يمكنُها أن تنسجمَ وروحَ العالم، لأنّها اعتراضٌ عليه وموقفٌ رافض لأساليبه الماديّة. وهذا ما نسمّيه بالدّور النبويّ.

كلمة الأباتي مرسيل أبي خليل

يومَ وصل المؤسّسون الثلاثة، جبرائيل حوّا وعبد الله قراعلي ويوسف البتن، من مدينتهم حلب الشهباء، بعد زيارتهم للأماكنِ المقدّسة، إلى مقرّ البطاركة الموارنة في قنّوبين، مطلع صيف ١٦٩٣، التقوا البطريرك إسطفان الدويهي، وعرضوا عليه فكرتَهم ونيّتهَم في إنشاء منظّمة رهبانيّة تحت حماية القدّيس أنطونيوس الكبير، لها رسومُها المكتوبةُ ونذورُها ورئيسٌ عامٌّ يسوسُ أمورَها ويدبّرُها مع أربعة معاونين. أُعجب البطريركُ القدّيس بما عُرض عليه، وهو الذي كان يسعى جاهداً منذ بدء بطريركيّته إلى إيجاد تنشئةٍ وافيةٍ للإكليروس وتنظيمٍ وتجديدٍ للحياة الرهبانيّة في كنيسته، بحيث يُدخلُ نمطَ حياةِ الرهبانيّاتِ الغربيّة المعاصرة التي تعرّف إليها خلال إقامته ودراسته في المدينة الخالدة. فرح البطريرك بفكرة الشبّان الحلبيين الثلاثة، وأبقاهم بجواره سنةً ونصفَ السنة ليختبرَهم عن كثب ويجريَ لهم، تحت نظره، «زمنَ ابتداء وتجربة». وفي العاشر من أيلول سنة ١٦٩٤ ألبسهم الإسكيمَ الرهبانيّ دون إبراز النذور. وفي صيف ١٦٩٦ نذروا نذرَ الفقر. وفي العاشر من تشرين الأوّل ١٦٩٨ عقدتِ الرهبانيّةُ الجديدة مَجمعَها العامّ الأوّل. وفي ١٨ حزيران سنة ١٧٠٠ ثبّت البطريرك الدويهيّ القانونَ الأوّل المحفوظ إلى اليوم في متحف سيّدة اللويزة، واعترف البطريرك قانونياً بالرهبنة الجديدة بحضور بعض الأساقفة. ويومَها، وأمام البطريرك الدويهيّ والأساقفة، أبرز ثلاثةَ عشرَ عضواً من الرهبنة، وللمرّة الأولى، نذورَ الفقرِ والعفّة والطاعة، فكانت انطلاقةُ الرهبنةِ الجديدة. وفي العاشر من تشرين الأوّل ١٧٠٥ أضافوا إلى النذور الأولى نذرَ التّواضع، والذي بموجبه تعهّدوا بأن لا يسعوا في طلب أيّ منصب في الرهبانيّة أو خارجها، وأن لا يقبلوا به إلاّ بأمر الرؤساء وإذنهم، وتباينت سريعاً آراءُ المؤسّسين حول تجديدِ هدفِ الرهبانيّة الجديدة، فجبرائيل حوّا يريدُها رسوليّةً بينما يريدُها قراعلي تأمّليّةً، لكن فكرةَ الزّهدِ والانفرادِ والصلاة والحياة الديريّة والعمل اليدويّ دون إهمال الرسالة على أنواعها ظلّت هي الراجحة. وانطلقتِ الرهبانيّةُ في هذا المضمار إلى يومنا هذا. وبعد مُضيّ ثلاثمئة سنة على تأسيس الرهبانيّة يمكنُنا تلخيصُ البعدِ الروحيّ الذي وضعته نصبَ

عينيها من المؤسّس حتّى يومِنا وإلى الغد إن شاء الله بكلماتٍ ثلاث: خدمة الكنيسة، خدمة الشعب، وخدمة الوطن.

خدمة الكنيسة

مثالُ المؤسّسين، وحياةُ رهبانهم، والقوانينُ الجديدة المثبّتة من البطريرك الدويهيّ ثمّ من قداسة البابا إكليمنضوس الثاني عشر في ٣١ آذار ١٧٣٢، ساعدت كثيراً على نشأة الرهبانيّات الشرقيّة الشقيقة في لبنان. لقد اتّبعت أكثرُ من رهبانيّة شقيقة، ولفترة من الزمن، خاصّةً في طور التأسيس، قوانينَ الرهبانيّة اللبنانيّة، كما أنّ عدّةَ مؤسّسين لهذه الرهبانيّات قضوا فتراتٍ طويلةً في أديرة مار أنطونيوس قزحيا ومار إليشاع بشرّي ودير سيّدة اللويزة في زوق مصبح للتعرّف عن كثب على الحياة الرهبانيّة قبل الإنصراف إلى تأسيس عائلاتهم الروحيّة. وفي هذا المضمار أدّت رهبانيتُنا خدمةً جُلّى لكنيسة لبنان، من حيث مساهمتُها وتشجيعُها على تأسيس رهبانيّاتٍ جديدة أغنتِ الكنيسةَ الجامعةَ بقداسة أفرادها وتضحياتِهم وإشعاعهم الروحيّ والثقافيّ. وكان للرهبانيّةِ، وبنوعٍ خاصّ للمؤسّس المطران عبد الله قراعلي، فضلٌ كبير في تجديد الحياة الرهبانيّة النسائيّة في لبنان. ومن الجدير بالذّكر أنّ المؤسّسين تسلّموا عدّةَ أديرةٍ مثقلةٍ بالدّيون أو على وشك الاندثار الروحيّ والمادّي، فأعادوا بناءها وسدّدوا ديونَها فأصبحت ولا تزالُ إلى اليوم واحاتِ رجاء ومنائرَ إشعاع وملاذاً وملجأ لكلّ ذي حاجة. والكلُّ يعلمُ دورَ الأديارِ في تقدّمِ وازدهارِ وقداسةِ الكنيسة في لبنان.

ولم يهملِ الرهبانُ منذ التأسيس وإلى يومنا الخدمةَ الرعائيّة، حتّى ولو كان نصيبُهم في بعض الأحيان رعايا نائيةً أو فقيرةً، فاهتمّوا بخدمة النفوس وتجنّدوا للوعظ والإرشاد والتعليم الدينيّ ليكونوا «في ما هو للآب» خدمةً للكنيسة ولشعب الله. وساهمتِ الرهبانيّةُ إلى يومنا في حياة الكنيسة الليتورجيّة، فألّف المؤسّس عبد الله قراعلي أناشيدَ دينيّةً ما تزالُ حيّةً في ذاكرة شعبنا إلى اليوم مثل «صلاتُكِ معنا»، «يا خبزَ الحياة»، «بسرّ قيامةِ المسيح ربِّنا» إلى جانب «الأفراميّات» التي ما زال المؤمنون يحبّونها ويطلبون منّا إنشادَها في بعض المناسبات. كما أنّ مطبعةَ قزحيا وطاميش طبعت كتابَ المزامير والقدّاس والقراءات وغيرَها من الكتب الروحيّة التي غذّتِ النفوسَ في الأجيال الماضية.

ولا ينكرُ أحدٌ اليوم دورَ الرهبانيّات في تجديد الحياة الليتورجيّة والألحان الكنيسة ورتبة القدّاس. والخدمةُ الكبيرة التي أدّتها الرهبانيّةُ إلى الكنيسة المارونيّة كان انعقادُ المجمعِ اللبنانيّ في دير سيّدة اللويزة عام ١٧٣٦، هذا المجمع الذي كان حدثاً مميّزاً في حياة الكنيسة في لبنان.

خدمة الشعب

لم تقتصرْ فقط خدمةُ الرهبانيّة على الناحية الروحيّة والليتورجيّة والكنيسة، بل تعدّتها إلى النواحي الثقافيّة والحياتيّة والإنسانيّة. لقد اهتمّتِ الرهبانيّةُ بالإنسان كلٍّ الإنسان. فافتتحتْ، بجانب كلِّ ديرٍ أنشأته أو تسلّمته، مدرسةً مجّانيّة. هاكم ما نقرأ في سجلات الرهبانيّة المحفوظة في دير اللويزة، عام ١٧٥٢: إنّ جملةَ المدارس التي افتتحتها الرهبانيّةُ ثلاثَ عشْرةَ مدرسةً. وجميعُ هذه المدارسِ تعلّمُ فيها الرهبنةُ مجّاناً من غير طلب ربح أصلاً...»، هذه المدارسُ تطوّرت مع الأيّام. فإلى جانب المدارس الابتدائيّة المجّانيّة في أكثرِ من ناحيةٍ قامت مدارسُ ومعاهدُ ثانويّةٌ وتكميليّةٌ وجامعاتٌ تتجاوبُ مع متطلّبات شبابنا الثقافيّة.

وفي مجال الصناعة والعمل اليدويّ، حرصت الرهبانيّةُ منذ نشأتها على تلقين أبناء الشعب حرفاً يدويّةً تساعدُهم على كسب عيشِهم وقوتِهم اليوميّ بكرامة، فعلّمتهم فنَّ الحياكةِ والصّباغة والحداده في كثيرٍ من أديارها أمثالِ دير اللويزة ومار بطرس كريم التين. وكان الرهبانُ أنفسُهم، وبنوعٍ خاص الإخوة المساعدون، يلقّنون الشعبَ أصولَ هذه الصناعات. وحافظتِ الرهبانيّةُ ما أمكن على رسالتها هذه، فأقامت حيثما استطاعت المعاهدَ التقنيّة التي تعلّمُ شبّانَ اليوم الحرفَ والصناعةَ وفنَّ الأعمالِ اليدويّة.

ورافقتِ الرهبانيّةُ، منذ نشأتها، الشعبَ المارونيّ في تنقّلاته عبر مناطقِ لبنان، وفي هجرته خارج لبنان. فأوفدت رهبانَها الغيارى إلى مناطقَ بعيدةٍ في لبنان حيث أسّستِ الأديارَ والرسالاتِ، وإلى أصقاعٍ ومدنٍ خارج لبنان مثل مصر وقبرص وعكّار ومرسين وغيرها. وفي أيّامنا، وبدءاً من الثلاثينات وفي الخمسينات، إنطلق الرهبانُ إلى كلّ بلاد الانتشار ليخدموا أبناءهم في أفريقيا وأميركا الجنوبيّة وكندا وأستراليا.

خدمة الوطـن

أحبّ الرهبانُ لبنانَ وطنَ الحريّة الدينيّة والعيش المشترك والتفاعل الحضاريّ، ودافعوا عن كيانه حتّى التضحية بحياتهم، فاستحقّوا من الشّعب لقبَ «الجيش الأسود». ومواقفُهم الوطنيّة، عبر تاريخهم القديم والحديث، يعرفُها الجميع. للمؤسّسين وللآباء العامّين الذين تعاقبوا على إدارة الرهبانيّة كلمةٌ مسموعة، ورأيٌ يُعملُ به عند الحكّام. إبّانَ الحكمِ العثمانيّ جال بعضُ الرهبان، بأمرٍ من البطريرك والأساقفة الموارنة، على بلدانٍ أوروبيّة مثل النمسا وبروسيا وفرنسا طلباً للمعونة والحماية. كما استطاعوا أن يحصلوا في الخامس من آذار ١٧٤٩ على براءة من الملك لويس الخامس عشر يضعُ الرهبانيّةَ تحت حماية فرنسا. في الملمّات الكبرى وقفوا مع أبنائهم ضدّ الظلم، فامتزجت دماؤهم بدماء إخوانهم في حوادث ١٨٦٠ في دير القمر ودير مشموشة وجزّين وزحلة...

في الحرب الكونيّة الأولى فتحوا ديارَهم لإطعام الجياع، ورهنتِ الرهبانيّةُ اللبنانيّة كلَّ أملاكها لدى الدولة الفرنسيّة لإطعام الجياع والحفاظ على شعبٍ كاد يفنى من الجوع والفقر والعوز... وفي الأحداث الأخيرة كان للرهبانيّات موقفُها الوطنيّ المعروف، ففتحت أديارَها مجدّداً أمام المهجّرين والمشرّدين بغيةَ الحفاظ على الهويّة والانتماء. واليوم تساهمُ الرهبانيّةُ في إعادة المهجّرين إلى أراضيهم ومواقعهم، فتجدّدُ بل تبني الأديرة التي هدّمتها الأحداثُ ليطمئنَّ ابنُ الجبل إلى مستقبله ومصيره وبقائه في وطنه.

إنّ مسيرةَ الرهبانيّة، عبر تاريخها العريق المثلّث الأجيال، لم تحدْ يوماً عن طريقٍ رسمه لها مؤسّسوها القدّيسون، وسار عليها مئاتُ الرهبان الذين حملوا المشعلَ مضاءً للخدمةِ والتضحية والعطاء. كانت المسيرةُ رسالةً في الماضي، وستكون إن شاء الله رسالةَ خدمةٍ للمستقبل في لبنان ومحيطه العربيّ وفي عالم الإنتشار. وسنكملُ المسيرةَ نحن الرهبان بنعمة الله، تحت نظر أمّنا العذراء مريم، وبشفاعة رهباننا القدّيسين، آملين أن يباركَ الرّبُ دوماً «الكرمة المثمرة التي غرستها يمينُه القدّوسة».

كلمة الأم ماري كزافيه سكاف

باسم الآب والابن والروح القدس آمين
أسبّح الرّب مع بولس قائلة:
«تبارك اللهُ أبو ربّنا يسوعَ المسيح،
فقد باركنا كلَّ بركةٍ روحيّة، في السماوات
في المسيح، ذلك بأنّه اختارنا فيه قبل
إنشاء العالم، لنكونَ في نظره قدّيسين.
بلا عيب في المحبّة، قُدّر لنا منذ القدم
أن يتبّنانا يسوعُ المسيح على ما ارتضته
مشيئته».

افسس ١: ٣–٥

فله الشّكرُ والمجد والتسبيح أبداً ومدى الدهور. آمين.

نحن إذاً مدعوّن إلى القداسة، ويسوع الذي تبنّانا ودعانا لنكونَ إخوةً وتلامذة ورسلاً هو نفسُه يتشفّعُ بنا لدى أبيه لنتقدّسَ من خلال الرسالة التي يوكلها إلينا وهو يستغيثُ أباه قائلاً:

«يا أبت قدّسْهم بالحقّ. إنّ كلمتَك حقٌّ.
كما أرسلتني إلى العالم فكذلك أنا
أرسلتهم إلى العالم، وأكرّسُ نفسي من
أجلهم، ليكونوا هم أيضاً مكرّسين بالحقّ».

يوحنّا ١٧: ١٧–١٩

فالبشريّةُ مدعوّةٌ إلى القداسة بالمحبّة والحقّ.
هذا هو البعدُ الروحيّ للبشريّة.

وهذا هو البعدُ الروحيّ للرهبنة. رهبنة الأمس واليوم والغد. لأنّ يسوع هو هو. أمس واليوم وللأبد.

عبرانيين ١٣: ٨

فالقداسةُ بالمحبّة والحقّ هي رسالةُ المستقبل لرهبنة اليوم والغد.

يسوع هو الأساس، هو الألف والياء، هو البداية والنهاية...

بمناسبة اليوبيل المئويّ الثالث لتأسيس الرهبنة المريميّة والرهبنة اللبنانيّة ١٦٩٥–١٩٩٥ (و١٧٠٠–٢٠٠٠ للرهبنة الأنطونيّة...)

يتخيّل إليّ أنّ منظّمي المؤتمر أعني (جامعة سيّدة اللويزة بإشراف الرهبانيّة المارونيّة المريميّة) الذين أطلقوا عليه عنوان:

«الرهبانيّة: رسالة للمستقبل»

يوجّهون لنا اليوم، نحن الرهبانَ والراهبات، رسالةً خطيرة، رسالةً شبهَ «ملغومة»، فلهم كلُّ الشكر، لهذا الطرح الجريء والمغامر، علّنا نفجّرُ أو نفضّ الرسالة معاً في «عليّة» دير سيّدة الجبل، نحن المجتمعين باسم يسوع، إخوةً وأخواتٍ، تلاميذَ ورسلاً، علّ الروحَ يملئ كلَّ جوانبِ الدير ونمتلء من الرّوح القدس، لنتكلّمَ ما سوف يهبُه لنا الروحُ القدس أنّ نتكلّم به.

أعمال الرسل ٢: ١–١٣

البعد الروحيّ

الروح:

* روح المسيح الحيّ والمحيي القائم من بين الأموات
* الروح مرتبط بالحياة، إذاً بالوجود، بالكيان
* الديناميّة الإنجيليّة – الحيّة والمعيوشة

* النهج، ونمط الحياة كرؤية وتأمّل وتفكير وعمل

«متى جاء هو روح الحقّ أرشدكم إلى الحقّ كلّه، لأنّه لن يتكلّم من عنده، بل يتكلّم بما يسمعُ ويخبرُكم بما سيحدث».

يوحنّا ١٦: ١٣

«طوبى للمساكين بالرّوح، فإنّ لهم ملكوتَ السماوات» متّى ٥: ٣
«طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يعاينون الله» متّى ٥: ٨
البعد الروحيّ بعد نبوّي يشمل

* التأمّل والصّلاة
* الموهبة والتّعليم
* الشّهادة والاستشهاد
* الرّسالة والخدمة
* السّهر والاستعداد لمجيء المسيح، الخ...

لتأتِ «الرسالة» معروفةً ومقروءة من جميع النّاس، مكتوبةً بروح الله الحيّ في دير ورهبنة اليوم والغد.

وهل تبدو «الرسالة» غريبةً عن حاملها؟

فحاملُ الرسالة نبيٌّ هو...

* النبي يصرخ: صوت صارخ في البريّة: أعدّوا طريقَ الربّ، واجعلوا سبلَه قويمةً».

مرقس ١: ٣

* النبيّ يقوّم، يبكّت، يذكّر، يرشد...
* النبيّ يدعو إلى التوبة والتغيّر واليقظة...
* النبيّ يشهد... يعلّم...

* النبيّ يرى... يرى اللامنظور، يعلن لا بالكلام فقط، بل بالصّمت أيضاً، وبطريقة حياته...
* النبيّ يرى بالصّلاة، بالغوص بكلام الربّ...
* النبيّ يعلن مجيء الملكوت، الخ...
* فالدّعوة إلى القداسة واحدة: «كونوا قدّيسين، كما أنّ اباكم السماويّ قدّيس هو».

متّى ٥: ٤٨

* الوصيّة واحدة: أحببِ الربَّ إلهَك بكلّ قلبك، وكلِّ نفسك، وكلّ قوّتك، وكلّ ذهنك، وأحببْ قريبَك حبَّك لنفسك».

لوقا ١٠: ٢٧

* المشورة واحدة: «إذا أردت أن تكونَ كاملاً، فاذهبْ وبِعْ أموالَك وأعطِها للفقراء فيكونَ لك كنزٌ في السماء، وتعال فاتبعني».

متى ١٩: ٢١-٢٢

أمّا وسائلُ تحقيقِ الدعوةِ والوصيّة والمشورة فمتنوّعةٌ: إنّها تشملُ الحياةَ الديريّة والخدماتِ على أنواعها: روحيّة واجتماعيّة وتربويّة ورعويّة وإنمائيّة ومسكونيّة، إلخ...

أمّا النهجُ الذي يميّزُ دائماً الروحانيّةَ الرهبانيّة فهو نهجٌ نبويّ.

١- حضور نبويّ في الدير

«إنّ الإنسانَ الشرقيّ يملّي»

الحياة الروحيّة والافخارستيا والليتورجيا تشكّلُ

محورَ الحياةِ الديريّة الأساسيّة، في الدير تمتلىء

من الرّوح ومن الدير ننطلقُ للشّهادة لنرى...

ونعلن... ما سوف يقولُه الرّوح...

كيف يتجلّى هذا الحضورُ النبـويّ؟

٢- حضور نبويّ في الخـدمـة

الطابعُ المميّز للعمل الرهبانيّ في الخدمة عملٌ يتّصفُ بالتجرّد والتّـواضع والصدق في العطاء، مقترناً بالتقنيّة على أعلى مستوياتها، بعيداً عـن النفعيّـة وروح الإستغـلال.

فهل تتحلّى مستشفياتُنا ومؤسّساتنا الخدماتيّة بروح النبـوّة بحضورٍ مجرّد تفتديـه روحُ يسوعَ المسيح الذي:

«أتى ليَخدمَ لا ليُخدم»؟

٣- حضور نبـويّ في التـربيـة

أيّ حضور نبويّ لنا في مؤسّساتنا التربـويّـة؟

ما الذي يميّزُ بينها وبين مؤسّساتٍ غيرِ رهبـانيّـة؟

أيَّ ثقافةٍ مسيحيّة نغطّي في مدارسنا وجامعاتنـا؟

وإذا كانت التربيةُ خلقَ سلوكٍ نبـويّ

فما هو مدى فاعليّةِ متخرّجينا في مجتمعاتهم من

الناحية الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّـة والعلميّـة؟

كيف يفيضُ الرّوح من الدير إلى مؤسّساتنا التربويّـة؟

٤- حضـور نبويّ في العمل المسكونيّ؟

نحن في هذا الشرق مدعوّون إلى أن نشهدَ معاً كمسيحيين، وإلاّ بقيت شهادتُنا ناقصةً وغيرَ فاعلة. أيُّ حسابٍ للكنائسِ المسيحيّة الأخرى في مؤسّساتنا التربويّة، وفي جميـع مؤسّساتنا التي تُعنى في خدمـة الإنسان؟

وهل روحُ التجرّد والخدمة الحقيقيّة التي يتميّزُ بها الديرُ هي التي توجّهُ تفكيرَنا المسكونيّ؟

٥- حضور نبويّ في الانفتاح على العالم

رهبانيّاتُنا منتشرةٌ في جميع أنحاء بلادنا وفي الخارج، وتشملُ خدماتُها كلَّ الناس من دون أيّ تمييز، ومنها ما يخدمُ غيرَ المسيحيين بشكل أساسيّ.

فما هي نوعيّةُ حضورِنا، وما هو مدى قبولِنا للآخر في هذه السنة العالميّة للتسامح؟

٦- حضور نبويّ في الإيمان بالإنسان

والإنسانُ، الإنسانُ رجلاً وامرأة، الأوليّة المطلقة بين خلائقِ الله...

٥٣: إلى أيّ مدى يحتلّ فعلاً هذا الإنسانُ، امرأةً ورجلاً، مكانَ الصدارة في حضارة اليوم؟

٥٥: إلى أيّ مدىً نساهمُ في تحرير الإنسان وتطويرِه بشكل يتجاوب مع الكرامة التي أولاه اللهُ إيّاها؟

كلمة الأب الياس خليفه

روحانيّة الحياة الرهبانيّة
لدى عبدالله قرعلي
مجدّد الحياة الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة

مقدّمة

مرّت ثلاثماية سنة (١٦٩٥–١٩٩٥) على العمل التجديديّ الرهبانيّ الذي قام به الأب عبدالله قرعلي (١٦٧٤–١٧٤٢) ورفاقُه في الكنيسة المارونيّة. ما الذي دفعه للقيام بهذا التجديد؟ ما هي الركائزُ الأساسيّة التي عليها بنى هذا التجديد؟ ما هي الملامحُ الكبرى لهذا التجديد؟ هذا ما أردنا أن نبيّنَه في هذا البحث السريع، فاتحين الأبوابَ مشرّعةً أمام أبحاثٍ أعمقَ وأوسع.

دوافع التجديد

لعب عبدالله قرعلي مجدّدُ الحياةِ الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة، دوراً هامّاً ومميّزاً في تاريخ هذه الكنيسة الحديث، وربّما كان له الدورُ الأبرز، بعد البطريرك إسطفان الدويهيّ الكبير، وقد عاصره وعمل تحت قيادته عقداً كاملاً من الزمن امتدّ عن سنة ١٦٩٤ حتّى ١٧٠٤. إنّه عقدٌ مفصّل في تاريخ الكنيسة المارونية، بلغ خلاله الدويهيّ الكبير قمّةَ نضوجِه الروحانيّ واللاهوتيّ والقياديّ، وكان قد أنهى معظمَ مؤلّفاته التاريخيّة واللاهوتيّة والليتورجيّة.

هَدَفَ الدويهيُّ، من خلال هذه المؤلّفات، إلى إحياء وعي الموارنة لتراثهم ولهويّتهم الكنسيّة، بعد أن كانت تغيبُ وتُطمسُ من جرّاء العمليّات المتكرّرة لإدخالهم في المنظار اللاهوتيّ الغربيّ منذ القرون الوسطى، لا سيّما بعد بعثات الأب إليانو والأب

دنديني بين سنة ١٥٧٨ وسنة ١٥٩٨ وبعد تأسيس المدرسة المارونيّة في روما سنة ١٥٨٥.

إتّسمت هذه المرحلةُ من تاريخ الكنيسة المارونيّة، لا سيّما في نهاية القرن السادسَ عشَرَ وبداية القرن السابعَ عشَرَ، «بتغريب» مكثّف للاهوتها وقانونها وليتورجيّتها بواسطة مجامعَ عُقِدتْ هنا في لبنان في سنة ١٥٨٠ برئاسة الأب إليانو اليسوعيّ والبطريرك مخايل الرزّي وفي سنة ١٥٩٦ برئاسة البطريرك سركيس الرزّي وحضور الأب دنديني اليسوعيّ[1]، وبواسطة طلائعِ المدرسة المارونيّة في روما الذين حملوا معهم لاهوتَ الغرب وروحانيّةَ الغرب وتنظيمَ الغرب. تمّ كلُّ ذلك من دون الرجوعِ إلى التّراث السريانيّ المارونيّ الذي اعتُبر مشبوهاً ومشوباً بالأخطاء بالنّسبة للإيمان الكاثوليكيّ.

قام البطريرك يوسف حبيب العاقوريّ بردّةِ فعلٍ عنيفة ضدّ هذا التيارِ في منتصف القرن السابعَ عشَرَ، وعقد مجمعاً في دير حراش سنة ١٦٤٤ ليعيدَ الأمورَ إلى نصابها، ولكنّه لم يُفلِحْ لأنّ عملَه لم يكن مبنيّاً على فهمٍ عميقٍ للتراث الذي أراد أن يدافعَ عنه ضدّ الدخيلِ والغريب.

تسلّم الدويهيّ الكبير زمامَ السّلطة في الكنيسة المارونيّة، وهي على هذه الحالة من ضياع التراث والهويّة بين الفعل وردّة الفعل. كان الدويهيّ مهيّأً، بعلمه ورصانته وفضيلته، للقيام بعمليّة الرجوع إلى التراث المارونيّ ومقارنته مع ما استجدّ ودخل عليه من لاهوتٍ غربيّ وروحانيّة غربيّة وتنظيم غربيّ. درس في روما واطّلع بعمق على تراثها العريق، ولكنّه أيضاً أحبّ تراثَ كنيسته ودرسَه بشغف وأحاط به من كلّ جوانبه، فاستطاع أن يقيّمَه ويُبرزَ خصائصَه ويَنفيَ عنه التهمَ التي ألصقها به «المفتّشون» الغربيون والجهلةُ من الموارنة. فما أن رجع إلى وطنه حتّى قام بعمليّة مراجعة لكلّ ما تعلمّه، إنطلاقاً من تراث كنيسته، فتبيّن له أنّ هذا التراثَ هو من الغنى بحيث يسعُه أن يستوعبَ كلَّ الفكرِ اللاهوتيّ الذي تمرّس به في الغرب. هذا ما حقّقه في كتابه الشهير «المنائر العشر» المعروف بمنارة الأقداس. إنّ هذا الكتابَ هو تفسيرٌ لرتبة القدّاس

١- راجع تاريخ هذه المجامع ونصوصها في كتاب Histoire du droit de l'Eglise Maronite، تأليف المونسنيور جوزف الفغالي، الجزء الأوّل، ص...، باريس، ١٩٦٢.

المارونيّ، ولكنّك تجدُ فيه جميعَ الحقائقِ الإيمانيّة مشروحةً على ضوء نصوص الليتورجيا المارونيّة والآباء السريان وبعض الآباء اليونان، وإذا وجدت نصّاً من آباء الغرب فتراه ملحقاً بنصوصٍ عديدة من الليتورجيا المارونيّة وآباء الشرق. الغايةُ واضحةٌ، وهي أنّ ما تعلّمُه الكنيسةُ الغربية تُعلّمُه أيضاً الكنيسةُ المارونيّة من خلال تراثها الآبائيّ والليتورجي.
هكذا استطاع الدويهيّ الكبير أن يحرّرَ الموارنةَ من عقدةِ تفوّقِ الفكر اللاهوتيّ الغربيّ على تراثهم السريانيّ. وما العملُ الجبّار الذي قام به يوسف السمعانيّ في بداية القرن الثامنَ عشرَ عندما نشر سنة ١٧١٩ مؤلَّفه المكتبة الشرقية كاشفاً فيه للغرب كنوزَ اللاهوت السريانيّ إلاّ نتيجةٌ لهذا التحرّر. ممّا لا شكّ فيه أنّ السمعانيّ الكبير قد قرأ معظمَ مؤلّفات الدويهيّ، وهو لا يزال طالباً في المدرسة المارونيّة، لأنّ الدويهيّ كان قد أرسل نسخاً من مؤلّفاته إلى مكتبة هذه المدرسة لكي يطّلعَ تلاميذُها على التراث المارونيّ.

في هذا الجوّ العابق بروح التجديد المتجذّر في التّراث، وصل عبدالله قرعلي ورفيقاه إلى دير قنّوبين سنة ١٦٩٤ قاصدين الترهّبَ في جبل لبنان، وقد توسّم فيهم البطريرك القدّيسُ والعالمُ خيراً في تجديد الحياة الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة. وجد فيهم الثقافةَ والفضيلة من جهة، والاندفاعَ في اعتناق الحياة الرهبانيّة من جهة ثانية. لذلك، بعد أن قضَوا أكثرَ من سنة في زيارة أديار جبل لبنان أو في معيّة البطريرك «أخذ السيّد البطريرك، يقول عبدالله قرعلي في مذكّراته، يحثّنا على لبس الإسكيم المقدّس فأطعناه بما رسم ولبسنا الإسكيم من يده نحن الثلاثة، أعني القَسّ جبرايل وأخي يوسف وأنا الحقير في ١٠ تشرين الثّاني من السّنة المذكورة» (أي ١٦٩٥)[٢]. يقول المطران جرمانوس فرحات الذي لحق بالشبّان الثلاثة في ١٦٩٦ في كتابه «تاريخ تأسيس الرهبانيّة اللبنانيّة» ما يأتي: «ولمّا عرف غبطتُه مقاصِدَهم الصالحة، فرح جدّاً بهم فأقاموا عنده زُهاءَ سنةٍ ونصف السّنة، كانوا في خلالها يطوفون بلادَ الجبّة وجبيل وكسروان»[٣]. ولكنّ البطريرك لم يفرح بهم ولم يحثّهم على لبس الإسكيم إلاّ بعد أن مانعهم ليختبرَ مقاصدَهم وقدرتَهم على تحمّل صعوبات الحياة الرهبانيّة. يقول الأب توما اللبّودي

٢- راجع «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، الكسليك، ١٩٨٨، ص ٢٩.

٣- المرجع نفسه، ص ١١٥.

الذي انضمّ إلى الرهبانية سنة ١٧٠٦ في كتابه «سيرة الأب عبدالله قرعلي»: «توجّهوا جملةً إلى دير قنّوبين وأخبروا السيّد البطريرك بنيّتهم فابتدأ يهزأ بهم بقوله لهم: إنّكم إنتم أناسٌ ذوو تنعّمٍ ومعاش الجبال قشف والحروب في البلاد وسفك الدماء متّصل. هل يمكنُكم احتمالُ هذا وإكمالُ مطلوبِكم؟ والحالُ أنّكم عاجزون عن شغل الفلاحة والزراعة، وأنتم ناظرون معاشَ الرهبان وسيرتَهم في هذه البلاد. فأجابوه أنّ مرادَهم أن يجمعوا قانوناً من رسوم الآباء أنطونيوس وباسيليوس وغيرهم وينشئوا طريقةً لهم ولغيرهم.

فصفّق البطريرك بيديه ضاحكاً ومستهزئاً بهم بقوله هكذا: الآن تحقّقتُ جنونكم»[٤].

لا شكّ أنّ البطريرك العالم والقدّيس كان يفكّرُ ويبحثُ في كيفيّة تجديد الحياة الرهبانيّة، وهو العالمُ بالعلاقة العضويّة بين الكنيسة المارونيّة والحياة الرهبانيّة من جهة، ولم تكنْ تَخفى عليه، من جهة أخرى، حالُ الانحطاط التي وصلت إليها هذه الحياة. لهذا نراه، بعد أن استخفّ بهم أوّلاً، يشجّعهُم الآن في مقصدهم عندما أبدوا له عن رأيهم وعدم رضاهم عن نوع الحياة الرهبانيّة المعاشة في الأديار التي زاروها وتعرّفوا عليها. وكأنّي به الآن يتأكّدُ من عزمهم على إدخال التجديد الذي كان يبحثُ عنه في الحياة الرهبانيّة. لهذا نراه يرعاهم مدّةَ عشرِ سنوات (١٧٠٤-١٦٩٤) بالنّصائح والتدابير لا سيّما بالنّسبة لشكل الحياة الرهبانيّة وقوانينها كما ترى تباعاً.

حالة الحياة الرهبانيّة في أواخر القرن السابع عشر

من الواضح أنّ الكنيسةَ المارونيّة هي وليدةُ حركةٍ نسكيّة رهبانيّة ترجع في جذورها إلى القدّيس مارون وتلاميذه نسّاكِ جبل قورش في النصف الأوّل من القرن الخامس[٥]، ثمّ إلى رهبان دير مار مارون الذي تأسّس سنة ٤٥٢ في منطقة أفاميا وإلى التيّار الرهبانيّ الشعبيّ الذي انطلق من هذا الدير، وانتشر في معظم أنحاء الكنيسة الأنطاكية،

٤- المرجع نفسه، ص ٧٨.

٥- راجع كتاب «تاريخ أصفياء الله» لتيودريتس القورشيّ، ترجمة الأرشمندريت أدريانوس شكّور، ١٩٨٧، ص...

وعاش نحو قرنين ونصف القرن لاعباً دوراً مهمّاً في حياة الكنيسة الأنطاكية قبل أن يصبح كنيسةً مستقلّة في أواخرِ القرن السابع.

إنّها ظاهرةٌ فريدة في تاريخ الكنيسة الجامعة الذي لا يعرفُ كنيسةً خرجت من دير وتمحورت حوله بالرّغم ممّا كان للحركات الرهبانيّة من أثر عميق في حياة الكنائسِ في الشّرق والغرب. فمن الطبيعيّ إذاً أن تتميّزَ كنيسةُ الموارنة بروحانيّة نسكيّة ورهبانيّة إنطبعت بها منذ نشأتها وتشابك تاريخها بمصير الحياة الرهبانيّة التي بقيت بمثابة القلب النابضِ فيها. فما أن يضعفَ هذا القلبُ حتّى يعتريَها الوهنُ، وما أن يتنفّسَ حتى تدبَّ الحياةُ والنضارةُ في جسمها. لهذا يمكنُنا القولُ بأنّ الكنيسةَ المارونيّة بقيت حركةً نسكيّةً رهبانيّة حتّى بعد استقلالها، بحيث بقي مؤمنوها ورهبانها ونسّاكها وكهنتها وأساقفتها وبطاركتها يعيشون معاً قيماً رهبانيّة أصيلة طبعت بيئتَها وليتورجيّتَها وروحانيّتَها. هذا ما يشرحُ انتشارَ الحياةِ الرهبانيّة في وديانِ لبنان وقممِه من جهة، والتكوينَ الرهبانيّ لسلطة الكنيسة المارونيّة من جهة أخرى، بحيث كان الأساقفةُ والبطاركة من الرّهبان يستمرّون في الممارسة الرهبانيّة أثناءَ قيامِهم بأعمالهم الرعائية، وقد لاقى البطريرك يوسف الرزّي، في أواخرِ القرن السادسَ عشرَ، معارضةً، عندما قرّر، بتأثيرٍ غربيّ، تحريرَ الأساقفة من بعض الممارساتِ الرهبانيّة كالانقطاعِ عن أكلِ اللحم مدى الحياة والسّماحِ لهم بأكل السّمك أثناء فتراتِ الصيام التي كانت عديدةً أثناءَ السنة[٦]. وهذه الصبغةُ الرهبانيّة دفعتِ الكثيرين من العائلات المارونيّة إلى بناء الأديار لتؤمّنَ لأبنائها وبناتها اعتناقَ الحياةِ الرهبانيّة. ونعلمُ أيضاً أنّ بعضَ العائلات المارونيّة قد اعتنقتِ الحياةَ الرهبانيّة بأكملها، فبنى الأبُ والبنون ديراً لهم، والأمُّ والبنات ديراً آخر[٧].

لا نعرفُ الكثيرَ عن الحياة الرهبانيّة عند الموارنة وهنا أيضاً يبرزُ دورُ البطريرك إسطفان الدويهيّ في حفظ بعضِ المعلومات عنها في كتابه «تاريخ الأزمنة»، وقد جمع الكثير منها ودرسها الأب بولس صفير، عميدُ كليّة اللاهوت في جامعة الرّوح القدس، في

٦- راجع المطران بطرس ديب، تاريخ الكنيسة المارونيّة (بالفرنسيّة)، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٢. الأب بولس صفير، الحبساء في الكنيسة المارونيّة (بالفرنسيّة)، الكسليك، ١٩٨٦، ص ١٧١.

٧- راجع المطران يوسف محفوظ في مقالته Les monastres dans l'Eglise Maronite, MELTO, 1967, pp. 109-110.

كتابه Les Ermites dans L'Eglise Maronite. تُظهِرُ هذه المعلوماتُ أنّ الحياةَ الرهبانيّة، في شكليها الجَماعيّ والإنفراديّ، كانت مزدهرةً جدّاً في الكنيسة المارونيّة. يقول البطريرك الدويهي، نقلاً عن البطريرك يوحنّا الصفراوي المتوفّى سنة ١٦٥٩ ما يأتي:

«وكان جبل لبنان والأودية والمغر جميعهم ملانين من الحبسا والرهبان حتّى أنّ البطريرك يوحنّا الصفراوي الذي من يديه أخذنا الكهنوت، وكان قارب ذلك أعصر، كان يقول لنا إن في أيام الحدود (الآحاد) والأعياد كلن يعقد دخان البخور في تلك الأودية يشبه الضباب. ولمّا كان يجسّ أحد ويشكي له عن بعض الرهبان أن صارت قلقلة أم فتنة بينهم كان معتاد يقول: يا ولدي، لا تؤاخذهم، في أيامنا كانت هذه الديورة والأودية محبوكة كلها من الرهبان والحبساء، وأعداء جنسنا الذين كانوا متفوّقين عليهم، اجتمعوا كلهم على هؤلاء القلائل الذين فضلوا، فاطلبوا لهم ولا تؤاخذوهم»[٨].

نستنتجُ من كلام الدويهيّ هذا أنّ الحياةَ الرهبانيّة لم تكنْ مزدهرةً في منتصف القرن السابعَ عشَرَ كما كانت في أواخرِ القرن السادس عشر، حسب شهادة البطريرك الصفراوي الذي كان راهباً ورئيساً لدير سيّدة حوقا سنة ١٦٣١. وقد ترك لنا الدويهيّ معلوماتٍ كثيرةً عن رهبان وحبساء اشتُهروا خلال القرن السادسَ عشَرَ[٩] بينما لم يدوّنْ إلاّ القليلَ عن رهبان عايشهم. هذا دليلٌ على أنّ الحياةَ الرهبانيّة كانت قد ضعفت، على الأقلّ من حيثُ النوعيّةُ، خلال النّصفِ الثاني من القرن السابعَ عشَرَ، إذْ لم يعد هناك أوجهٌ رهبانيّة تستحقّ الذّكرَ.

سببُ هذا الضعفِ، في نظرنا، هو تأثيرُ الروحانيّة الغربيّة واللاهوت الغربيّ والتّنظيم الغربيّ على الكنيسة المارونيّة. إبتدأ هذا التأثيرُ يقوى، كما قلنا سابقاً، مع البعثات الرومانيّة في أواخرِ القرن السادسَ عشرَ، ومع رجوع أفواج خرّيجي المدرسة المارونيّة الأوّل الذين بُهِروا بما تعلّموا ورأوا في المدينة الخالدة، فابتدأوا بنقله ونشره في كنيستهم. الحياةُ الرهبانيّة كانت أكثرَ المتضرّرين من طغيان الثقافة الغربيّة هذه على الكنيسة المارونيّة. فالرّهبانُ الموارنة، في نظر الوافدين الجدد، بدائيّون في حياتهم

٨- كتاب «تاريخ الأزمنة» للعلاّمة الكبير إسطفان الدويهيّ، البطريرك الأنطاكيّ المارونيّ. نشره لأوّل مرّة وعلّق حواشيه الأباتي بطرس فهد، ١٩٧٦.

٩- راجع كتاب الأب بولس صفير، فصل ٥، ص ١٣١-١٧١.

وتنظيمهم وثقافتهم إذا ما قيسوا برهبان الغرب الذين يعيشون في أديرة كبيرة وشاسعة، وفي تنظيم دقيق لأوقاتهم بينما يعيشُ الرهبانُ الموارنة في شقوق الصخور وفي أقبية ضيّقة، ويصرفون معظمَ أوقاتهم في الهذيذ الروحانيّ، وفي أعمال النّسك المضنكة وفي الزّراعة. رهبانُ الغرب متمرّسون في المجادلات الفلسفيّة واللاهوتيّة حسب منهجيّةِ التّعليم المدرسيّ الغربيّ. أمّا الرهبانُ الموارنة، فلا يجيدون سوى قراءةِ الكتب المقدّسة وكتبِ الليتورجيا وبعضِ كتب الآباء. هكذا بدا الرهبانُ الموارنة، بالرّغم ممّا يحملون من روحانيّةٍ ويمثّلون من تراث، جهلةً أمام الوافدين الجدد الحاملين الثقافةَ الغربيّة الباهرة. وقد تفاقم الوضعُ الرهبانيّ عندما ابتدأ تلاميذُ المدرسةِ الرومانيّة يستلمون زمامَ الحكم في الكنيسة المارونيّة، وأصبحوا أساقفةً وبطاركة، فسكنوا الأديار وترأسّوا عليها، كما كانتِ العادةُ في الكنيسة المارونيّة، بالرّغم من أنّهم غريبون عن الحياة الرهبانيّة، وبعيدون عن روحانيّة هؤلاء الرهبان الذين ينتمون إلى تراث نسكيّ ولاهوتيّ مختلفٍ عن ذاك الذي تمرّس به الأساقفةُ، رؤساؤهم الجدد.

وقد زاد في تضعضعِ الحياةِ الرهبانيّةِ المارونيّة، في نظري، تمركزُ رهبانيّاتٍ غربيّة في منطقة الوادي المقدّس في منتصف القرن السابعَ عشَرَ: الفرنسيسكان في دير مار يعقوب في إهدن، والكبوشيّون في دير مار قبريانوس في إهدن أيضاً، وفي دير مار فوقا في حصرون، والكرمليّون في مارت مورا في إهدن، ومار ليشع في بشري[١٠]. هؤلاء أيضاً حملوا معهم روحانيّةً جديدة وتنظيماً جديداً لم يألفهما الموارنة.

كلُّ ذلك، في نظري، ساهم في تضعضع الحياةِ الرهبانيّةِ المارونيّةِ التراثيّة، إذ فجّر أزمةً حادّة في نظامها وبنيتها من جهة، وانفصاماً في شخصيّة الراهب المارونيّ الروحانيّة من جهة أُخرى. في حالة التضعضع والأزمة هذه، جاء التجديدُ الرهبانيّ على يد عبدالله قرعلي ورفاقه الذين أسّسوا الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة سنة ١٦٩٥.

ركائز التجديد

كان عبدالله قرعلي مطّلعاً إطّلاعاً واسعاً على مكوّنات الحياة الرهبانيّة عند الشرقيّين

١٠- راجع «تاريخ الأزمنة» للبطريرك إسطفان الدويهيّ، نشره الأباتي بطرس فهد، ١٩٧٦، ص ٥٠١.

وعند الغربيّين. تعرّف على هؤلاء في حلب حيث كانوا يقومون بدور هامّ في حياة الكنائسِ المتواجدة في هذه المدينة. ولكنّ عبدالله قرعلي ورفاقَه لم يطلبوا الترهّبَ عندهم، بل قصدوا جبلَ لبنان ووادي قاديشا التي كانت تُعتبرُ فردوساً رهبانيّاً في تلك الأيّام. حسبَ تلميذِه وكاتبِ سيرته الأب توما اللبّودي الحلبيّ الذي دخل الرهبانيّةَ سنة ١٧٠٦، كان عبدالله قرعلي شابّاً مثقّفاً، درس على يد أشهر أساتذة حلب في اللغة والأدب والفلسفة واللاهوت. وكان شابّاً تقيّاً يقرأُ كتبَ الآباء القدّيسين، وقد فكّر في اعتناق الحياة الرهبانيّة عند بلوغه سنَّ السادسةَ عشْرةَ، وهو ما يزالُ في الدراسة. هاك ما كتب الأب توما اللبّوديّ عن نشأة معلّمه ودروسه: «كان والداه ميسورين بالمال والثّروة الدنيويّة، ومشهورين بعمل الإحسان والعبادة، فسمّياه عبد الأحد، وحين انتشأ، وضعاه عند المعلّمين التقاة ليتعلّمَ اللغةَ العربيّةَ والسريانيّة، فاستدام في ذلك إلى أن بلغ السنةَ الثانيةَ عشْرةَ من عمره. وعند ذلك، ابتدأ أن يقرأَ في كتب الآباء القدّيسين والزهّاد من أنطونيوس وجابه إلى أن بلغ الأربعةَ عشْرةَ سنةً من عمره. فظهرت فيه حينئذٍ علائمُ الزّهد والعبادة فعيّنه أبوه ليتعلّمَ الإعراب والنّحو والصّرف، ورغب أبوه أن يعلّمَه اللغةَ الإيطاليّة رغبةً في صناعة التجارة ومعاطاة البندر، لأنّ والدَه كان يلحظُ في هذا الفتى عقلاً ثاقباً وحشمةً زائدة، وله قبول عند العال والدون. وأمّا عبد الأحد المشار إليه، لمّا انتشأ إلى السنة السادسةَ عشْرةَ من عمره، فكان يتزايدُ فيه الشّوقُ إلى الطريقة الرهبانيّة، وكان يفتكرُ سرّاً كيف يكونُ العملُ لبلوغ قصده، لأنّ في مدينة حلب لم يكنْ ديارة للرهبان، إنّما الخبرُ الشّائع في جبل لبنان موجود رهبان وديارة باسم أبينا أنطونيوس... فدام هذا الفتى على هذه الحال إلى أن بلغ من العمر ثمانيةَ عشْرةَ سنةً، فبأحكام إلهيّة مَرِضَ مرضةً ثقيلة، وبعونه تعالى شفي منها. وحين كان في الفراش، وليس له قوّة على الخروج، كان يقرأ كتباً روحيّة للتسلية كما سبق القول. وانتهى إلى قراءة كتاب بستان الرهبان وإكليمكوس، وكان يتأمّل بسيرة الآباء مثل أبينا أنطونيوس وماريوس وأرسانيوس ومن ماثلهم. فتحرّك قلبه بحركة فاقت ما قبلها من الحركات، وعزم العزم الأكيد في ترك العالم...»[١١].

نستخلصُ من هذا النصّ بعضَ العناصر لروحانيّة عبدالله قرعلي، وهو لا يزالُ في بيته:

١١- راجع «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، ص ٧٥-٧٧.

أوّلاً: إنّ دعوةَ عبدالله قرعلي لاعتناق «الطريقة الرهبانيّة» كانت أصيلةً وناضجةً ومبنيّةً على التأمّل والبحث في سير أكابرِ الرهبانِ المشرقيين، وقد وردت أسماءُ بعضِهم في هذا النصّ. استمرّت مدّةُ البحث هذه أربعَ سنوات من السادسَةَ عشْرةَ حتّى العشرين من عمره حين قرّر، مع رفيقيه جبرائيل حوّا ويوسف البتن، المجيءَ إلى لبنانَ للترهّب.

ثانياً: بالرّغم من وجود بعض الرهبانيّات الغربيّة الكثيف في مدينة حلب كالكرمليين والكبوشيين واليسوعيين لا يَعتبرُ كاتبُ سيرة عبدالله قرعلي، وربّما قرعلي ذاتُه، أنَّ هناك رهباناً وأديرةً في حلب «لأن في مدينة حلب وبرّها لم يكنْ ديارة للرهبان». هل يعني ذلك أنّه لا يوجدُ «ديارة للرهبان» الموارنة فقط، أم إنّه لم تكنْ توجدُ أديارٌ للرهبان في المطلق؟ أعتقدُ أنّ الجوابَ هو أنّه لم تكنْ توجدُ أديارٌ للرهبان الموارنة فقط. ولكنْ هذا يعني بوضوح أنّ عبدالله قرعلي ورفيقيه كانوا يميّزون بعلم ومعرفة بين الرهبان الغربيين في حلب والرهبان الموارنة الذين لم يتعرّفوا عليهم مباشرة، بل من خلال كتبِ مشاهيرِ الرّهبانِ الشرقيين. خيارُ عبدالله قرعلي إذاً كان صريحاً ومدروساً، إذ قرّر منذ البداية أن يعتنقَ الطريقةَ الرهبانيّةَ المارونيّة في جبلِ لبنان التي هي، في نظره، استمرارٌ للطريقة الرهبانيّة التي سلكها أكابرُ الرهبانُ الشرقيين مثل أنطونيوس ومكاريوس وأرسانيوس ويوحنّا كليمكوس وغيرِهم ممّن خُلّد ذكرُهم في كتاب «بستان الرهبان». لا لُبسَ إذاً ولا شكّ في مصادرِ روحانيّةِ عبدالله قرعلي. إنّه يريدُ أن يعتنقَ الحياةَ الرهبانيّةَ الشرقيّة حسبَ التراثِ المارونيّ، ولم يفكّرْ هنيهةً في اتّباع الحياةِ الرهبانيّة كما عرفها عند الغربيين في حلب. ولكنّ ذلك لا يعني أنّه لم يتأثّرْ بهؤلاء الرّهبان لأنّه سيتبنّى مع رفيقيه تنظيمَهم الرهبانيّ، مع الاحتفاظِ بروحانيّةِ الحياة الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة. لم يقصدوا ذلك منذ البداية، لأنّني أعتقدُ أنّهم أتَوا إلى لبنانَ للترهّب وحسب، ولم يكنْ في نيّتهم تجديدُ الحياةِ الرهبانيّة، ولكنّ حالةَ التقهقرِ والانحطاط التي لمسوها في الأديار المارونيّة دفعتهم إلى عملهم التجديديّ. إليكم كيف يصفُ عبدالله قرعلي الحياةَ الرهبانيّة كما وجدها في دير طاميش حيث أرسله البطريرك الدويهيّ مع رفيقه يوسف البتن ليترهّبا فيه:

«ومكثنا في دير طاميش باقي الصيف (سنة ١٦٩٤) نحو ثلاثة أشهر، وكان فيه تسعة رهبان والمطران جبرائيل البلوزاني مطران حلب، وكثرة من الراهبات يسكنّ ناحية عن الرهبان. وكان ترتيبهم كباقي رهبان البلاد، لا ينذروا النذر الرهبانيّ، إنّما يلبسون زيّ الرهبنة في أيّ يوم اتفق كنحو رأي المتقدّم في الدير مع صلاة قليلة يصلّيها عليهم الذي يلبسهم الإسكيم. وعلى الغالب كانت المطارنة تلبس الإسكيم للرهبان لا رؤساء الرهبان. وكان التزامهم بنذورات الرهبنة شكل تسليم ومفهوم العقل فقط من دون إقرار البتّة. والرئيس الذي يرأسهم في غياب المطران، لم يكن اسمه عندهم رئيس، بل يدعوه باسمه. وهكذا رؤساء كل الديارة لم يكونوا يدعونهم إلاّ باسمهم: قَسّ فلان، وكلمة «أبونا الريّس» ما كان لها وجود في بني مارون أصلاً. ولم يكن أيضاً عندهم حدود لتجربة المبتدئين ولا حركات سجدات الرهبان للرؤساء وقوانين التأديب الرهباني البتّة، بل كانوا سائرين بسذاجة وبساطة صالحة للصالحين وخطرة لغير الصالحين»[١٢].

يتبيّنُ من هذا الكلام أنّ عبدالله قرعلي جاء إلى لبنان وقد كوّن له صورةً عن الحياة الرهبانيّة من خلال الكتب التي كان يقرأها، ولكنه صُدِمَ عندما لم يَرَ هذه الصورةَ محقّقةً في أديار الموارنة. من الصعب رسمُ ملامحِ هذه الصورة لأنّ كلامَه يحملُ بعضَ السلبيّات المتعلّقة بالتّنظيم الرهبانيّ، ولم يتطرّقْ إلى مجمل الروحانيّة الرهبانيّة، ولكنّنا نفهمُ من كلامه أنّ التشويشَ في التنظيم الرهبانيّ يحدث تشويشاً في مجمل الحياة الرهبانيّة. مواطنُ هذا التشويش هي أربعةٌ في نظر قرعلي: عدم إبراز النذور بإقرار علنيّ، عدم وجود رئيس رهبانيّ، عدم تحديد مدّة الابتداء، وجود دير الراهبات إلى جانب دير الرهبان. سأعالج سريعاً النقطةَ الأولى والثانية.

أوّلاً: النذور الرهبانيّة التي لم يجدْها عند الرهبان الموارنة الذين كانوا يعبّرون عن التزامهم بالحياة الرهبانيّة بواسطة لبس الإسكيم أو الزيّ الرهبانيّ. هنا يَبرزُ التأثيرُ الغربيّ على صورة الحياة الرهبانيّة التي كان يحملُها معه عبدالله قرعلي من مخالطته الرهبانَ الغربيين في حلب. فالكتبُ التي كان يقرأها لا تتكلّمُ عن الالتزام الرهبانيّ

١٢- المرجع نفسه، «مذكّرات الأب عبدالله قرعلي»، ص ٢٧.

بواسطة النذور العلانيّة، بل تتكلّمُ عن التزامٍ رهبانيّ يشملُ كلَّ الممارسات والفضائل الرهبانيّة التي توحّدُ الراهبَ بالله في المحبّة الكاملة. أولى هذه الممارسات هي التوبةُ التي تجعلُه يكتشفُ ذاتَه بعيداً عن الله. فالرّاهبُ هو التّائبُ والنّائحُ على خطاياه، والعاملُ على استئصال جذور الخطيئة من ذاته بغيةَ إرجاعِها إلى صورة الله. عندئذٍ يمكنُه أن يحقّقَ اتّحادَه بالله الذي يملأ وجودَه. إنّها عمليّةٌ دقيقةٌ وصعبة يلزمُها الشجاعةُ والصبرُ والمثابرة في الممارسات الرهبانيّة التي هي الصّومُ والسّهرُ وسائرُ أعمالِ النّسك. يرافقُ كلَّ ذلك صلاةٌ هي هذيذٌ بكلمة الله، وتأمّلٌ بأعمالِ الله التدبيريّة الخلاصيّة إلى أن تصلَ إلى الاتّحاد بالله الثالوث القدّوس في المحبّة الكاملة. كان قرعلي يعرفُ كلَّ ذلك، وقد توسّع في شرحه في كتابه «المصباح الرهبانيّ في شرح القانون اللبنانيّ»[١٣] وما إصرارُه على إبرازٍ علنيّ للنذور الرهبانيّة إلاّ تأثيرُ الرهبانِ الغربيين عليه. ولكنّ هذه مسألةٌ شكليّة لا تؤثّرُ على جوهر الحياةِ الرهبانيّة.

ثانياً: الرئيس الرهبانيّ الذي لا وجودَ له في دير طاميش وبعض الأديار المارونيّة بحكم وجود المطران على رأس الدير. وقد رأينا سابقاً أنّ هذه العادةَ كانت جاريةً في بعض الأديار المارونيّة الشهيرة في وادي قاديشا. ولكنّ الأساقفةَ كانوا من بين الرهبان الذي تميّزوا بالفضائلِ الرهبانيّة، يتابعون إلتزامَهم الرهبانيّ مع خدمتهم الأسقفيّة. وقد تبدّلتِ الحالُ الآن بعد قرن من تأسيسِ المدرسةِ المارونيّةِ في روما، وكثر عددُ الكهنةِ المتعلّمين والمتبتّلين في الكنيسة، واستلموا زمامَ الحكم فيها. لم يكنْ هؤلاء رهباناً ملتزمين بتطوير الحياة الرهبانيّة وترقيتها عند الأفراد والجماعة، كما هي الحالُ بالنّسبة للرئيس الرهبانيّ الملتزم الذي يقومُ بدورٍ هامّ في إنعاش الحياة الرهبانيّة. كان عبدالله قرعلي يعلمُ أنّ الرئيسَ في الدير هو الأبُ الروحانيّ الذي يدرّبُ الرهبانَ على التدرّج في الفضائلِ الرهبانيّة، وأنّ تغييبَه وإقامة الأسقف غيرِ الرّاهب مكانَه هو عاملٌ أساسيّ في تضعضع الحياة الرهبانيّة وانحطاطها. لهذا قرّر مع رفاقه تغييرَ هذا الوضع، وإرجاعَ الرئاسة الرهبانيّة الأصيلة إلى الدير، وإقامةَ رئاسةٍ رهبانيّة عامّة ترعى الأديارَ وتعملُ على ازدهار الحياة الرهبانيّة في الأفراد والجماعات. كان ذلك تجديداً جذريّاً في الحياة الرهبانيّة المارونيّة. وقد واجه

١٣– نشره وقدّم له الأب جرجس موراني الحلبيّ اللبنانيّ، ١٩٥٧.

معارضةً قويّة وعنيفة أحياناً من قبل الأساقفة والبطاركة. يقول عبدالله قرعلي في مذكّراته: «وفي هذه السنة (١٦٩٧) تمّ جمعُ القانونِ اثنين وعشرين باباً، وتحرّر في مرسوم العوائد أنّ الرؤساءَ جميعَهم تستقيم ثلاثة سنين وتعقد المجمع العام لتغيير الرئيس العام أو تثبيته. أمّا الرؤساء الصغار، فعزلُهم وتثبيتهم يكون في يد المدبّرين، وكانوا يُسَمُّون الموآزرين، وفيما بعد استحسنّا اسمهم مدبّرين. وهؤلاء المدبّرين عددهم أربعة يختارهم المجمع العام ويثبّتهم مثل الرئيس العام، وهم يَعزلون ويُثبّتون الرؤساءَ الصغار ويشتركون مع الرئيس العام في تدبير الرهبنة العموميَ والأمور المهمّة. وتحرّر أيضاً أنّ المجمع العام يكون في اليوم العاشر من تشرين الثاني، مذكّرة لأوّل يوم الرهبنة»[١٤]. لم تعرفِ الكنيسةُ المارونيّة هذا التنظيمَ الجديد للحياة الرهبانية، ولكنّه أصبح ضروريّاً بعد التطوّر الذي دخل على بنيتها ذاتِ الطابع الرهبانيّ، وبعد أن أصبح الأساقفةُ غيرُ الرهبان، يترأسّون على الأديار. إنّه تنظيمٌ غربيّ سارت عليه الرهبانيّات الغربيّة في القرون الوسطى مثل الرهبنة الفرنسيسكانيّة والرهبنة الدومينيكانيّة، وأضحى ذا طابعٍ مركزيّ صارم مع الجمعيّة اليسوعيّة وغيرِها من الجمعيّات الرهبانيّة الرسوليّة في عهد النهضة الأوروبيّة. لم يكنْ من السّهل قبولُ هذا التنظيمِ الجديد لأنّه يخلقُ رهبانيّةً ذاتَ استقلالٍ داخليّ بالنّسبة للبطريرك، لا سيّما بالنّسبة للأساقفة.

عندما عُرِضَ هذا القانونُ الجديد على البطريرك الدويهيّ في سنة ١٦٩٩، فقد تردّد في تثبيته. يتّضحُ هذا التردّدُ من خلال إضافة الجملة التالية على صورة التثبيت: «إنّنا لا نبرّي أولادَنا الرهبان من قوانين مار أنطونيوس والتي لم يقبلْ بها الرهبانُ الجدد فأبطل التثبيت»[١٥]. ثمّ حاولوا أكثَر من مرّة طلبَ التثبيت فباؤوا بالفشل، إلى أن قرّر عبدالله قرعلي اختصارَ القانون من اثنين وعشرين باباً إلى خمسةَ عشَرَ التي حذف منها بعضَ البنود[١٦]. عندئذٍ أثبت البطريرك القانونَ الجديد في ١٩ حزيران سنة ١٧٠٠. لم يبقَ لنا، مع الأسف، نسخةٌ من المشروع الأوّل الذي تحفّظ عليه البطريرك وبعضُ

١٤- راجع «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، ص ٣١-٣٢.

١٥- المرجع نفسه، ص ٣٤.

١٦- «ويوماً ما أخذت القانون بيدي وميّزته واختصرته وجعلته خمسة عشر باباً وطرحت من الحمسة عشر جملة فرائض... وكان قصدي بذلك قطع علل المطرانين اللذين كانا يضادونا...» المرجع نفسه، ص ٤٠.

المطارين لنعرفَ ما هي الأبوابُ السبعة الكاملة، وما هي الفقراتُ من باقي الأبواب التي حذفها قرعلي ليصبحَ القانونُ مقبولاً من السيّد البطريرك ومن المطرانين اللذين كانا مضادّين لتثبيته. أعتقد أنّ هذه الأبوابَ والفقراتِ كانت تتكلّمُ عن التنظيم المركزيّ للرهبانيّة، أي عن الرئيس العام والمدبّرين والمجمع العام وقبول المبتدئين. لهذا أتى القانونُ المثبّت، وكأنّه قانونٌ لديرٍ واحد بالرّغم من أنّ الممارسةَ تدلّ، منذ البداية، على تنظيمٍ مركزيّ هرميّ يَفترضُ وجودَ أكثر من دير. وظلّ القانونُ على هذه الحالة حتّى سنة ١٧٣٢، حين أُدخِلَ عليه التنظيمُ المركزيّ الهرميّ، وأثبته الحبرُ الأعظم البابا إكليمنضوس الثاني عشر. ولكنّ الفترةَ الممتدّة من سنة ١٧٠٠ حتّى سنة ١٧٣٢ كانت حافلةً بالنّزاعات بين البطريرك، لا سيّما يعقوب عوّاد (١٧٠٥-١٧٣٣) وبين الرهبانيّة الناشئة بالرّغم من أنّ البطريرك يعقوب كان من مؤيّدي تثبيتِ القانون المؤلّف من خمسةَ عشرَ باباً على يد البطريرك الدويهي[١٧]. ولكنْ عندما ابتدأتِ الرهبانيّةُ الناشئة تمتدُّ في لبنان، ابتدأً من سنة ١٧٠٦ وتؤسّس الدير تلو الآخر، شعر البطريرك يعقوب عوّاد وبعضُ المطارنة بتهديد النّظام الرهبانيّ المركزيّ الجديد لسلطتهم المألوفة على الرهبان الموارنة، فكانت احتكاكاتٌ مؤلمة ومؤسفة لم تنتهِ إلاّ باعتراف المجمع اللبنانيّ المنعقد سنة ت١٧٣٦ بهذا النظام الجديد.

روحانيّة هذا التجديد من خلال كتاب «المصباح الرهبانيّ في شرع القانون اللبنانيّ»[١٨]

ترك لنا عبدالله قرعلي، مجدّدُ الحياة الرهبانيّة، شرحاً وافياً للقانون الذي جمعه مع رفاقه في بداية حياتهم وأثبته البطريرك الدويهيّ في خمسةَ عشَر باباً، ثمّ أضافوا إليها ثلاثةَ أبواب أثبتها البطريرك يعقوب عوّاد سنة ١٧٢٥، أتى هذا الشرح، في مرحلة أولى، بمثابة محاضرات تثقيفيّة روحانيّة كان يلقيها الأب عبدالله قرعلي على رهبانه خلال مدّة رئاسته التي دامت أكثرَ من ستَّ عشْرةَ سنةً، ولكنّه جمعها ونسّقها في كتاب واحد أسماه «المصباح الرهبانيّ في شرع القانون اللبنانيّ بعد أن أصبح أسقفاً. كتب القسّ العالم جبرائيل فرحات الذي خلف المطران عبدالله قرعلي في رئاسة الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة من سنة ١٧١٦ حتّى سنة ١٧٢٢ وقد أصبح مطراناً على

١٧- المرجع نفسه، ص ٣٩.

١٨- قدّم له ونشره عن نسخة من يد المؤلّف الأب جرجس موراني الحلبيّ اللبنانيّ سنة ١٩٥٧.

حلب تحت إسم جرمانوس فرحات من ١٧٢٥ حتّى ١٧٣٢ ما يلي: «في سنة ١٧٢١ أتّم المطران عبدالله قرعلي تفسيرَه لقانون الرهبان اللبنانيّين، فكان تفسيراً مفيداً جداً ومملوءاً حكمةً وسَداداً» ثمّ يورد مقدّمة الكتاب حرفيّاً[١٩].

جاء هذا الكتابُ خلاصةً جامعةً فريدةً للروحانيّة الرهبانيّة الشرقيّة كما مارسها الرهبانُ الموارنة عبر أجيالهم. إنّه يجمعُ في صفحاته كلَّ مصادرِ هذه الروحانيّة، إذ أتى شرحاً لأبواب القانون وفقراته إنطلاقاً من كتابات الآباء الشرقيين المشهورين ومن أقوالهم المحفوظة في كتاب «بستان الرهبان»[٢٠]. يقول المطران عبدالله قرعلي في فاتحة كتابه: «وما قصدي بهذا الشرح خاصّةً إلاّ المطابقةُ ما بين فرائضِ القانون وما رسمه الآباء المتقدّمون، حتّى يكونَ أساسُ الكتاب موطّداً على الصواب» وقد حقّق قصدَه هذا بأمانةٍ كلّية، بحيث لا تخلو صفحةٌ واحدة من استشهادٍ أو أكثرَ من كتب الآباء وأقوالهم. فإذا أخذنا الفصلَ الثاني في «العفّة» مثلاً (ص ٤٨ – ٨٢) نراه يستشهد ٢٠ مرّة بكتاب «سلّم الفضائل» للقدّيس يوحنّا السلمي (منتصف القرن السابع)، ١٢ مرّة بكتاب «بستان الرهبان»، ٧ مرات بكتابات القدّيس باسيليوس (+٣٧٩)، ثلاث مرات بكتابات كلٌّ من القديس إفرام (+٣٧٣) والقديس اسحاق السريانيّ (أوائل القرن الثامن) وكسيانوس (أوائل القرن الخامس) ومرّة واحدة بأوغريس (٣٩٩) والشيخ الروحانيّ أو يوحنّا الدلياتي (القرن الثامن) وقوانين مار انطونيوس وغريغوريوس الكبير (القرن الخامس). كما ولا يجهل أخبارَ بعض القدّيسين الغربيين إذ يوردُ ثلاثةَ أخبار عن بعض القدّيسين اليسوعيين وخبراً عن القدّيس برنردوس. وهناك أيضاً استشهاداتٌ عديدة تبدأ بـ «يقول الآباء» أو «يقول أحد الآباء». نصلُ هكذا إلى أكثر من ٦٠ استشهاداً ضمن ثلاثين صفحةً. ويسير على هذا المنهج في الفصول السبعة عشر الباقية. وإذا قمنا بعمليّة مسح لكلّ الكتب التي يستشهدُ بها، فإنّنا نصلُ بسهولة إلى مكتبة تحوي نحو عشرين كتاباً مختاراً من مشاهير آباء الحياة الرهبانية. هذا يدلّ على ثقافة روحانيّة رهبانيّة عالية كان

١٩– راجع «تاريخ تأسيس الرهبانيّة اللبنانيّة» للمطران جرمانوس فرحات في «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، ص ١٥٣.

٢٠– لهذا الكتاب أهميّة قصوى في روحانيّة الرهبان الشرقيين والموارنة، لهذا اهتمّ الأب جبرائيل فرحات بتنسيقه وتصحيح عبارته في سنة ١٦٩٦، راجع مخطوط نمره... من مخطوطات دير اللويزة.

يتمتّعُ بها الأب عبدالله قرعلي ورفاقُه الأوّلون مثل الأب يوسف البتن والأب جبرائيل فرحات روّاد التجديد الرهبانيّ في الكنيسة المارونيّة.

إذا تفحّصنا فحوى هذا الكتاب فإنّنا نجدُ أيضاً «المطابقة» ذاتَها بينه وبين منهجيّة الحياة الروحانيّة كما مارسها مشاهيرُ الرهبان السريان والموارنة. يقسّم قرعلي الحياةَ الروحانيّة، على مستوى ممارسة الفضائل الرهبانيّة الأساسيّة، إلى ثلاث درجات: في الدرجة الأولى يمارسُ الراهبُ هذه الفضائلَ «بتعب كثير»، وفي الدرجة الثانية «بتعب قليل»، وفي الدرجة الثالثة «بغير تعب». يأتي التعبُ الكثير في الدرجة الأولى من الأهواء المسيطرة على الراهب في بدء حياته الرهبانيّة. فعليه أن يقاتلَها بكدّ وتعب كثير، وعليه أن يُغصبَ ذاتَه في ممارسة الفضائلِ الرهبانيّة. وعلى قَدْرِ ما يتقدّمُ الراهبُ في قمع أهوائه وفي السيطرة عليها، على قَدْرِ ذلك يَخِفُّ تعبُه في ممارسة الفضائلِ الرهبانيّة إلى أن يصلَ إلى استئصالها، فيتمتّعُ حينئذٍ بالسّلام والطمأنينة الداخليّة، فتصبحُ ممارستُه للفضائلِ الرهبانيّة سهلةً وبدون تعب. فالحياةُ الرهبانيّة، حسب قرعلي، هي حياةٌ نسكيّة مركّزة على محاربة الميول الشرّيرة التي تفسدُ الطبيعةَ البشريّة، وتبعدُها عن الله. فعندما ينجحُ الرّاهبُ في استئصال هذه الميول، يُرجعُ طبيعتَه على صورة الله، فيلتقي بالله في عمق ذاته بسلام وطمأنينة.

لا أعرفُ، شخصيّاً، أحداً من آباء الروح المشهورين، إنْ في الشّرق وإنْ في الغرب، قد قسّم الحياةَ الروحانيّة بهذه الطريقة. كثيرون منهم ميّزوا فيها ثلاث درجات. ولكنْ لا أعرفُ أحداً ميّزها، بطريقة منتظمة وثابتة، حسب التعب والغصب الذي يمارسه الراهبُ على ذاته في تدرّجه نحو الله.

لنأخذْ مثلاً على ذلك «الصلاة» في الباب الثالث عشر[٢١]. يحدّدُ قرعلي الصلاةَ بأنّها «اقتران العقل باللّه تعبّداً». نلاحظُ في هذا التحديد أنّ قرعلي يضعُ الصلاةَ على مستوى العقل، الذي فيه تتجمّعُ كلُّ قوى الإنسان النفسانيّة والجسديّة، وليس على مستوى العاطفة والحالة النفسيّة الخاصّة. يتّفقُ في ذلك مع مشاهيرِ الآباء الروحانيين في الشرق. ثمّ يقسّم الصلاةَ إلى درجات ثلاث: جمع العقل مع الله تعالى بتعب كثير، جمع العقل مع الله بتعب قليل، جمع العقل مع الله من غير تعب البتة.

٢١- راجع طبعة الأب جرجس موراني، ص ٢٧٤-٢٨٨.

يتعب المصلّي في الدرجة الأولى «لأنّ الافكار الغريبة تعرض على عقله بتواتر، فيطردُها ويحصل له، من قبل طردها المتواتر، التعب الكثير». فالصلاةُ الحقيقيّة هي الصلاةُ المستمرّةُ الاتّصال بالله، وإذا «انقطعت بالتنازل مع الأفكار الغريبة ثمّ اتّصلت فذلك عيبٌ كبير لها ونقصٌ فاضح... هذا عيبٌ واضح في مخاطبة الله»[٢٢]. ويستشهد بالقدّيس نيلوس، أحدِ كبار النسّاك الشرقيين في أوائل القرن الخامس: «إذا قمتَ تصلّي فلا تسمحْ أن يدخلَ قلبَك فكرٌ يمينيّ (صالح) أو شمال (رديء) سوى الطلبِ من الله والنّظر إليه والإشراق المتكوّن من السماء والانشغال بعمل الصلاة العظيم نفقعه»[٢٣]. ثمّ ينهي كلامَه في الدرجة الأولى قائلاً: «إنّ طردَ الأفكار في الصلاة هو صلاة، أي مفيد ومقبول قدّام الله. وجملةُ الكلام أنّ ابتداء الصلاة هو جمعُ العقلِ مع الله بتعب كثير»[٢٤]. وإذا تساءلنا لماذا تهاجمُ الأفكارُ الغريبةُ الرّاهبَ فلأنّه لا يزالُ منشغلاً بأمور كثيرة غيرِ الله تثيرُها فيه هذه الأفكارُ، لأنّه لا يزالُ متحرّكاً بالميل إليها. لهذا فإنّ الراهبَ يتقدّمُ في الصلاة على قَدْرِ ما يزيلُ من عقله هذه الميول.

في الدّرجة الثانية، تتميّزُ الصلاةُ بقلّةِ التعب في جمع العقل مع الله. ويأتي ذلك من «قتال الآلام وتهذيب كلّ عمل». يخاطب قرعلي الراهبَ القائمَ في هذه الدرجة قائلاً: «إنّ الصلاةَ مرآةُ الراهب وميزانُ نجاحه. أي بقَدْرِ نجاحِك في قهر آلامك، بقَدْرِ ذلك تكونُ راحتُك في صلاتك. فإنْ كنتَ تتعبُ كثيراً في محاربة أوجاعك، فتتعبُ كثيراً في جمع عقلك في الصلاة. ومتى صرتَ تقهرُ الآلامَ بسهولة، فبسهولة أيضاً تجمعُ عقلك في صلاتك... إنّ جمعَ عقلنا في الصلاة يكونُ على مشابهة سعينا في أوجاع نفسنا، على أنّ الصلاةَ هي مرآتُنا وميزاننا»[٢٥]. السّهولةُ إذاً في السيطرة على الميول المتولّدة عن تأثير الأشياء الخارجيّة هي مقياسُ السهولة في جمع العقل وقت الصلاة: «إنّ هذه الدرجةَ هي نجاحُ الأولى وثمرةُ تعبها وعلامةُ القرب من انعتاق الآلام».

أمّا الدرجةُ الثالثة فهي «الإنعتاق من الآلام» والأفكار الغريبة المتولّدة عنها. «هذه هي

٢٢- المرجع نفسه، ص ٢٧٥-١٧٦.

٢٣- المرجع نفسه، ص ٢٧٩.

٢٤- المرجع نفسه، ص ٢٨١.

٢٥- المرجع نفسه، ص ٢٨١-٢٨٢.

نعمة الصلاة وتمام ثمرة تعبها». يقول قرعلي مستشهداً بالقدّيس نيلوس: «كما أنّ اقترانَ النار بالحديد يجعلُ لمسَه حادّاً فيحصلُ لمسُه ممتنعاً، هكذا تجعلُ الصلاةُ المتواترةُ المتعبة (في الدرجتين الأولى والثانية) عقلَ الراهب يتوقّد لهيباً حادّاً فيحصلُ لمسُه ممتنعاً عند الشياطين»[٢٦]. لا شكّ أنّ النارَ هنا هي رمزٌ للّه، والحديدَ رمزٌ للعقل، بحيث يصبح الاتّحادُ كاملاً بين الله والإنسان. يتمتّعُ الإنسانُ في هذه الحالة بالسّلام الباطنيّ والطمأنينة. لقد اكتشف الراهبُ اللهَ في ذاته، فاشتعل حبّاً به. يقول قرعلي: «هذه هي الصلاةُ الحقيقيّة المتّصلة المتغرّبة من العالمين (أي عن جميع الخلق)، والتي تسمّيها الآباء اختطاف العقل بالله»[٢٧]. ولكنّ ذلك ليس «بيد المصلّي وإنّما هو فعل خصوصيّ للرّوح القدس وحده ويهبه لمن يشاء، ولأجل ذلك لا يقدر على الكلام فيه إلاّ من اختبره»[٢٨].

لا مجال هنا للمقارنة الدقيقة بين تعليم قرعلي في الصلاة بتعاليمهم الآباء الشرقيين، لا سيّما السريان منهم، بل أكتفي بالقول بأنّ القراءة المتمعّنةَ لأقوالِ قرعلي توحي تعاليمَه مع فارق الاختبار الشخصيّ الذي قام به قرعلي نفسُه في ترقّيه نحو الصلاة المستمرّة المتّصلة دائماً بالله. هاك ما كتبه عنه تلميذُه الأب توما اللبودي: «كنت أتحايل جهدي لأنظر عمله في الكنيسة في الليالي. فمن حيث انتصابُه في الصلاة، فكان يبانُ للنّاظر إليه كأنّه صنمٌ لا يتحرّك (الاختطاف بالله)، وقتاً كان منكبّاً على وجهه، وحيناً كان يرشّ الترابَ والرمادَ على رأسه (صلاة التوبة). فهذه الأشياءُ وأمثالُها كان يستعملُها بعد صلاة الليل في الكنيسة إلى الصبح. وما كان مطّلع على الأفعال إلاّ القسّ يوسف البتن (+١٧١٤) وأنا بواسطته»[٢٩].

٢٦- المرجع نفسه، ص ٢٨٣.

٢٧- المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

٢٨- المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

٢٩- راجع «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، «سيرة الحبر الطيّب الذكر عبدالله قرعلي المارونيّ الحلبي» كتبها تلميذه وخلفه في الرئاسة العامّة الأب توما اللبّودي. ص ٨٣.

خلاصة

نستنتجُ ممّا قلناه في هذه العجالة أنّ عبدالله قرعلي قام بعمليّة تجديد للحياة الرهبانيّة، متّبعاً منهجَ التجديد في الكنيسة المارونيّة الذي سار عليه البطريرك الدويهيّ الكبير. أخذ عن الغرب الكاثوليكيّ الأطرَ التنظيميّة، ولكنّه استقى الروحانيّةَ من الآباء الشرقيين الكبار. لقد أثمر عملُه فأعطى رهباناً قدّيسين كثراً على مثال شربل والحرديني. ولكنْ، عندما تجفّ الروحانيّةُ الحقيقيّة التي أراد أن يبعثَها يبقى فقط التنظيمُ الخارجيّ مع كلّ سيّئاته. فمن لنا بقرعلي جديد يزيل هذه السيّئاتِ بعمليّةٍ تجديديّة تُرجِعُ إلى الحياة الرهبانيّة المارونيّة رونقَها الأصيل.

القسم الثّالث

الجلسة الثالثة

الموضوع **البعد الثّقافيّ والتّربويّ: من المؤسِّس إلى اليوم.. وغداً**

الرّئيس **المطران يوسف بشاره**

المحاضرون

الأب كميل زيدان

الأستاذ عبّاس بلّوط

الدكتور رفيق عيدو

الأب سمير خليل

كلمة المطران يوسف بشارة

الرهبانيّات رسالة للمستقبل
البعد الثقافيّ والتربويّ من المؤسّس إلى اليوم... وغداً

مقدّمة

في إطار اليوبيل المئويّ الثالث، من الطبيعيّ أن تتوثّبَ الرهبانيّاتُ إلى المستقبل إنطلاقاً من ثوابتَ ميّزتها وطبعتها بطابع خاص، فأصبحت ملازمةً لهويّتها.

والنّظرُ إلى المستقبل يأخذُ أيضاً بعين الاعتبار التطوّراتِ والمتغيّراتِ داخل الرهبانيّةِ وخارجَها التي طرأت ورافقتها منذ تأسيسها، في كلّ المجالات، ولا سيّما في المجال الثقافيّ والتربويّ.

وليس عليَّ، كرئيسٍ لهذه الجلسة، أن أخوضَ في مختلفِ جوانبِ هذا الموضوع الذي سيتطرّق إليه بإسهاب حضرةُ المحاضرين الكرام؛ لكنّي أشيرُ إلى بعض نواحيه وتحدّياته.

أ- تلازم البعد الثقافيّ التربويّ منذ التأسيس

فمنذ تأسّستِ الرهبانيّاتُ كان هناك تلازمٌ بين البعدين الثقافيّ والتربويّ، المتميّزين موضوعاً وأساليبَ وأهدافاً. غير أنّ ما يلفِتُ الإنتباهَ هو النّزعةُ التي تَميّز بها بعضُ المؤسّسين، ودفعتهم إلى تجديدٍ رهبانيّ يرتكزُ على العلم والثّقافة، على غرار ما كان يجري في بعض الرهبانيّات الغربيّة. وهذا ما انعكس على الحياة الرهبانيّة المتجدّدة؛ فأخذ الرهبانُ ينصرفون إلى العلم حسبما كان متوفّراً في جبل لبنان، وجدّوا في طلبه بعيداً فسافروا إلى روما وأسّسوا فيها الأديارَ ليتسنّى لهم فيها نيلُه بوفرة وعن كثب، بعد أن كان قد سبقهم إليها بعضُ طلاّب الكهنوت الذين كانوا يتعلّمون في المدرسة المارونيّة في روما التي تأسّست سنة ١٥٨٤.

ولم يشأ الرهبانُ أن ينعموا وحدَهم بما توفّر لهم من العلم فجعلوا الأديار، إلى كونها

واحاتٍ للصلاة والعمل، مناراتٍ تربويّةً وثقافيّة، فانصرف الرهبانُ المتعلّمون إلى تلقين الأولاد مبادىءَ القراءةِ والكتابة إلى جانب مبادىءِ الإيمان، وعمدوا إلى تأسيس بعض المدارس في الأديار وطوّروها حتّى غدت لها أهميّتُها ومكانتها، فانتقلت من مدرسة تحت السنديانة إلى مدرسة كبرى لها برامجُها الحديثةُ والمتنوّعة ومن ثمَّ إلى كليّات فجامعات. ولم يكنْ من باب المجاملة أن يُدعى الراهبُ بـ «يا معلّمي»، لأنّ التعليم، في كلّ مجال، كان من اهتماماته.

وبما أنّ الرهبانَ أدركوا أهميّةَ العلم ووسائلَ تطويره واطّلعوا عليها، كانوا أوّلَ من استقدم مطبعةً من أوروبا سنة ١٦١٠ وهي مطبعةُ دير قزحيا، فطبعت الكتبَ لا سيّما الطقسيّةَ منها وعمّموها في الرعايا، وكثيرون هم الأولادُ الذين تدرّجوا في القراءة من خلال كتب الصلاة التي كانوا يوزّعونها، ولا سيّما كتاب المزامير ورسائل مار بولس.

وإذا كان البعدُ التربويّ تجلّى في ما قاموا به في مجال العلم وتأسيس المدارس وتطويرها حتّى الجامعات، فالبعدُ الثقافيُّ كان ملازماً أيضاً لحياتهم كلّها. إنّ تأسيسَ الأديارِ وانتشارَها في كلّ المناطق اللبنانيّة، وانصرافَ الرهبان إلى الاهتمام بالأرض وحراثتِها وزراعتها وتطويرها ورفعِ مستوى حياة المزارع وتطويرِ الحياةِ الحرفيّة إلى جانب العبادة والصلاة والاهتمام بشؤون الإنسان الاجتماعيّة والروحيّة والعمل في سبيل ترقّيه، ألَم يكنْ كلُّ ذلك مجالاً ثقافيّاً واسعاً عبّر فيه الإنسانُ عن قيمه ومشاعره ونزعاته، فطوّرها نحو الأفضل والأسمى؟ إنّ الأديارَ ومكتباتِها التي عمل فيها الكتّابُ والنسّاخ على مدى أجيالٍ وأجيال ليحافظوا على التّراث الدينيّ والأدبيّ بكلّ تشعّباته ويحفظوه من الاندثار وينقلوه سليماً إلى المستقبل، ألم تكنْ عملاً ثقافيّاً مميّزاً؟

ب- تحدّيات

حتّى لا يكونَ الاحتفالُ باليوبيل تغنيّاً بالماضي وما حمله من مآثرَ وذكرياتٍ جميلة، لا بدَّ من انطلاقةٍ جديدة فتكونُ الرهبانيّاتُ رسالةً للمستقبل.

وفي البعد الثقافيّ التربويّ الذي نحن بصدده، تواجه الرهبانيّاتُ تحدّياتٍ كثيرةً لا بدّ من مواجهتها بروحٍ علميّة موضوعيّةٍ وقناعاتٍ راسخة تصبُّ في مصلحة الوطن دون أن تتنكّرَ للثّوابت الرهبانيّة الإيمانيّة والكنسيّة. من هذه التحدّيات:

١- لم تعدِ المدارسُ والجامعات حكراً على الرهبانيّات. إنّها تتكاثرُ بسرعة، وأحياناً على حساب النوعيّة. فإذا كان الراهبُ هو طالبُ كمالٍ في حياته، فلا بدّ من أن ينعكسَ ذلك في عمله التربويّ والثقافيّ، كي يبقى له دورُه الذي لا ينازعُه فيه أحد. وإلاّ صار مبتذلاً في عمله ورسالته. فنوعيّةُ التربيةِ والثقافة هي تحدٍّ من تحدّيات المستقبل.

٢- وبما أنّ التربيةَ أساسٌ في عمليّة بناء المواطن وتعميرِ الوحدة التي تصونُ الوطنَ، لا بدّ من خيارات جديدة، سواءٌ أكان في إعادة انتشار دور العلم والثقافة، أم في رسم سياسةٍ تربويّةٍ وطنيّةٍ جامعة تحصّنُ اللبنانيَّ ضدّ التيّاراتِ التي تعصفُ به، من الخارج أو من الداخل، فيصبحُ منيعاً على كلّ ما يقوّضُ كيانَه وإيمانَه بالله وبوطنه وبنفسه وبالآخرين. وهذا تحدٍّ آخرُ لا بدّ من مواجهته بوضوح وصلابة.

٣- يمتاز لبنان، على ما جاء في وثيقة السينودس، بأنّه ملتقى ثقافاتٍ وحضارات. وهذا يعني انفتاحَ أبنائه على الشّرق والغرب في آن. فإذا كان الانفتاحُ ينفي التقوقعَ، فعليه أن يقيَ من الذّوبانِ وفقدانِ الهويّة. نحن اليوم على مفترق هامّ في تاريخ العالم الثقافيّ: فالثّقافاتُ والحضارات في تسابق وتصارع، بدلاً من أن تكونَ في انسجام وتوافق، عدا عمّا تحمله، عبر وسائلِ الإعلام، ولا سيّما المرئيّة منها، من نماذجَ في التّفكير والمسلك، تبلبلُ المفاهيمَ وتبدّلُ القيمَ وتلغي التّراث. فأين نحن من كلّ هذه التطوّرات؟ أليس من دور لمدارسنا وجامعاتنا، ولا سيّما لتلك التي تديرُها الرهبانيّات، فتعودَ بنا إلى أصالتنا وتراثنا وبيئتنا، ليكونَ لنا منها النماذجُ والمقاييس التي عليها نعتمدُ كيلا نضيعَ في خضمّ هذه التطوّرات الجارفة؟

خاتمة

«الرهبانيّاتُ رسالةٌ للمستقبل» ليس شعاراً نرفعُه، بقدرِ ما هو التزامٌ بعهدٍ نقطعُه على نفوسنا لنكونَ في خدمة النّاس الذين نعملُ في سبيل ترقّيهم الثقافيّ والاجتماعيّ والوطنيّ والروحيّ، ونسيرَ وإيّاهم على درب ملكوت الله الذي آلينا على نفوسنا أن نجسّدَه في حياتنا وعملنا.

كلمة الأب كميل زيدان
رئيس تجمّع المدارس الكاثوليكيّة في لبنان

تحتفلُ الرهبانيّتان المارونيّتان المريميّة واللبنانيّة بيوبيلهما المئويّ الثالث (١٦٩٥-١٩٩٥) في إطار حدثين مهمّين: السينودس حول الحياة المكرّسة، والسينودس من أجل لبنان. وكلا الحدثين سعيٌ من الكنيسة ومؤسّساتها إلى التجدّد بروحٍ من أعطاها الروح، ودعوةٌ إلى جميع الأبناء... «للسّير معاً»، وللشّهادة للحبّ النابع من قلب الرّب.

وما اليوبيلُ في حياة التكرّس إلاّ يقظةٌ أعمقُ لمشيئة اللّه في حياة الفرد وتاريخ الجماعة.

ينظرون إلى الماضي فيستلهمون فعلَ النعمة فيه وبُعدَ الرؤية عند الآباء...

ويتأمّلون الحاضرَ محاولين كسرَ الظواهرِ لإدراك ما وَجَبَ تبنّيه كفعلٍ للرّوح، وما وَجَبَ الإبتعادُ عنه كثمرة للجسديّة.

ومن استلهامهم للماضي ومن تمييزهم الأرواحَ في الحاضر ينسجون جماعاتٍ لها ما يكفي من الإصغاء حتّى تمسي «جواب السماء على أسئلة الأرض».

ويتزامنُ اليوبيلُ مع تحدّياتٍ كبيرة تواجهُ التربيةَ في لبنان: في هويّتها، وفي حريّتها وفي النوعيّة والنّظرة إلى الإنسان.

والرهبنةُ، وقبل تأسيسها على الشّكل الحاليّ سنة ١٦٩٥، كانت قد وعت أنّ من صلب رسالتها وتكرّسها عملَ التربية ونشرَ الكلمة وإغناءَ الثقافة... فكانت مطبعةُ دير قزحيا سنة ١٦١٠ أولى المطابعِ في هذا الشّرق.

ولمّا تكاثرت ثمارُ المدرسة المارونيّة واتّسع مجالُ التّفاعلِ الحضاريّ، جاء المؤسّسون يُغنون وعيَ الرهبنة لرسالتها التربويّة الثقافيّة. وعملوا هم أيضاً في هذا المجال، فكان كتابُ عبداللّه قرألي في تعليم أُصول اللغة العربيّة مرجعَ تعليمِ هذه اللغة لزمنٍ ليس بيسير.

وفي سنة ١٧٣٦ جاء المجمعُ اللبنانيّ بدوره يطلبُ من الأديار إقامةَ المدارس للمساهمة

في العمل على تعميم التعليم وفرضِ إلزاميّتهِ «فيدوّنون أسماءَ الأحداث الذين هم أهلٌ لاقتباس العلم ويأمرون آباءهم بأن يسوقوهم إلى المدرسة ولو مكرهين» (المجمع اللبنانيّ ص. ٥٣٠). لم يتردّدِ المسؤولون في الرهبانيتين حول أحقيّة هذا المشروع الكبير، وبادروا إلى المساهمة في تحقيقه.

واليوم تتابعُ الرهبانيّتان الرسالةَ التربويّة الثقافيّة. ولهذه الغاية أنشأتِ الرهبانيّةُ المارونيّةُ المريميّةُ في لبنان خمسَ مدارس تضمُّ حوالى ستةِ آلاف تلميذ، إلى جانب جامعة سيّدة اللويزة التي تنظّمُ، مشكورةً، هذا المؤتمر. وأنشأتِ الرهبانيّةُ اللبنانيّةُ المارونيّة في لبنان تسعَ مدارسَ تضمُّ حوالى ستةِ آلاف تلميذٍ بالإضافة إلى جامعة الرّوح القدس – الكسليك. وللرهبانيّة اللبنانيّة أيضاً عددٌ من المدارس الناشطة في بلدان الإغتراب.

(والرهبانيّتان تمثّلان ٥,٤٥٪ من مجموع تلاميذِ المدارسِ الكاثوليكيّة في لبنان.)

وفي إطار المدارس الكاثوليكيّة تواجه مدارسُ الرهبانيّة تحدّياتٍ نوجزُها بثلاث: الوعيُ للهويّة، والنّضالُ من أجل الحريّة، والسّعيُ إلى الأفضل.

أوّلاً – الوعي للهويّة: مدرسةُ الرهبانيّة فعلُ تكريسٍ ينبعُ من النذور الثلاثة التي تجعلُ من الإنسان كائناً مُحرَّراً للخدمة، وعاملاً لإنماء ما هو خيرٌ وحقٌّ وكاملٌ.

ومدرسةُ الرهبانيّة حضورٌ كنسيّ، تسعى دوماً، وفي كلّ نظمِها وقراراتها، ليكونَ فيها وجهُ مخلّصِ الكلّ مشرقاً. وهي تعي كلَّ الوعي أنّ ذلك يَسهُلُ تحقيقَه بقدر ما تكونُ عاملةً على بناء الجماعة التربويّة، التي يبقى مثالُها حياةَ الجماعةِ الأولى، والتي قيل عنها: «أنظروا كيف يحبّون بعضُهم بعضاً».

ومحورُ عملِ مدرسة الرهبانيّة ومقياسُ نجاحِها هو الإنسانُ، كلُّ إنسان. تنظرُ إلى هذا الإنسان في إنسانيّته الكاملة، وتسعى إلى تحقيق هذا الكمالِ فيه. ولذلك لا تقبلُ أن تكونَ حصراً على الأغنياء وأصحابِ السّلطة والموهوبين... ولا تقبلُ أن تكونَ لفئةٍ دون أخرى... واقعُها وتاريخُها يشهدان على ذلك. ومستقبلُها سيشهدُ إن شاء اللّه... إنجيلُها يرفضُ الأصوليّةَ العمياءَ والتعصّب.

ولقد جاء في البيان الختاميّ للمؤتمر الدوليّ للمدارس الكاثوليكيّة الناطقة باللغة الفرنسيّة بمناسبة السّنة العالميّة للتربية على التّسامح: «المدرسة مكانٌ للتعايش لا بديلَ عنه، فيه يجدُ الشبّان والشابّات البوتقةَ الضروريّة لتنشئتهم على لقاء الآخر كمساوٍ لهم ومماثل، فيغدون رجالاً ونساءً عاملين لمستقبلٍ أكثرَ سلاماً وإخاءً».

ومدرسةُ الرهبانيّة تتجذّرُ في أرضها وفي بيئتها، وفي لغة المنطقة التي تعيش فيها، وفي حضارتها. ولذلك كانت سبّاقةً في تعليم اللغة العربيّة وتطويرها مع الإنفتاح على لغات الآخرين وحضاراتهم.

ومدرسةُ الرهبانيّة وطنيّةٌ. فلبنانُ بلدٌ نهائيٌ لها، تنشّىءُ تلاميذَها على حبّ الوطن واحترامِ دستورِه وقوانينِه، وعلى التضحية في سبيل الحفاظ على حريّته واستقلاله وقيمه، في عالمٍ قَصُرتْ فيه المسافاتُ وتكثّفَ الزمن.

ثانياً – النضال من أجل الحريّة: الكلام على الحريّة يبقى ملهاةً للسّامعين ما لم يقترنْ بالحقيقة. يقول قداسة البابا يوحنّا بلوس الثاني: «في عالم بلا حقيقة، لا تقومُ حريّة، ويُمسي الإنسانُ عرضةً لسطوِ الأهواء ورهناً لظروف ظاهرة أو خفيّة» (السنة المئة، عدد ٤٦).

والحريّةُ في التربية لا تعني فقط حريّةَ المدرسة. إنّها أوّلاً حريّةُ الوالدين في اختيار نوعيّة التربية التي يريدون لأولادهم، شرط ألاّ تتعارضَ هذه الحريّةُ مع المادّة العاشرة من الدستور. وحريّةُ المدرسة تقومُ على معطيات قانونيّة واقتصاديّة واجتماعيّة، إذا لم تتوافرْ لها لن تكونَ قادرةً على القيام برسالتها، وبالتّالي لن تكونَ حرّة.

ومن واجبات السّلطات العامّة رعايةُ هذه الحريّة، وتأمينُها للوالدين وللمدرسة، وتأمينُ حريّةِ تطوير المؤسّسات التربويّة.

ومدرسةُ الرهبانيّة تناضلُ من أجل البلوغ إلى هذه الحريّة.

وبما أنّ التربيةَ مسألةُ تحديدِ أولويّات فيجبُ أن يكونَ كلُّ قرارٍ، وكلُّ عملٍ ناتجٍ عنه، مهمّاً كان أم متواضعاً، في خدمةِ الهدف الأساس ألا وهو التلميذُ الذي نربّي. وقياساً

نقول: يجبُ أن تكونَ القوانينُ في خدمة التربية. والقوانينُ، ومشاريعُ القوانين لن تستقيمَ إلاّ إذا كانت مرتكزةً على المشاركة، وكان الحقُّ والخير مبتغاها، وكانتِ التربيةُ على الحريّة المسؤولة هدفَها.

ولكنْ، كيف الطريقُ إلى إقناع عدد من المسؤولين بأنّ المؤسّساتِ التربويّةَ الخاصّةَ تحملُ عبئاً باهظاً عن خزينة الدولة؟ فإذا رعتِ الدولةُ هذه المؤسّساتِ بحكمةٍ وعدالة، وساهمت جزئيّاً بأعباء التّعليم فيها، تكونُ قد عالجت فعلاً قضيّةَ التّعليم وحافظت على الحريّة المسؤولة والمبادرة الفرديّة الخلاّقة التي لا لبنانَ بدونها!

ثالثاً – مواكبة الأحداث والسّعي إلى الأفضل: قضايا ثلاث يجبُ أن تواجهَها التربيةُ بنظرةٍ جديدة، ووسائلَ على مستوى متطلّبات السّاعة:

١– **النظام الجديد لمنطقة الشرق الأوسط:** إنّ ما يحدثُ في هذه المنطقة سيبدّلُ المعطياتِ السياسيّةَ والإقتصاديّةَ والإجتماعيّة، وسيفرضُ علاقاتٍ جديدةً بين جميع القوى القائمة.

في هذا الإطار الجديد، باستطاعة لبنانَ أن يكونَ نموذجاً للتكيّف مع الديمقراطيّة المركّبة والنظامِ الاقتصاديّ الحرّ، لأنّه الدولةُ الأعرقُ في التّربية والتّعليم والممارسة الديمقراطيّة. وقد يعودُ له الاضطلاعُ بدور الجامعة والمستشفى والفندق والخدمات. هذا الأمرُ يتطلّبُ من القطاع التربويّ عندنا ديناميكيّةً ورؤيةً تجعلانه قادراً على إعداد الإنسان القادر على التكيّف مع هذا الواقع الجديد والقيامِ بمسؤوليّاته...

وهذا ما يجبُ أن يتنبّهَ له القيّمون على مشروعِ المناهجِ الجديدة... والقطاعُ الخاصّ مدعوٌّ لتحمّلِ العبءِ الأكبرِ نظراً للإمكانيّات المتوافرة لديه، ولما يتحلّى به من سهولةٍ في الحركة وسرعةٍ في القرار.

٢– **تفشّي الأصوليّات:** ليستِ الأصوليّاتُ حصراً على منطقة الشّرق الأوسط. ولا أظنُّ أنَّ منطقةً في العالم تخلو منها. إنّما في لبنان، وقد تعدّدت فيه المعتقداتُ وتمازجت، ونشأ على حدوده الكيانُ الأكثرُ أصوليّةً، خطرُ الأصوليّاتِ أكبرُ وأدهى. وعلى التربية أن تواجهَ هذا الواقع: تنشّيءُ على القيم وعلى الحوار وعلى المحبّة... وتسعى إلى بلورة الرؤية التي عبّر عنها البابا يوحنّا بولس الثاني بقوله: «إنّ لبنانَ

أكثرُ من بلد، إنّه رسالة».

التربية، اليومَ وغداً، مدعوّةٌ لإعطاء إجاباتٍ تربويّة أصيلة في المواجهة مع الأصوليّات.

إنّ التحدّيَ الكبير أمام المؤسّسات التربويّة، الخاصّة قبل الرسميّة، هو إخراجُ إنسانِ لبنان، وبالتّالي إنسانِ الشّرق الأوسط، من العداء للآخر ومن الخوف على المستقبل ومن الانغلاق على الذّات...

وفي هذا السياق، أعلنتْ أيضاً المدارسُ الكاثوليكيّة الناطقةُ باللّغة الفرنسيّة في نهاية مؤتمرها الدوليّ تقول: «... على المدرسة أن تربّيَ الأولادَ والأحداثَ على رفضِ التعصّب من الوقوع في الإستنسابيّة والنسبيّة... وأن تؤهّلَ تلاميذَها... فيدركوا أنّ العنفَ – ذلك الرفضَ المطلقَ لإنسانيّة الإنسان – لا يمكنُ أن يُقاومَ إلاّ بسلاح الحوار، وسلاحِ العدالة، وباحترامِ حقوق الإنسان».

دون الإنتقال من تلقّي المعلومات إلى سلوك طريق المعرفة، دون السّعي إلى تكوين العقل الناقد، دون الجهد لتبنّي الموضوعيّة أمام آراء الآخرين، ودون القبول بالآخر متمايزاً عنّا بلغته وحضارته ومعتقداته وبنظراته إلى الحياة والكون،... لن يبلغَ الإنسانُ حقيقةَ الحريّة، ولن نستطيعَ أن نواجهَ تفشّيَ الأصوليّات، ولن نبنيَ حضارةَ السّلام.

٣- **تكنولوجيا اليوم وعالم الألف الثالث:** إذا كانتِ البشريّةُ اليوم، وبفضلِ تطوّرِ التكنولوجيا، تستطيعُ أن تتحدّثَ عن قيامِ مجتمعٍ كونيّ يبدو العالمُ فيه «قرية كبيرة»، على حدّ تعبير العاملين في الأمم المتّحدة، فكيف ستكونُ الحالُ عند بلوغ أطفالِ الحضانة لهذه السّنة زمنَ تخريجِهم من الجامعة؟!...

إذا كان إنسانُ القرن العشرين قد فتح كوّةً في آفاق كوكبه الصغير، وانطلق يمشي على القمر، ويكتشفُ الكواكبَ الأخرى، ويُقيمُ محطّاتٍ فضائيّةً،... فما الذي ينتظرُ أطفالَ اليوم، وسنواتُ القرنِ الواحد والعشرين تنبسطُ أمامهم؟!... ليس مقبولاً أن نعالجَ القضايا التربويّة الكبرى، ونحن لا نرى سوى مشاكلِ السّاعة.

من واجب المدرسة اليوم أن توقظَ اللامحدودَ القاطنَ في أعماقِ أطفالنا... يجبُ عليها أن تبنيَ الإنسانَ القادر على الإستيعاب، وعلى الحركة وعلى الخلق... يجبُ على المدرسة اليوم أن تتجدّدَ وأن تلبسَ حلّةَ القطار السريع نحو المستقبل...

خاتمة

عندما أدخلتِ الرهبانيّةُ الطباعةَ إلى هذه المنطقة كانت قد لبست يومَه حلّةَ القطارِ السريع نحو المستقبل...

وعندما قرّر أحبارُ الكنيسة المارونيّة تعميمَ التعليم وإلزاميّتَه، كانوا قد لبسوا يومَها حلّةَ القطارِ السريع نحو المستقبل...

واليوم، في ظروف مختلفة، وأمام تحديّاتٍ من نوعٍ آخر، نحن مدعوّون لأخذ المبادرة.

أيّها السادة،

التربيةُ رسالةٌ واختصاص.

بالنّسبة إلى الإختصاص، فزمنُ الإرتجال قد ولّى، والمستقبلُ لمن كانت له الرؤيةُ، وعلميّةُ التخطيط، واستراتيجيّةُ التّنفيذ. الأفرادُ يتبدّلون، أمّا المؤسّساتُ فتبقى وتستمرّ... لكنّ استمراريّتَها رهنٌ بإعدادِ الأشخاص الكفوئين، وتخصّصهِم بعلم التربية، وبعلم الإدارة،...

أمّا بالنّسبة إلى الرسالة فمن أولى للقيام بها من الذين عرفوا كيف تُنبذُ اللذّةُ، ويُقهرُ حبُّ الإمتلاك، ويُمارسُ التواضع؟!

وشكراً

كلمة الأستاذ عبّاس بلّوط
مدير مكتب الجمعيّة العامليّة

مقدّمة

أتوجّه بالشّكر أوّلاً إلى صاحب الغبطة نيافةِ الكردينال مار نصرالله بطرس صفير راعي «المؤتمر المئويّ الثالث لتأسيس الرهبانيّة في لبنان»، ثمّ إلى جامعةِ سيّدة اللويزة منظّمةِ هذا المؤتمر، وإلى الحضور الكرام وسيادة المطران يوسف بشارة رئيس الجلسة.

ولا يسعُني إلاّ الإعرابُ عن سروري في المشاركة في هذا المؤتمر، الذي شرّفتني مؤسّستي التربويّة (الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة العامليّة)، بشخص رئيسها معالي الأستاذ محمّد يوسف بيضون، بالمشاركةِ في أعمال هذا المؤتمرِ الوطنيّ الكبير حول اليوبيل المئويّ الثالث لتأسيس الرهبانيّة في لبنان، مع الإشارة إلى أنّ تاريخَ الرهبانيّة اللبنانيّة هو تاريخُ شعبٍ عاش في هذه المنطقة من الشّرق، وجاهد جهاداً كبيراً رغم الصعوبات والأزمات.... سيما وأنّ المناطقَ اللبنانية، آنذاك انفتحت على العالم، فكان لها صلاتٌ تجاريّة وثقافيّة مع الخارج، وقد تعاقبَ عليها غزاةٌ كثيرون تركوا في أرجائها العديدَ من الآثار والكثيرَ من التفاعلاتِ الاجتماعيّة والثقافيّة.

ولقد عُرِف السكّانُ بطموحهم وبإسهامهم في شتّى الميادين الإنسانيّة. وبعد أن استقرّت تلك الشعوبُ والمِلَلُ في المناطقِ اللبنانيّةِ، وعَظُمَ شأنُها، كان لا بدّ من السّير بركبِ ما يدورُ حولها من علم ومعرفة، فاتّجهت نحو إنشاء المساجدِ والأديرةِ والكنائس، حيثُ مارس النّاسُ شعائرَهم الدينيّةَ، وجعلوا منها مدارسَ لتعليم أبنائهم القراءةَ والخطّ ومبادءَ الحساب. وهذه المدارسُ وُجدت منذ نشوء الأديرة. فهي قديمةٌ جدّاً. ولكنْ بعد أن حثَّ المجمعُ اللبنانيّ، المنعقدُ في اللويزة سنة ١٧٣٦، المعلّمين على أن لا يقتصرَ نشاطُهم على شؤونهم الذاتيّة، بل يشملُ شؤونَ الطائفة، بادر رجالُ الدّين إلى تلبية النداء، فأسّسوا مدرسةَ القرية المجّانية قرب كلّ دير أو في ظلّ كلّ كنيسة، هي مدرسةُ تحت السنديانة، كما يدعوها البعض. لقد بذلوا طاقاتِهم في نشر اللغة العربيّة بين المسيحيين من خلالها.

ولقد قوّم جرجي زيدان حركةَ الرهبانيّات التعليميّة فقال: «أمّا المدارسُ النصرانيّة فأقدمُها في لبنانَ للطائفةِ المارونيّةِ، غيرَ ما كانَ في حلب للرهبانيّات المختلفة» وكان أساتذةُ هذه المدارسِ، بوجهِ الإجمال، من الكهنةِ، إلاّ نادراً ؛ ناهيك بالمدارسِ الصغرى التي كانوا ينشئونها في الأديرة.

أمّا أهدافُ هذه المدارس فهي تعليمُ الأحداث القراءةَ والكتابةَ وخدمةَ القدّاس والفرضَ اليوميّ، بحيث أدّت تلك المدارسُ خدماتٍ جُلّى، وخصوصاً للتعليم المنظّم فيما بعد. ويكفينا أن نستشهدَ بالأديب اللبنانيّ الكبير مارون عبّود وما ورد على لسانه في كيفيّة التحاقه بمدرسة تحت السنديانة وعن العلم الذي توصّل إليه فيها، ثمّ كيف مكّنه هذا التّعليمُ من التّحصيل العالي والإلتحاق بكبريات المدارسِ النظاميّة، ومنها (مدرسة الحكمة)، ثمّ كيفَ عرفناه كاتباً وأديباً من الدرجة الممتازة، ورائداً من روّاد النهضة العربيّة الحديثة. وأفضالُ هذا النّوعِ من المدارس لا يُحصى ولا يُعَدّ. هكذا كانوا قديماً يتعلّمونَ. ومع عُقْمِ هذا التّعليم فقد أنبتتِ البلادُ رجالاً لهم الشأنُ المذكور في تاريخنا.

وشهِدَ القرنُ السابعَ عشرَ رجوعَ الأفواجِ الأولى من خرّيجي مدرسة الموارنةِ في رومية، فاشرأبّ التّعليمُ إلى الأخذ بأساليبِ النّهضة العصريّة، وكان من أربابه البطريرك إسطفان الدويهيّ الذي عُرِضَ عليه أن يدرّسَ اللغاتِ الشرقيّةَ في جامعة رومية فاعتذر قائلاً: «خيرٌ لي أن أعودَ إلى وطني وأنشىءَ مدرسةً ابتدائيّةً في قريتي من أن ألتحقَ بهذه الجامعة». وهكذا أنشأ في أواخرِ القرنِ السابعَ عشرَ مدرسةَ (مارت مورا) في إهدن أولى المدارس التي تستحقُّ الذّكرَ في فجر النهضة.

وبعد مجمع اللويزة سنة ١٧٨٧، حوّل البطريرك يوسف إسطفان ديرَ القدّيس أنطونيوس في عين ورقة في قرى كسروان إلى معهدٍ لتدريب الكهنة على غرار مدرسة الموارنة في رومية. وقد اعتُبرتْ أمَّ المدارسِ الوطنيّةِ دون خلافٍ، واحتلّتِ المكانةَ الأولى في البلاد، وبقيت لمدّةٍ طويلةٍ المدرسةَ الوحيدةَ للتّعليم العالي تدرّسُ أربعَ لغاتٍ هي العربيّةُ والسريانيّةُ واللاتينيّةُ والإيطالية، وسائرَ العلومِ المطلوبة في المدارس الأوروبيّة الكبرى، وحتّى الفلسفةَ واللاهوت، إلى جانب التّعليم الابتدائيّ والثانويّ، فتعزّزت في فجر النهضة صفاتُ التّعليمِ اللبنانيّ العريقةُ من تعدّدِ اللغات وعمقِ النظر وشعبيّةِ التعليم،

بحيثُ كانت نسبةُ الأميّةِ أقلَّ في بيروت وجبل لبنان منها في أيّ مكانٍ آخرَ من الإمبراطوريّة العثمانيّة.

لا بدَّ من التّأكيد على أنّ موقفَ الرهبانيّةِ من التربية في تلك المدّة كان أقربَ ما يمكنُ إلى الموقف التقدّميّ (المفهوم الحديث للكلمة)، لأنّ منه انطلقتِ الحركةُ الأولى لتحرير الفردِ ونشرِ الثّقافة. وكانت الرهبانيّات وبقيت نصيرةً للعلمِ والإصلاحِ والإجتماع. وقد لعبتْ دوراً بارزاً في بناء النهضةِ في العقود الأولى من القرن التاسعَ عشرَ.

دور الرهبانيّات الثقافيّ والتربويّ في القرنين ١٩ و٢٠

في الوقت الذي بدأت فيه الدولةُ العثمانيّة تُولي قضيّةَ التعليم عنايةً جديّة، كان التعليمُ الخاصّ آخذاً بالانتشار على نطاق واسع. فقد شهد القرنُ التاسعَ عشرَ انطلاقةً تربويّة كبرى سادت أرجاءَ الجبل اللبنانيّ. وكانت هذه الإنطلاقةُ استمراراً لنشأة التّعليم الخاصّ، حيث ارتكازُها على جهودِ الجماعات الطائفيّة والمؤسّسات التبشيريّة. وكانت الرهبانيّاتُ حينذاك قد أكّدت على ضرورةِ زيادةِ عدد المدارس عبرَ تحويلِ الأديرة مناهلَ للعلم. وفي عام ١٨٥٣ تمّ تأسيسُ جمعيّتين للراهبات المارونيّات تولّتا إنشاءَ مدارسَ للإناث في كسروان والمتن والفتوح وجبيل والبترون وقرى البقاع وبعلبك.

من الناحية العلميّة، فقد اهتمت هذه المدارسُ بتعليم الأولاد القراءةَ والكتابة. أمّا المدارسُ العليا فقد درسّتْ علمَ المنطق والفلسفة وعلمَ اللاهوت النظريّ والعلميّ، وكان دورُ البلاغة بالغَ الأهميّة مع أصول الصرف والنحو بالعربيّة والسريانيّة. والثقافةُ كانت عامّة، وشاملةً لأمورِ الدّين. فالطّالبُ الذي يتخرّج من المدرسة الابتدائيّة ويحملُ الشّهادةَ، يستطيعُ القراءةَ والكتابةَ والإعراب، وكذلك ضبطَ حساباتٍ بسيطة مفيدة في الحياة العامّة. أمّا من تخرّج من معاهدِ الرهبانيّات العليا كمعهد عين ورقة مثلاً، فكان يدرّسُ في المدارس أصولَ اللغة والدّين، وكان غالباً ما يترأّسُ الأديرةَ ويعيّنُ قيّماً عليها، وينشىءُ فيها المدارسَ لتعليمِ أبناء المناطق.

نتائجُ عملِ الرهبانيّات على الصعيدين الثقافيّ والتربوي

لقد شكّلت مدارسُ الرهبانيّات، بدون مبالغة، مرحلةً إنتقاليّةً هامّة في تاريخ التّعليم في لبنان، أي الإنتقال من الإرتجال والتّقليد والفوضى في التّعليم إلى الضبط والتّنظيم؛ وبكلامٍ آخر التحوّل عن الكتاتيبِ ومدارسِ تحت السنديانة إلى المدارس المنظّمة بما يقربُ من المفهوم الحديث المتطوّر. وبعضُ المدارسِ الرهبانيّة أدخلتِ المفهومَ الأوروبيّ المتقدّمَ للمدارس، من ناحية المناهجِ والإدارةِ والنّظامِ الداخليّ والهيئةِ التعليميّة.

كان للرهبانيّة أبلغُ الأثر في توجيه اللبنانيين إلى مناهلِ النّهضة، فلقّنتهم علوماً ولغاتٍ كانوا يجهلونها، وأطلعتهم على آفاقٍ من الحياة طالما سدّها على آبائهم الجهلُ المطبقُ، فنهضتِ البلادُ عندئذٍ نهضةً علميّةً ماشتها نهضةٌ ثقافيّة، واتّجهتِ العقولُ إلى الإبداع بعدما انطوت على تقصيرها قروناً.

لقد دفعتِ التربيةُ في القرن التاسعَ عشرَ الأدباءَ والمفكّرين والكتّابَ إلى التفكير الجدّي في الإصلاح والتطّور، وجعلتهم يسنّون القوانين التربويّةَ ويتكلّمون عن معاملة الطالب وتحسين الكتب وكفاءة المدرّسين. ونحن نعلمُ أنّ كلَّ باحثٍ تربويّ يشكّلُ حلقةً متّصلةً، يدفعُ بعضُها بعضاً في سبيل الإصلاح والابتكار، وخصوصاً بعدما تكشّفت أمامهم علومٌ إنسانيّة وسيكولوجيّة متعدّدة. فلولا القديمُ لما وصلنا إلى الحديث. ولولا الخطأُ لما وُجد الصّوابُ والتّطوّر.

فالمفاهيمُ في حالةِ تغييرٍ مستمرّ، وذلك حسب متطلّباتِ العصر وتطوّرِ القوانين الاجتماعيّة ومسايرةِ كلّ ما هو حديثٌ. ويجبُ أن لا ننسى المدارسَ التابعةَ للطوائف الإسلاميّة والمسيحيّة، وخصوصاً ما قدّمته من خدمةٍ للّغة العربيّة، إذ حفظتها من الضياع، عندما حاول العثمانيّون تتريكَ اللغة وجعلَها إداةً للتّعليم ولغةً رسميّة.

لقد شهد هذا العصرُ تحوّلاً ثقافيّاً في مجالاتٍ عديدة، نذكرُ منها على صعيد اللغة والمطابع والصّحف والمكتبات والمجالس الأدبيّة والجمعيّات والمسارح، كما شهد اتجاهاتٍ جديدةً ظهرت في التعرّف إلى الثقافة الغربيّة، والرّغبة في التحرّر من الحكم التركيّ، والدّعوة إلى القوميّة العربيّة.

فعلى صعيد اللغة طرأ تطوّرٌ جديد ومهمٌّ لإنقاذها كان تتمّةً لجهودٍ قام بعضُ المجدّدين في القرن الثامنَ عشرَ، نذكرُ منهم المطران جرمانوس فرحات بعدما كانتِ العاميّةُ قد طغت عليها طوالَ عصرِ الإنحطاط.

وقد أعاد بعضُ الباحثين إلى اللغة مقامَها الأصيل حين راحوا يحيون التراثَ اللغويّ القديم، فعادت إلى التّداول كتبُ النحو القديمة، وبرز عددٌ من اللغويين على صعيد التأليف اللغويّ المدرسيّ، وكان لأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني وإبراهيم اليازجي الدّورُ البارز في إظهار التعمّق اللغويّ.

وفي أواخر القرن التاسعَ عشَر ظهرتِ المفاهيمُ ودوائرُ المعارف، فكان لها دورُها وأثرُها في مجال اللغة.

نستنتجُ ممّا تقدّم أنّ الرهبانيّاتِ في لبنان تعاملت مع التربية على أنّها عمليّةٌ اجتماعيّةٌ وثيقةُ الاتّصال بمجرى الحياة في بيئتها، وبتيّارات الحوادث التي تجاريها وتعاكسها، وهي في جوهرها تستهدفُ نقلَ الإنسان من مرحلة إلى مرحلة أخرى لتهذيبِ خلقِه، وتنميةِ عقله وجسمه، وتكوينِ شخصيّته، والمحافظةِ على استقلال تلك الشخصيّة ونشاطِها. وقد اعتَبَرتْ الرهبانيّاتُ أنّ التربيةَ هي خطُّ الدفاع الأوّلُ ضدَّ التخلّفِ العام والتحدّيات.

إنطلاقاً من ذلك، اهتمّتِ الرهبانيّةُ المارونيّة، منذ نشأتها، بتوفيرِ التّعليمِ العالي لأفرادها منذ العام ١٨٠٨. وفي سنة ١٩٥١، أنشأت في منطقة الكسليك (جنوبي جونية) ديراً ضمّ ثانويّةً ومركزاً للتّعليم العالي، عُرف فيما بعد بجامعة الرّوح القدس. وقد دفع نموُّ هذه الجامعةِ سائرَ المؤسّسات الرهبانيّة إلى إرسال طلاّبِها إلى الجامعة الناشئة، حيث خرّجتِ العديدَ من الشباب، كما اشتركت في مؤتمرات وندوات ثقافيّة عالميّة ومحليّة عدّة.

التربية في سبيل الوطن وتطوّره

أيّها السادة

يواجه لبنانُ اليوم تحدّياتٍ تستدعي إعادةَ النّظرِ بسلّم القيم الذي رعته مواقفُ الأفراد والجماعات ودوافعهُم وسلوكهم، وتتطلّب بالتّالي تكوينَ ذهنيّةٍ جديدة في تحديد الاختيارات ومعالجة الأمور. كما تستدعي هذه التحدّياتُ إعادةَ النّظر في أهدافِ ووظائفِ مختلفِ المؤسّسات، وفي طرق وأساليب تسييرها، لأنّه لم يعدْ في الإمكان تركُ الأوضاع على ما هي عليه من الضبابيّة، بل يترتّب على ذلك تحديدُ أهدافِ التربية ووظائفها لأنّ الحياةَ تتجدّدُ باستمرار. فعلينا إذن أن نجدّدَ أساليبَنا ومناهجَنا وبرامجَنا لتبقى التربيةُ التي نمارسُها مع تجدّد الحياة والمجتمع والإنسان. وما دام الطّفلُ يتطوّرُ باستمرار من النّواحي الجسديّة والعقليّة والعاطفيّة والاجتماعيّة، فقد أصبح من الضروريّ التنبُّهُ إلى هذا التجدّد في شخصيّة التلميذ، وإلى تطوّره وتجدّدِ الأساليبِ التربويّة التي تشملُ طرائقَ التّعليم ووسائلَ الإيضاح والمناهج والبرامج والقوانين، بحيث تصبحُ الأساليبُ والطرائقُ المستعملةُ أكثرَ ملاءمةً لشخصيّةِ الولد وتطوّره.

ويجبُ أن نعترفَ أنّ أسبابَ الحرب في لبنان ونتائجَها تفرضُ علينا القيامَ بثورةٍ تربويّة في مجالاتِ التعليم والأساليب التربويّة، لأنّ مجموعةَ التغيّراتِ التي حصلت في شخصيّة التلامذة من الزوايا الاجتماعيّة والنفسيّة والعقليّة قد طرَحَت على المربّين مشكلاتٍ جديدةً لا يستطيعُ المربّون حلّها بالعودة إلى المفاهيم والمقاييس الجامدة التي استعملوها قبل الحرب في مجال التربية.

وبوجهٍ عام، نقولُ إنّ استمرارَ الحياة وتجدّدَ وتنوّعَ مشكلاتها تشكّلُ الحافزَ الأساسيّ لتطوير الوسائلِ التربويّة في المدرسة. ومن أهمّ المبادء التي يجبُ أن تتوافرَ في المناهجِ والبرامجِ والتجهيزات بعد الحرب ما يأتي:

أن تنبثقَ من نظرةٍ عالية للمواطن والإنسان والتلميذ متلائمةٍ مع الشخصيّة بجميع نواحيها، ومع العصر بجميع متطلّباته، وتهدفُ إلى خلق الإنسان وتنميةِ مواهبه، لا إلى نجاحه وحصوله علىعلامات عالية فقط،

وأن لا نرهقَ التلميذَ بالمعلومات النظريّة، بل نُعنى بما لديه من كفاءات ومواهب وإبداع،

وتنظيم الاتّصال المستمرّ بين المؤسّسات، ولا سيّما المتطوّرة منها،

وإرسال بعثات للتخصّص على أحدث الوسائل والتجهيزات الحديثة،

وتطوير الكتب ووسائل الشرح ووسائل تعليم اللغات.

إنطلاقاً ممّا تقدّم، وفي ضوء الرؤية الجديدة التي أشرتُ إليها، إنّني باسم المؤسّسة التربويّة التي أنتمي إليها، أرحّبُ بالتّعاون والانفتاح والتّنسيق الكامل بين مؤسّساتنا التربويّة، وصولاً إلى إعداد جيل وطنيّ مؤمن بوطنه وبمحيطه العربيّ، الذي كان للرهبانيّة دورٌ في الحفاظ على اللغة الأمّ، وفضلٌ مشكور في صون العربيّة وترحيلها إلى العالم.

أيّها السّادة... الأوطانُ لا تُبنى إلاّ بالعلم والفكر والأدب متوّجاً بالتربية والثّقافة والأخلاق الحميدة. هكذا تُبنى الأوطان وتستمرُّ وتتجنّبُ حالاتِ الاقتتال. فإلى مزيد من التّعاون والانفتاح بين المؤسّسات التربويّة، لأنّها هي وحدَها صمّامُ الأمان، والواحةُ الفضلى التي نتظلّلُ بها جميعاً بأمان واطمئنان.

عشتم وعاش لبنان

كلمة د. رفيق عيدو

الرهبانيّة: رسالة تربويّة للمستقبل

عام ١٧٠٠، وفي عهد البطريرك أسطفان الدويهيّ، حُدّدت نذورُ الرهبان بثلاثة: الطّاعة والعفّة والفقر. وتبعها عام ١٧٢٥، في عهد البطريرك يعقوب عوّاد، أبواب ثلاثة أخرى هي: التّواضع، المحبّة الأخويّة والصّبر، والإنسانيّة. وجميعُها من القيم الأساسيّة التي دعت إليها جميعُ الأديان السماويّة لبناء إنسانٍ صالح، تقّي، خلوق ومتواضع يساهم في التّعامل البنّاء مع أفراد مجتمعه.

وهكذا بدأتِ الرهبانيّةُ على يد المؤسّسين: جبرايل حوّا وعبدالله قراعلي ويوسف البتن، في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٩٣، عندما تركوا مدينةَ حلب إلى لبنان. ومرّتِ السّنواتُ، وانتقلت معها مهامٌّ رجالِ الدّين من الرعاية الإنسانية والدّعوة الدينيّة إلى عالم التربية والتعليم، وكان لهم الدعمُ الكبير من الإرساليّات ومن الدول الخارجيّة. فانتشرتِ المدارسُ التي كانت، بطبيعة الحال، وبسبب الأوضاع السياسيّة في منطقتنا، تتطلّعُ إلى هذه الدول، تنهلُ منها مناهجَها التعليميّة، وتستعينُ بمعلّميها وتعتمدُ لغتَها في التعليم. وزاد في هذا المنحى وضعُنا الداخليّ، غيرُ المستقرّ، في وطنٍ غيرِ واضحِ المعالم جغرافيّاً ومواطنيّةً، فتنازعنا من وقتٍ لآخر، وتغيّرت حدودُ وطننا بين فترة وأخرى. وكانت الأزماتُ، وآخرُها وهو الأكبرُ في تاريخنا، أزمةُ الحربِ الأخيرة، حربِنا قبل أن تكونَ حربَ الآخرين علينا. وبدأت ردّاتُ الفعل من هنا ومن هناك، وأصبح لكلّ مذهب من طوائفنا مدارسُه، ولكلّ حزبٍ مدارسُه. هذا باختصار ماضينا، وهذا حاضرُنا، فأين مستقبلُنا؟

وهنا، لا أتوجّهُ فقط إلى القيّمين على الرهبانيّة في لبنان، وعلى المسؤولين في المدارس الكاثوليكيّة، بل أتوجّه إلى كلٍّ منّا مهما كان موقعُه فأقول: لا يمكنُنا أن نستمرَّ على هذه الحال، تحت غطاء ما سمّيناه، وما زلنا نسمّيه، ونختبىء وراءه، «حريّة التعليم». أنا أؤمن بأنّ حريّةَ التعليم أساسٌ في نظامنا. والحريّةُ بشكلٍ عام، وليس فقط حريّة

التعليم، دعامةٌ للبنانَ الديمقراطيّ. ولكنْ، وكما في كلّ مجال، للحرّيةِ حدودٌ تصبح فلتاناً إذا لم تُضبط. فحريٌّ بنا إذاً، أن نضبطَ حريّتَنا في أهمّ مجال من حياتنا، والذي هو تكوينُ الإنسانِ فينا.

أمورٌ ثلاثة، إذا لم نَعِها ولم نأخذْ بها، سنسيرُ من سيّئٍ إلى أسوأ.

أوّلاً: ذاتيّتُنا. نحن مجموعةٌ من البشر، قرّرنا معاً أنّنا في وطن نهائيّ في حدوده، وترجمنا ذلك في دستورنا. وهذا الوطنُ ليس كلمةً، بل هو معنى وجودنا، نعملُ فيه، ونعملُ له. فهو إذاً ترجمةٌ لذاتيةِ وجودنا.

ثانياً: هويّتنا. نحن مجموعة من البشر، قرّرنا سويّاً أنّ هويّتَنا عربيّةٌ، وانتماءنا عربيٌّ، وترجمنا ذلك في دستورنا واقتنعنا كلُّنا، لنتوافقَ في حياتنا، أنّ ذاتيّتَنا وهويّتَنا غيرُ متناقضتين. وهذا جديدٌ في نظرتنا لوجودنا.

ثالثاً: عالمنا. نحن مجموعة من البشر، تاريخُنا وموقعُنا الجغرافيّ جعل منّا حلقةَ تواصلٍ بين بلاد الغرب وبلاد الشرق، وتوافقنا على أن نكونَ منفتحين على هذا العالم، نأخذُ منه ونعطيه، وإن كنّا قد أخذنا منه مؤخّراً فقد أعطيناه الكثيرَ سابقاً، وقد حان الوقتُ لنوازنَ بين الأخذ والعطاء. ولا يمكنُ أن يحدثَ ذلك، إنْ لم يكن انفتاحُنا على هذا العالم من منطلق ذاتيّتنا وهويّتنا.

مسلمّاتٌ ثلاث إنْ لم تُترجم في مناهجنا التربويّة، وفي عملنا التعليميّ بجميع عناصره: تلميذ، معلّم، إدارة، كتاب، وسائل تعليميّة، محيط مدرسيّ، علاقة مع الأهل إلخ... فسنبقى على وضعنا، وننتظرُ أزماتٍ جديدةً تهزُّ كياننا. ألم نلاحظْ حتّى الآن أنّ كلّ هزّةٍ كانت أكبرَ من سابقاتها؟

وأعودُ وأتوجّه إليكم، ومن خلالكم، إلى المدارس الكاثوليكيّة بشكلٍ أشمل.

من المستحيل تحديدُ سياستِنا التربويّة ومناهجِنا التعليميّة، بدونكم وبدون هذه المدارس. ففي لبنان ٣٢٥ مدرسةً كاثوليكيّةً منتشرةً في جميع المناطق اللبنانيّة، منتظمة عن طريق الأمانة العامّة للمدارس الكاثوليكيّة، وتحوي أكبرَ تجمّعٍ تعليميّ في الوطن، وقد كان

لها الدورُ الأوّلُ والكبير في انطلاقِ التّعليم في لبنان. هذه المـدارسُ حـوت ولا تـزال تحوي تلامذةً مسيحيين ومسلمين من جميع المذاهب، إذ إنّ نسبةَ الكاثوليك فيها نحو ٥٠٪ فقط ونسبةُ المسلمين في ما تبقّى ٢٨٪.

على هذه المدارسِ يقعُ عبءُ المسؤوليّةِ الأكبر في مساعدة الدولة اللبنانيّة، عبر أجهزتها، اتّخاذ القرارات المناسبة لانطلاقة جديدة في التّربية والتّعليم في هذا الـوطن، خصوصاً وأنّنا بدأنا العملَ الجديّ في وضع خطّة تربويّة شاملة، وتحديد السياسة التربويّة العامّة، وإصدار المناهج المستقبليّة. ولا يكفي هذا الدعـمُ فقـط، بـل يجبُ أن يـرافقَـه التقيّـدُ بتنفيذ هذه القرارات لاحقاً. ونحن معكم في ذلك مع أنّه يمكنُنا، أنتم ونحن وغيـرُنـا، أن نحافظَ على خصوصيّاتِ كلِّ مجموعة منا، هذه الخصوصيّات المغنية، والتي بتكاملها نعطي لأنفسنا وللعالم مثالاً يُحتذى به. أليست هذه أمنيتَنا جميعاً؟

عام ١٩٢٠ قال جبران خليل جبران: «كان التّعليمُ يأتينا من الغرب بشكـل الصَّـدَقـة. وقد كنّا، ولم نزل نلتهمُ خبزَ الصّدقة، لأنّنا جياعٌ متضوّرون. ولقد أحيانا ذلك الخبزُ. ولمّا أحيانا أماتنا. أحيانا، لأنه أيقظ بعضَ مداركنا، ونبّه عقولَنا قليلاً. وأماتنـا لأنّـه فـرّق كلمتَنا، وأضعف وحدتَنا، وقطع روابطَنا، وأبعدَ ما بيـن طـوائفنـا، حتّى أصبحت بـلادُنـا مجموعةَ مستعمـراتٍ صغيـرةٍ مختلفـةِ الأذواق متضاربـةِ المشارب، كـلُّ مستعمـرةٍ منهـا تشدُّ في حبلِ إحدى الأمم الغربية وترفعُ لواءها، وتترنّم محاسنَهـا وأمجـادَهـا. إنّ روحَ الغرب صديقٌ وعدوٌّ لنا. صديقٌ إذا تمكّنّا منه، وعدوٌّ إذا تمكّن منّا. صديقٌ إذا فتحنـا له قلوبَنا، وعدوٌّ إذا وهبناه قلوبَنا. صديقٌ إذا أخذنا منه ما يـوافقنـا، وعـدوٌّ إذا وضعنـا نفوسَنا في الحالة التي توافقـه».

صدق جبران خليل جبران عام ١٩٢٠، ولو عـاش لـرأى بـأنّ الـوضعَ على أسوأ.

والسّلام عليكم

كلمة الأب سمير خليل

دور الرّهبان الثقافيّ في لبنان اليوم

تناول الأب سمير خليل في الشقّ الأوّل من مداخلته الدّورَ الثقافيّ الذي لعبه الرهبانُ قبل الإسلام، وفيه، وأيّام العباسيين، وفي لبنان على مدى ثلاثة قرون.

وحول دورهم اليوم، لاحظ التّنافسَ، رغبة في التّأثير والنّفوذ، وميلاً إلى السّهولة، وطلباً ربّما للمصلحة الاقتصاديّة. وبالتّالي، دعا إلى أنجلة (من إنجيل) الثّقافة، بالعناية بالأفقر والتّضامن مع الفقراء، وبالانفتاح على القلوب والعقول، وتقديم الدولة كمصلحة عامّة والسّياسة على أنّها لدولة الحقوق.

وفي دور الرهبان أيضاً تقويةُ إيمان المسيحيين في جوّ إسلاميّ أو جوّ اللادين.

أمّا الدورُ الأخصّ فهو القيامُ بما لا تستطيعُ الدولةُ أن تقومَ به؛ ومنه مواصلةُ البحث في تراثنا المسيحيّ السريانيّ العربيّ، والحوار المسكونيّ ما بين المسيحيين، والحوار مع المسلمين.

قال الأب سمير خليل:

«عندما تحدّثتُ عن العلمنة قصدتُ مفهوماً سلبيّاً لذلك. لم أستعملْ كلمة المفهوم المدنيّ أو فصل الدين عن الدولة، وهو في مفهومي أمرٌ واضحٌ ضروريّ، وإن كان مستبعداً وصعبَ المنال. وللبنان فعلاً دورٌ أساسيّ في تحريك الفكر العربيّ نحو تمييز أو فصل الدّين عن الدولة. ونحن نتّفقُ في هذه النقطة. في مفهومي للعلمنة تحدّثتُ عن تحدّيين: العلمنة والأسلمة.

الأسلمة، وهي أوضح. ولا أعني الأصوليّات. أعني الجوَّ الإسلاميّ، وهذا شيء طبيعيّ. فكما أنّ الغرب، بطريقة أضعف، غائرٌ في بيئة مسيحيّة، فإنّ المسيحيّ يشربُ كلَّ يوم جوّاً اسلاميّاً. ففي ديري في الأشرفيّة يتناهى إليّ آذانُ الصباح، في السّاعة الرابعة

صباحاً. وكلّ يوم جمعة، ولساعات طوال، أستمع إلى الوعظ والتكبير حتى وإن لم أفهم كلّ جملة. في لبنان هذا الطابع غيرُ طاغ. ولكن في البلاد العربيّة الأخرى، وفي مصر مثلاً، فهو طاغ. يعني أنّك مع كلّ تنفّس تستوعب فكرة إسلامية، إن كان في الشّارع، أو في السّيارة، أو في البيت. تجويد القرآن في كلّ مكان. واللافتات الدينيّة كذلك في المدرسة، حتّى التلميذ المسيحيّ يأخذ القرآن يوميّاً. أعني: نحن نعيش في إطار اسلاميّ. ولأنّ الإسلامَ دينٌ ودولة، فهو يتدخّلُ في كلّ صغيرة وكبيرة في الحياة. لا أعني أنّ هذا شيئاً عليّ أن أقاومَه. أعني أنّ هذا تحدٍّ: كيف أستمعُ كلّ يوم إلى مفهوم لتوحيدٍ يخالفُ التّوحيدَ المسيحّي، ولا أعطي للتلاميذ إمكانيّةَ فهم التّوحيد المثلّث!؟ فهذا ما أعنيه بتجديد الفكر المسيحيّ، من آباء الكنيسة العرب، خلال العصور، في جميع المؤلّفات.

وأنتقل إلى مفهوم العلمنة، وهو أخطر في نظري. أعني الجوّ اللاديني المنتشر أساساً في الغرب. وأنا كلّ سنة لأني راعي كنيستين أو ثلاث كنائس في ألمانيا في الصيف، أشعر بهذا الجوّ؛ فلا يقدم إلى الكنيسة أكثر من ١٠٪ من الكاثوليك. أمّا عند البروتستانت فلا تصل النسبة إلى ٠,٥٪. هذا الجوّ يدخل إلى لبنان في البيئات الكاثوليكيّة غير التقليديّة، ليس في الجبل ربّما، وإنّما في بيروت وفي جونيه وفي الكسليك. إنّه جوّ اللامسيحيّ واللامسلم واللاشيء. هذا مع أعنيه بالعلمنة ونراه في أفلام الـ LBC. وهو تحدّ أقوى وأخطر.

Rôle Culturel des Religieux
Au Liban Aujourd'hui

A. Rôle Culturel des Moines Dans l'Histoire

1. Pachôme, Benoît, Cisterciens: Rôle civilisateur
2. Influence des Moines Arabes sur le Coran
3. Rôle des Moines dans la Culture Abbasside: Timothée I, Abu Qurrah, Elie de Nisibe, Ibn at-Tayyib, ...
4. Moines Libanais au 17-18 siècles (en Occident & en Orient)
5. Moines au Liban au 19e siècle: Ecoles, Dispensaires
6. Moines au Liban au 20e siècle: Universités

B. Rôle Culturel des Moines Aujourd'hui

1. Critique de leur rôle:
    - Concurrence entre eux pour avoir plus d'influence
    - Choix du plus facile
    - Intérêt financier?
2. Evangélisation de la culture:
    - Sensibiliser au plus pauvre, solidarité avec les pauvres
    - Ouvrir les cœurs et intelligences
    - Conception politique de l'Etat comme bien commun
    - Projet politique de l'état de droit
    - Renforcer la Foi des chrétiens, dans un environnement musulman ou séculier
4. Rôle culturel spécifique: Assurer ce que l'Etat ne peut faire
    - Recherche sur nore Patrimoine chrétien, syriaque/arabe
    - Dialogue entre Chrétiens, Oecuménisme
    - Dialogue avec les Musulmans

Conclusion:

Qu'est-ce qui fait qu'une Université est chrétienne?

Parce que dirigée par des Religieux?

Par son contenu (lequel?)

Par l'approche et l'attitude des Professeurs et de l'Equipe

القسم الرّابع

الجلسة الرّابعة

الموضوع **العمل والعلاقة مع الأرض والمجتمع:**
تطلّع نحو الحرّيّة والسّيادة والاكتفاء الاقتصاديّ والمساواة

المحاضرون

المونسنيور سمير مظلوم

الدكتور جوزف أبو نهرا

الدكتور سمير خوري

كلمة المونسنيور سمير مظلوم

تطلّع نحو الحرّية والسّيادة والاكتفاء الاقتصاديّ والمساواة

مقدّمة

يطيبُ لي أوّلاً أن أقدّمَ التّهانيَ مجدّداً للرهبانيّة في يوبيلها المئويّ الثالث، متمنيّاً أن يكونَ مناسبةَ انطلاقةٍ جديدة على كلّ الصّعد. كما أنّي أشكرُ الرهبانيّةَ المارونيّةَ المريميّة وجامعةَ سيّدةِ اللويزة على تنظيمهما هذا المؤتمر والدّعوة إليه، آملاً في أن تكونَ هذه النظرةُ الملقاة على تاريخ الرهبانيّة حافزاً للعودة إلى الأصالة، كي تنطلقَ في حركةِ تجدّدٍ إنجيليّة تضيء طريقَها في القرن الرّابع من حياتها.

يدورُ حديثُنا، في هذا المحور الرّابع، حول العملِ والعلاقةِ مع الأرض والمجتمع. وقد يتساءلُ البعضُ كيف يمكنُ الجمعُ بين الحياة الرهبانيّة والعلاقة مع الأرض. فالحياةُ الرهبانيّة هي دعوةٌ للتخلّي عن العالم وخيراته، واتّباع المسيح: «إذا أردتَ أن تكونَ كاملاً فاذهبْ وبعْ كلَّ ما لكَ وأَعطِهِ للفقراء، وتعال فاتبعْني». (متّى ١٩/٢١) هي إذاً دعوةٌ للصلاة والتأمّلِ وتمجيدِ الله وعيشِ المشورات الإنجيليّة.

أجل، لكنّ تمجيدَ الله لا يتمُّ فقط عن طريق الصلاة والتأمّل، بل بتحويل كلِّ الحياة إلى عملِ تمجيد، وفقاً لقول الرسول بولس: إذا أكلتم أو شربتم، أو مهما عملتم، فاعملوا كلَّ شيء لمجد الله». (١ كور ١٠/٣١). هكذا فهم الأمورَ المسيحيّون الذين أطلقوا الحياةَ الرهبانيّة في العصور الأولى، حتّى أنّ معظمَ القوانين الرهبانيّة كانت تَقسمُ يومَ الرّاهب إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للصلاة والعبادة، وثلث للعمل، وثلث للرّاحة.

فالعملُ ليس فقط وسيلةً لكسب العيش وتحاشي أن يكونَ الرّاهبُ عالةً على غيره، بل هو أداةٌ لتحقيق الذّات من خلال المشاركة مع الله في إتمام الخلق، وهو تقديسٌ للذّات من خلال تقديس العمل والأرض... وفي هذا يقولُ البابا يوحنّا بولس الثاني في رسالته حول العمل البشريّ: «إنّ العملَ هو خيرٌ للإنسان، خيرٌ لإنسانيّته، إذ إنّه

بالعمل لا يقومُ الإنسانُ فقط بتحويل الطبيعة كي تسدَّ حاجاتِه، بل هو يحقّقُ ذاتَه أيضاً كإنسان، وبكلامٍ آخر، يصبح إنساناً أكثر». (عدد ٩)

من هذا المنطلق، ومع لفت النظر إلى أنّ كلامَنا يدورُ حول العلاقة مع الأرض لا حول التعلّقِ بها، سنحاولُ معالجةَ هذا الموضوع، فنلقي أوّلاً نظرةً سريعة على تاريخ الرهبانيّة لنكتشفَ كيف كانتِ العلاقةُ بينها وبين الأرض، ثمّ ننظر إلى واقعنا لنرى أين أصبحت هذه العلاقة، ومن التاريخ والواقع نحاولُ أن نستخلصَ بعضَ المقترحات للمستقبل.

أوّلاً: أمس.

لقد انطلقتِ الرهبانيّةُ المارونيّة في أواخر القرن السابعَ عشرَ وأوائلِ الثّامنَ عشر، في مجتمعٍ زراعيّ يعتمدُ على محصول الأرض لتأمين الإكتفاء الذاتيّ. وكلُّنا يعرفُ طبيعةَ الأرض الجبليّة ومحدوديّةَ المساحاتِ الزراعيّة فيها، وما تطلّبه من جهودٍ استصلاحُ بعضِ تلك المساحات. وممّا يَلفتُ النظرَ أنّ الأديارَ الأولى التي استلمتها الرهبانيّة كانت في معظمها شبهَ مهجورةٍ ومتداعية، وكانت أراضيها مهملةً: من دير مارت مورا (١٦٩٥) إلى مار ليشع (١٦٩٦) إلى مار يوحنّا – رشميا (١٧٠٦) إلى سيّدة اللويزة (١٧٠٦) إلى مار أنطونيوس قزحيّا (١٧٠٨)، إلى مار بطرس كريم التين (١٧١٢)... فاضطُرّ الرهبانُ للعمل على ترميمها وتوسيعها واستصلاح الأراضي حولها، كي يؤمّنوا اكتفاءَهم الغذائيّ، ويسدّدوا الديونَ التي كانت مترتّبةً على بعض تلك الأديار...

ومرّتِ السنواتُ وانتشرتِ الرهبانيّةُ في معظمِ المناطقِ اللبنانيّة، وأصبحتِ الأديارُ ليس فقط مراكزَ عبادةٍ وصلاة وتعليم، بل مراكزَ إنتاجٍ إقتصاديّ وحرفيّ ساهمت مساهمةً كبرى في تنمية المناطق. وكان الرهبان يعملون بأيديهم في الزّراعة وتربية المواشي، ودودة القزّ... ويتقنون معظمَ الحرفِ المعروفة في أيّامهم. ولمّا لم يعدْ بإمكانهم أن يقوموا بتلك الأعمال لوحدهم، أخذوا يستعينون بالعلمانيين كي يستثمروا أملاكَ الرهبانيّة بالشّراكة معهم. فانتشرت هكذا حول الأديار عدّةُ مزارعَ، ماعتّمتْ أن أصبحت قرىً

كبيرة، فألّفت مع الأديار وحداتٍ اقتصاديّةً شبهَ متكاملة، ساهمت بتوفير نتاجٍ زراعيٍّ هامّ في وقتٍ كان فيه الإنتاجُ الزراعيّ يحتلُّ الصدارةَ في الإقتصاد الوطنيّ.

وكان الرهبانُ الماهرون يعلّمون شركاءهم الحرفَ التي يتقنونها. ففي دير مار بطرس كريم التين مثلاً، علّم الرهبانُ عدداً من الشبّان حِرَفَ الحياكة وصنع الفخّار، فانطلق هؤلاء لتأسيسِ محترفاتٍ في بيت شباب المجاورة، ما عتّمت أن تحوّلت إلى مصانعَ صغيرةٍ لحياكة الديما والحرير وغيرهما من الأصناف، ولصناعة الفخّار الذي اشتُهرت به هذه البلدة، وأصبحت مركزاً صناعيّاً مهمّاً في كلّ جبل لبنان. وما زالت عائلاتُ الحايك والفاخوري أصدقَ شاهدٍ على ذلك العهد الذي عَرفتْ فيه بيت شباب الإزدهارَ الصناعيّ.

ويُروى أنّ بعضَ أمراء الدروز وإقطاعييهم، لمّا رأوا ازدهارَ الزراعة حول الأديار، استقدموا عدداً من الرهبان كشركاء في أملاكهم، فأحسن الرهبانُ استثمارَ الأراضي، واشترطوا أن يأخذوا مقابلَ حصّتهم من الإنتاج مساحاتٍ من الأراضي، كوّنتْ شيئاً فشيئاً أوقافَ الرهبانيّة في منطقة الشّوف.

وهكذا، خلال هذا التّاريخِ الطويل، قامت بين الرهبانِ والأرض علاقةٌ متينة، هي علاقةُ محبّةٍ وتقديرٍ متبادلين، بل علاقةُ تقديسٍ وتطهير. فالرّهبانُ كانوا يعطون الأرضَ بسخاء من تعبهم، وعرق جبينهم، ومعرفتهم... وكانتِ الأرضُ تُعطيهم إنتاجَها بسخاء. فتعلّموا وعلّموا هذا القولَ المأثور: «الأرض إن أنتَ أكرمتَها أكرمتك». ومن محاصيلِ الأرض كان الرهبانُ يكدّسون المونةَ من سنةٍ إلى سنة، وبعد أن يعطوا الشركاء حصّتَهم، ويوزّعوا على الفقراء ما يستطيعون إليه سبيلاً، وعلى الأديار الصغيرة التي لم يكنْ لديها إنتاجٌ كافٍ ما تحتاج إليه، كانوا يبيعون ما يَفيضُ عنهم فيساهمون بذلك في تغذية الإقتصاد الوطنيّ. وفي منتوجاتهم كانوا يأخذون ما يحتاجون للعبادة: فمن عسل النحل يستخرجون الشمعَ للمذابح، ومن الزّيتون الزيتَ للميرون وإنارةِ مصابيح الهياكل، ومن القمح والعنب الخبزَ والخمرَ اللذين كانوا يحوّلونهما إلى جسد المسيح ودمه، وبه يتقدّسون ويقدّسون الأرضَ التي تدرُّ عليهم بخيراتها.

وهذه العلاقةُ كانت تتحوّلُ في أكثر الأحيان إلى صداقة قويّة بين الرّاهب والأرض

وأشجارها والمزروعات... حتّى إذا تبلّغ الراهبُ أمرَ نقلهِ من ديرٍ إلى آخر، كان يدورُ على أشجار البستان وحيوانات المزرعة ويودّعُها واحداً واحداً، قبل أن يودّعَ رئيسَه وإخوته في الدّير... ثم ينتقلُ إلى ديرٍ آخر كي يبدأَ عمليّةَ تعارفٍ جديدةٍ مع أرضٍ جديدة وأشجار جديدة، ويحبُّها ويتفانى في الاعتناء بها.

وتطوّرت هذه العلاقةُ من محبّة الأرض بالمعنى الحسيّ إلى محبّتها بالمعنى الأوسع، أي محبّة الوطن والدفاع عنه، والاستماتة في سبيل المحافظة على حريّة الشعب، أو استرجاعِ تلك الحرّية... وقد كان للرهبانيّة المارونيّة، عبر العصور، مواقفُ مشهورةٌ على هذه الصّعد.

أمّا، مع المجتمع، فقد نسجتِ الرهبانيّةُ أوسعَ وأمتنَ العلاقاتِ مع جميع من تعاملوا مع أديارها ومدارسها ومؤسّساتها. فمن خلال الخدمة الروحيّة والإشعاع الروحيّ في الأديار والرعايا، ومن خلال المدارس والجامعات والمؤسّسات المختلفة، ومن خلال العمل في الزّراعة والحرف، ومن خلال الضيافة التي اشتُهرت بها الرهبانيّةُ، حتّى أنّه لم يكنْ يجوزُ أن يمرَّ شخصٌ بقرب ديرٍ وقتَ الغداء أو العشاء، دون أن يشاركَ بطعام الرهبان. وكانت أجملُ كلماتِ الشّكر التي يقدّمُها ذاك الدّعاءُ المشهور: «الله يعمّر قزحيا». من خلال كلٍّ ذلك نسجتِ الرهبانيّةُ شبكةَ علاقاتٍ مع مئات الأجيال من التلامذة والمتخرّجين من مدارسها، ومع كلّ المجتمع الذي وُجدت فيه الأديارُ، ومن كلّ الطوائف، هي علاقاتُ محبّةٍ واحترامٍ وتقديرٍ وعرفانٍ جميل، بالرّغم ممّا كان يشوبُها أحياناً ما يشوبُ كلَّ علاقةٍ بشريّة من سوء تفاهم أو من تضاربِ مصالح... ولكنّ أجملَ تعبيرٍ عن هذه العلاقة يبقى تعبير «يا معلّمي» الذي كان يطلقُه النّاسُ على الرّاهب، ليس فقط على الرّاهب الذي علّمهم القراءةَ والكتابة، أو الصّلاةَ والترتيل، بل أيضاً الذي علّمهم محبّةَ الأرضِ والاعتناء بها، وتشذيبَ الكرمةِ أو تطعيمَ نصبة الزيتون...

ولقد تطوّرتِ العلاقةُ، من مستوى العلاقة الشخصيّة بين الرهبان وتلامذتهم أو شركائهم ومعارفهم، إلى علاقة بين الرهبانيّة والمجتمع ككلّ، من خلال الخدمات المتعدّدةِ والمتنوّعة التي تقدّمُها مؤسّساتُها، ومن خلال المواقفِ التي اتّخذتها أو تتّخذُها الرهبانيّةُ في بعض الظروف القاسية التي مرّت بها البلاد، كأنْ تفتحَ الأديارُ والمؤسّساتُ أبوابَها

لاستقبال ضحايا الحروب والكوارث، وإيوائهم والاعتناء بهم. أو كأن يرهنُ رئيسُها العامّ كلَّ أملاكِها إبّان الحربِ العالميّة الأولى، كي يوزّعَ مساعداتٍ غذائيّةً على المُحتاجين والمهدّدين بالموت جوعاً...

هذا بعضُ ما حاولتُ أن أستخلصَه من تاريخ الرهبانيّة عن علاقتها بالأرض والمجتمع. ولم يكنْ بالإمكان طبعاً أن تعرفَ كلَّ شيء أو أن نسردَ كلَّ شيء... فإذا كانت هذه حالُ العلاقةِ بالأمس، فكيف هي اليوم؟

ثانياً: اليوم

لقد عرفتِ البلادُ خلال القرونِ الثلاثةِ المنصرمة تحوّلاتٍ وتبدّلاتٍ عديدةً.

- فعلى الصعيد السياسيّ، مرّتْ من حكم الإمارة والإقطاعيّة إلى تجربة القائمقاميّتين فالمتصرفيّة، ثمّ إلى الإنتداب فالاستقلال...
- وعلى الصعيد الإقتصاديّ، قد تقلّص شيئاً فشيئاً نظامُ الإقتصادِ الإنتاجيِّ الزراعيِّ والحرفيّ، وحلّ محلَّه نظامُ اقتصادٍ ليبراليّ يرتكزُ على المبادرةِ الفرديّة، ونموٌّ قطاعِ الخدماتِ التجاريّة، والماليّة والسياحيّة...
- وعلى الصعيد الاجتماعيّ، انتقل المجتمعُ اللبنانيّ من مجتمعٍ قرويٍّ ضيّقٍ مغلقٍ على ذاته، إلى مجتمع مدينيٍّ منفتح على العالم بأسره. وقد عرف، خلال هذه الفترة، حروباً وكوارثَ عديدةً، نتج عنها، بالإضافة إلى الضحايا والدّمار، موجاتٌ كبيرة من الهجرة والتّهجير، كما مرّت مراحلُ من الازدهارِ الاقتصاديّ والعمرانيّ والثّقافيّ جعلت لبنانَ في طليعة بلدان المنطقة.

وقد رافقتِ الكنيسةُ، ومن ضمنها الرهبانيّةُ المارونيّة، هذه التحوّلاتِ، فطوّرت دورَها التربويّ من مدرسة تحت السنديانة إلى مدارسَ ومعاهدَ وجامعاتٍ كبيرةٍ وعصريّة ومزدهرية، تلعبُ دورَها في التطوّر الاقتصاديّ والاجتماعيّ. كما واكبتْ أبناءَ شعبِها المهاجرين إلى عدد من بلدان الانتشار، ولعبت دوراً في إبقاء العلاقةِ قائمةً بينهم وبين وطنهم وكنيستهم.

أمّا فيما يتعلّقُ بموضوعنا، فقد نتج عن تلك التطوّرات انحسَارٌ لنشاط الرهبانيّة في مجال الإنتاج الزراعيّ والحرفيّ، وخفّتِ العلاقةُ مع الأرض وكادت تتلاشى، خاصّةً عند الأجيال الجديدة. وأصبح من المؤسف أن ترى مساحاتٍ شاسعةً من أراضي الرهبانيّة كانت بالأمس جنّاتٍ غناء، قد أضحت متروكةً مهملةً يسودُها الجفافُ والبَوار، أو تحوّلت إلى أحراج تسرحُ فيها قطعانُ الماعز، أو بيعت لتُزرعَ فيها، مكانَ الأشجار، أبنيةٌ من الباطون المسلّح، تأوي مراكزَ تجاريّةً، أو أمكنةً للتسليةِ غيرِ البريئة...

كما يؤلمُنا أن نرى عدداً من الأديار التاريخيّة قد أصبح مهجوراً أو لا يأوي سوى راهبٍ واحدٍ مُسنّ، لا يتعدّى دورُه غالباً دورَ الحراسة. بينما يتهافت الرهبانُ بالعشرات على المراكز والمؤسّساتِ القائمةِ في المدينة والتي تؤمّنُ لهم كلَّ وسائلِ الرفاهيّةِ والبروز الاجتماعيّ. أجل، قد حدث نوعٌ من الطلاق بين عدد كبير من الرهبان والأرض. فلَم تعدْ هذه تشعرُ بملمسِ أيديهم الخشنة، ولا ترتوي بعرق جبينهم، ولا تنعم باعتنائهم بها وعطائهم السخيّ، كي تعطيَهم بدورها بدون حساب.

أمّا نظامُ الشراكة فقد تفكّك وانهار كليّاً، مسبّباً أحياناً خلافاتٍ مريرةً، باعدت بين الرهبانيّة وشركائها، وزرعتِ الشكَّ في العلاقات وزعزعت الثّقة... وفي الأراضي التي ما زالتِ تُستعملُ زراعيّاً، قد حلّت اليدُ العاملةُ الغريبة محلَّ الشركاء، ومحلَّ الرهبانِ الذين طلّقوا العملَ اليدويّ.

أمّا علاقةُ الرهبانيّة مع المجتمع فقد فقدتِ الكثيرَ من البساطة التي كانت تتحلّى بها، ومن الطابع الروحيّ الذي كان يميّزُها. قد يكونُ الرهبانُ توسّعوا في علاقاتهم ودخلوا في العالم أكثر من الماضي، وهذا ما أفقد الرهبانيّةَ شيئاً من الهالة التي كانت تحيطُ بها. فلم يعدِ الرّاهبُ ذاك «المعلّم» والمرشدَ وربّما القدوة، بل أصبح إنساناً عاديّاً للّذين يقتربون منه، أو إنساناً غريباً للذين ينظرون إليه من بعيد. والمؤسّساتُ الرهبانيّة، في معظمها، لا يرَى فيها كثيرٌ من النّاس سوى أماكنَ لبيعِ الخدمات، وغالباً بأسعارٍ باهظة تسبّبُ انتقادَ النّاس ونقمتَهم.

قد تبدو هذه النّظرةُ على الواقع مجحفةً بحقّ الرهبانيّة، لأنّها لم تُظهرْ كفايةً ما فيها من إيجابيّات. لكنّي أودّ أن أوضحَ، أنّ إظهارَ بعضِ السلبيّات لا يُقصدُ منه التجريحُ

أو الانتقادُ الهدّام، بل لفتُ النّظر إلى بعض الأمور التي يمكنُ إصلاحُها، كي تحافظَ الرهبانيّةُ على أصالتها، وتنطلقَ منها في عمليّةِ تجدّدٍ مستمرّ، تساعدُها على متابعة رسالتها. وَلْيُسمحْ لي الآن أن أقدّمَ، في النقطة الأخيرة من حديثي، بعضَ المقترحاتِ للمستقبل.

ثالثاً: غداً

إنّ الرهبانيّةَ المارونيّة، بفروعها المختلفة، مدعوّةٌ إلى لعبِ دورٍ هامّ في حياة لبنان الاقتصاديّة والاجتماعيّة، يوازي الدورَ الذي لعبته في تاريخها. لذا، فلا بدّ من العودةِ إلى الأرض، وترسيخ محبّتها في قلوب الرّهبان، وتجديد علاقتهم بها. ولذا أقترحُ الآتي:

١- إدخالُ العمل اليدويّ، والزّراعيّ بصورة خاصّة، في برامجِ التنشئة الرهبانيّة، وإعادة الزاميّة العمل اليدويّ في الحياة الرهبانيّة، أقلّه ساعةً في النّهار.

٢- تشجيعُ بعض الرهبان على التخصّص في الحقل الزراعيّ، وتكليفهم مهمّةَ استثمار الأراضي الزراعيّة بأساليبَ عصريّةٍ.

٣- وضعُ دراسةٍ شاملة لتصنيف أراضي الرهبانيّة، بغيةَ استثمارها في مشاريعَ متنوّعة من زراعيّة، وانتاجيّة، وإسكانيّة، وخدماتٍ إجتماعيّة...

٤- تشجيعُ المدارس المهنيّة، وفتحُ عددٍ كبير منها، وتوجيهُ عددٍ أكبر من الشبّان إلى العمل الزراعيّ والحرفيّ.

٥- تحديثُ عقد الشّراكة القديم لإيجاد حافز للشبّان على العودة إلى الأرضِ والتعلّقِ بها.

٦- تطويرُ الإداراتِ الرهبانيّة، من خلال هيكليّاتٍ مؤهّلةٍ ومتخصّصة، لمتابعة الأوضاع الاقتصاديّة - الاجتماعيّة، وتقويةِ مفاهيمِ العملِ المؤسّسي، المبنيٍّ على العلم والكفاءة والأساليب التقنيّة الحديثة، والمعتمدِ مبدأ الاستمراريّة.

٧- التّنسيقُ بين الرهبانيّات المختلفة، كخطوةٍ أولى، للتنسيق بين جميع مؤسّسات الكنيسة، على الصعيد الاقتصاديّ - الاجتماعيّ.

٨- إشراكُ العلمانيين في دراسة المشاريعِ المشار إليها، واتّخاذُ القراراتِ المتعلّقةِ بالشّأن الاقتصاديّ - الاجتماعيّ، وتنفيذُ تلك القرارات، لإيجاد فرصِ عملٍ جديدة تحدُّ من البطالة وموجات الهجرة.

٩- العودةُ بسرعةٍ وقوّة إلى المناطق المهجّرة، وإعادةُ بناء الأديار والمؤسّسات فيها واستصلاحُ الأراضي وتأمينُ حضورٍ رهبانيٍّ وكنسيّ فعّالٍ يشجّعُ المهجّرين على العودة.

١٠- إعادةُ تحريج المساحات الجرداء من أراضي الرهبانيّة والتي لا يمكنُ استصلاحُها، وتحويلُها إلى محميّاتٍ طبيعيّة تعيدُ التّوازنَ إلى طبيعة لبنان، وتسهمُ في إعادته لبنانَ الأخضر.

هذه المقترحاتُ أطرحُها طبعاً للمناقشة. ويبقى اعتقادي أنّ أهمّ ما في المقترحات وضعُ بعضِها موضعَ التنفيذ.

وشكراً

كلمة د. جوزف أبو نهرا

العمل والعلاقة مع الأرض والمجتمع

أودُّ في بداية مداخلتي أن أعبّرَ عن وافر تقديري لإدارة جامعة سيّدة اللويزة التي أرادت أن تكونَ الذكرى المئويّةُ الثالثةُ لتأسيس الرهبانيّات القانونيّة في لبنانَ مناسبةً للتأمّل وللعودةِ إلى الينابيعِ الأصيلة، لوقفةِ حساب مع الذّات من أجل استخلاصِ العبرِ وتصويبِ المسار في دور الرهبانيّات الروحيّ والمعيشيّ.

حدّدت إدارةُ المؤتمر أربعةَ مَحاورَ رئيسةٍ: البعد الروحيّ، البعدُ الثقافيّ والتربويّ، البعدُ الإقتصاديّ، والبعد المجتمعيّ والوطنيّ، من أجل استشفاف آفاقِ المستقبل ودور الرهبانيّات فيه. وجاء هذا المحورُ ليركّزَ على العمل والعلاقة مع الأرض والمجتمع في تطلّعٍ نحو الحريّة والسّيادة والإكتفاء الاقتصاديّ والمساواة. فالعنوانُ، بحدّ ذاته، برنامجٌ سياسيّ يَصِحُّ أن يُطبّقَ على صعيد الوطن ككلّ، وليس فقط على صعيد الممارسة والرّسالة الرهبانيّة.

الأرضُ هي الركيزةُ الأساسيّة لأيّ شعبٍ ولأيّ وطن. فكما أنّه لا وطنَ بلا شعب، فلا وطنَ بلا أرض: هناك شعبٌ كرديٌّ، ولكن لا يوجدُ وطنٌ كرديّ، لأنّه لا توجدُ أرضٌ مستقلّة لهذا الشعب. لعبتِ الأرضُ بالنّسبة للبنانَ دوراً جوهريّاً في تكوين شعبه، وفي التّأثير على طبائعه، وذلك بسبب طبيعة هذه الأرض وموقعها الجغرافيّ. طبيعةُ لبنانَ الجبليّةُ الوعرةُ جعلت منه ملجأً الأقليّاتِ المضطهدة التائقة إلى العيش بحريّة وأمان، وهي التي أمّنتِ الملاذَ الأمينَ للعُبّاد والنسّاك منذ القدم وحتّى أواخرِ القرنِ السابعَ عشرَ حين تأسّستِ الرهبانيّاتُ القانونيّة Fernand Brandel: La Mditerrannée et le monde méditerranéen:

تركيز على أهميّة الجبال في حماية الأقليّات. وقد أورد على سبيل المثال جبالَ البربر في شمال أفريقيا وجبال إسبانيا والبلقان واليونان وجبال لبنان.

Bron de Tott:

«استبدادُ الأتراك امتدَّ على طول الشاطىء السوريّ اللبنانيّ، وتوقّف باتّجاه الجبل عند أوّل صخر وأوّل مضيق يسهلُ الدفاعُ عنهما».

عندما ننظرُ اليومَ بخشوعٍ إلى منحدرات جبالنا الوعرة التي حوّلتها السّواعدُ الصلبة والإرادةُ العنيدة إلى جلول خصبة تضمنُ لزارعها الخبزَ والحريّة، فإنّ تفكيرَنا يتّجه أوّلاً إلى أولئك الأجداد الذين تخلّوا عن السّهول الغنيّة الرحبة، وفضّلوا شظفَ العيشِ في وهادِ لبنانَ وجروده ففتّتوا الصخرَ وجبلوا الأرضَ بعرقِهم ودمِهم في سبيلِ صونِ كرامتِهم وضمانِ حريّةِ معتقدهم.

تلك هي العبرةُ الأولى والأساس: التضحية بالحبوحة والثّروة في سبيل الحريّة والكرامة واتّخاذ الأرض والعمل فيها ضمانة لهذا الخيار الصعب. جلولُنا القديمة، أيّها السّادة، ليست مجرّدَ حجارة مرصوفة تقي حافّةً ترابيّة من الإنهيار. إنّها سندٌ ماديّ كقيمٍ معنويّة أرادها الرهبانُ في الماضي طريقاً إلى القداسة عن طريق العمل بالأرض، وأقاموها لتدعمَ مسيرةَ الحريّة والسيادة عن طريق الاكتفاء الاقتصاديّ.

حضارة الجلّ: حضارة الإنسان الأنوف

عندما تركنا جلولَنا تنهارُ، وأخذنا حجارتَها لنبنيَ دكاكينَ للتجارة ومكاتبَ للسمسرة بدأتِ القيمُ عندنا بالانهيار، وأصبحت أرضُنا محطّ الطامعين.

أمثال شعبيّة:

قفّة شلوش ولا قفّة قروش

إفلح أرضَك واستر عرضَك

كلّ شي بالأمل ما عدا الأرض بالعمل

اشتغل بالتراب وكول منه.

دور الـرهبـان في تـوسّـع الانتشار المسيحيّ:

- شراكة الشلش مع الأمراء والمشايخ.
- شراء أراضٍ: سياسة تـوسّع.
- دور الدير في تأسيس بعض القرى: إسم الدير على اسم البلـدة

الـدير محـور الحيـاة الاقتصاديّـة والاجتمـاعيّـة:

- مالك كبير
- صناعات حرفيّة
- استيراد
- مستوصف
- مصرف: ودائع، أمانـات، قـروض.

مشاركة الرهبان في الثورات الفـلاّحيّـة:

١٧٢٧ في حدث الجبّة من ضرائب والي طـرابلس

١٧٤٩ ضدّ الأمير ملحم شهاب لفرضه ضريبة الشاشية (قرش عن كلّ ذّكّر بالـغ)

١٧٨٠ ضدّ الأمير يوسف لفرضه ضريـة البـزريـة.

الدّير لم يكن بيتَ صلاة وحسب، بل قلعةُ عقيدةٍ، ومنطلقُ رسالةٍ اجتماعيّة كـان لهـا تأثيرُها في المعادلات السياسيّة في عهد الإمارة: تنصّر الشهابيين واللمعيين

- تشجيع الدروز والشيعة للرهبان (عقود شراكة، وهب أرض لبناء الدير، وجبي ضرائب على الإنتاج)

عدم إعفاء أملاك الدير مـن الضرائب.

إنتشار الضيع المسيحيّة بين صيدا وجزّين.

الرهبانيّة

- منع التدخين
- حصر توزيع الدخان بالحصص
- حصّة فندق القادري
- تراجع في الحفاظ على الرسالة وفي تطبيق القوانين وتحوّل في السياسة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، خاصّةً بعد الحرب الكونيّة ١٩١٤-١٩١٨:
حزّرتا ١١٣١ وشراكة الشلش مع فلاّحين شيعة.

بين الأمس واليوم

الأرض: الكثير من الأراضي أصبح بوراً. هناك محاولة جديدة للإستصلاح، ولكنّ هذا غيرُ كافٍ.

- توسّعات في البناء، وبناء الأبنية التجاريّة، بينما العديدُ من الشبّان لا يملك القدرةَ الماديّة على تأمين السّكن. لذلك، فهناك تراجع في نسبة الزّواج. فيمكنُ أن تساهمَ الرهبانيّاتُ ذاتُ الأملاكِ الشاسعة في حلّ مشكلة السكن.
- مستشفيات لا يدخلُها المريض إلاّ بدفع سلفةٍ أحياناً عاجزٌ عنها، فأين الخدمةُ المجّانيّة أو البدلُ الذي هو بمتناول أبناء الطبقة المعدمة؟!
- مدارسُ وجامعاتٌ ذاتُ أقساطٍ مرتفعةٍ إلى جانب بعضِ المدارس المجّانيّة وإعفاءات من الأقساط.
- أين التربيةُ في مدارسنا؟ نحن نعلّم، نلقّن، ننجحُ في البكالوريا ولا نربّي تربية مدنيّة، ولا نهتمُّ بالناحية الخلقيّة.

تُقاسُ نسبةُ نجاحِ مدرسةٍ بعدد الناجحين في البكالوريا، وليس بنسبةِ ما ربّته ونمّته في شخصيّة تلامذتها وأعدّتهم ليكونوا رجالاً ونساءً مسؤولين في مجتمعهم ووطنهم.

كلمة د. سمير الخوري

الرهبانيّة المارونيَّة وعلاقتُها بالأرض والمجتمع تطلّعٌ نحو تحقيق الذّات معاً

Co-réalisation de soi

١- الحريَّة علّة المارونيّة وقوَّتها ومعنى التزامها.

١.١- معاناة مَن لم تركعْ ركبُهم للبعاليم.

في قلب كنيسة سيّدة النجاة، أعاد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، مار نصرالله بطرس صفير، قرأة معاناةِ شعبِ الله، فقال: «... لقد قاسينا الويلاتِ، وثبتنا بنعمة الله وعنايته، ولن تُقتلعَ جذورُنا، وهي عميقةٌ تضربُ أعماق التربة والتّاريخ من هذا الوطن، وإنّا لن نتخلّى عن حقّنا في أرضنا، ونحن لنا ما لسوانا من حقوق وعلينا ما عليه من واجبات (...) ولكلٍّ من اللبنانيين حقٌ في حياةٍ كريمة بعيداً عن قهرٍ وفرضِ إرادة وشعورٍ بالغبن والخوف، وبالتّعامل على غير قدم المساواة. كيف نرضى بأن نرى أبناءنا يُذبحون أمام عيوننا حول مذبح الرّب، ونحن الذين لجأنا إلى المغاور والكهوف في عهد الظّلم والظّلام طَوال مئاتِ السنين:

١- ليسلمَ لنا الإيمانُ بالله

٢- وعبادته على طريقتنا في هذه الجبال وعلى هذه الشّواطىء

٣- ولتبقى لنا الحرّيةُ التي إذا عُدمناها، عُدمنا الحياة»[1]

يتّضحُ من كلام البطريرك أنّ الحريَّةِ ليست أداةً لتفسير تاريخ الرهبانيّة والمتّحدِ المارونيّ، بل هي ما يُعطي تاريخَ نضالِ الموارنة معنى.

١- البطريرك مار نصرالله بطرس صفير: كفّوا عن الظلم والعنف وأجروا العدل والحقّ: عظة ألقيت في كنيسة سيّدة النجاة - الذوق لبنان في ١٩٩٤/٣/١ وتناقلتها معظم وسائل الإعلام.

فالحريّة هي علّةُ المارونيّة منذ البـدايـة:

ينادون بالحريّة الكيانيّة لكلِّ إنسان على مستوى الأفراد، وينهدون، على مستوى المجتمع إلى تحقيق فكرتين:

أ- فكرة بيعة، أي المتّحد الكنسيّ التّام.

ب- فكرة وطن، أي المتّحد الإجتماع-سياسيّ.

لقد تضافرت عواملُ عدّةٌ لجعل هذا المنحى الفكريّ والعمليّ ممكناً لـدى المـوارنـة، أهمُّها أربعةُ عوامـل:

١- اختبار روحيّ قائم على فهمٍ مميَّز لسرّ التجسُّـد، واستقـرائـه على أنّ الإنسانَ هـو غايةٌ لا واسطة، التحـرّر بـالأرض، الإنسان تـرابٌ وإلى بنـوّة الأب يعـود...

٢- خيار لاهوتيّ يفسِّره إعتنـاق العقيـدة الخلقيـدونيّـة. وإشعـاعُـهـا التطبيقيّ هـو ضرورةُ روحنةِ الأرض تمهيداً لأرضنة الرّوح. فملكـوتُ الله في داخلكـم...

٣- خبرة حياتيّة مرتبطة بنمط العيش الـزراعيّ في بيئة جبليّـة[٢]، وما تحمله من قيم الحريّة وأخواتهـا: الصمـود، التمـرّد، الصّـدق، الفـرح، الشّجـاعـة، الحـذر، التقشّـف، العونة.[٣] ...

٤- خبرة اجتماعيّة هي حصيلةُ التعامل مع بيئة تعدديّة ثقافيّة وسوسيولوجيّة في أفاميا، ومن ثَمّ في لبنان، تقومُ على اللغة، والمعتقد، والجماليّات، والأنماط الحضاريّة[٤] ...

تتيحُ هذه الاختياراتُ القاعديّة الخلوصَ إلى خمسة مبادىء لا زالت تلهمُ المـوارنـة:

٢- ما من بحثٍ أو دراسة في علوم الأنتروبولوجيا أو الجغرافيّة البشريّة والعلوم الاجتماعيّة إلاّ ويخلص إلى أنموذجيّة إنسان الجبال الضنين، تحت كلّ سماء، بهويّته وحرّيتـه، انظر

MENDRAS. H. Elements de sociologie. Ed. A. Colin 1991 P. 131-155. Introduction à l'étude de la sonnerie Ed. A. Calm. 1986. P. 20-42.

Cf. BALANDIER. G: La dynamique sociale en Afrique centrale p. 4.F. 1963. p. 236-291

MOUWANES J. La personnalité Libanaise Bey. 1973 P. 19-52.

3- cf. HAYEK: La spilitualité maronite in Dictionnaire de spiritualité catholique

4- NAMAN. B.: Les maronites constantes et variables de vie. New-York. IIe congré maronite. 1980 P. 6-7.

١- الحريَّة حريَّة كيانيَّة شخصيَّة لكلّ كائن بشريّ، ولا منّة عليه فيها لأحد.

٢- الإنسان الفرد قيمة بذاته والمجتمع قيمة. ومهمّةُ الدولة ومؤسّسات المجتمع الحفاظُ على هاتين القيمتين معاً.

٣- الحقٌّ بالمغايرة قيمة. الإنسانيَّة هي انفتاحٌ ولقاء مع المغاير الذي هو الآخر Autrui الضدّ Anti، هو القريبُ والشّريك. إذا كان اللهُ أباً، فكلُّنا إذاً إخوةٌ متساوون.

٤- تعطي الحريَّةُ للوحدةِ قيمتَها. والحقُ بالمغايرة يهبُها إنسانيّته. والمشاركةُ رقيُّها الحضاريّ.

٥- الإلتزام Engagement والمعنيَّة implication هي طريقُ تأوين القيم بجرأة أدبيَّة، فلا مجال للحياديَّة أو الانسحابيَّة أو العدوانيَّة.

مضى الموارنة، عبر التاريخ، عراةً إلاّ من هذه القيم. سعَوا بموجبها، إكليريكيين وعلمانيين، إلى إدارة شؤونهم الدينيَّة، وإلى تنظيم أمورهم الدنيويَّة حيثما حلُّوا: لتمسّكهم بهويّتهم، ودفاعهم عن قيمهم. هُدرت دماؤهم، وهُدمت ديارُهم بالأمس، أمام عيٍّ المونوفيزيّين أحدانيي الطبيعة في المسيح، كما بوجه أحدانيي المشيئة.. وما زالوا يستشهدون اليوم بسبب ما يتوقون إليه، على يد أحدانيي الفكر - الإيديولوجيا القوميَّة الدينيَّة أو الثقافيَّة mono-idéologie، وبيد أحدانيِّي المشيئة السياسيَّة أو الحزبيَّة monopartisme, monolitisme, politique.

ذاك هو تاريخُ أولئك العصاة، عشّاق الحريَّة. أو أقلُّه تاريخُ سيرتهم في وجهها المشرق. فبعضهُم سقط في التجارب ولم يَقُمْ بعدَ صُياحِ الديك. أمّا الأنقياءُ والأتقياءُ والأنبياء من بينَهم، فإنّهم قياميُّون قدّيسون:

- بالقيم تَقدَّس مارون في حريَّة الهواء الطلق.
- بالأرض تقدَّس شربل في بذل الجهد.
- بالإنسان تقدّست رفقا في حمل الأوجاع.

هؤلاء، لا وقت عندهم للرّكوع في غير سجدة القربان. إنّهم يعبدون الأب - المحبَّة

وقوفاً، كما في الزّمن الفصحيّ، جاهزون. إنّهم إمّا على أهبةِ الإنطلاق لحمل رسالة الأنسنة والتّحرير في شرقٍ يغشاه الظّلم والظّلام، وإمّا هم منشغلون في احتفار الصخور، ورفعِ مشاعل المعرفة والخدمة أو رفع الصّلاة بعد دفن موتاهم، متى جار عليهم الجار... في كلّ الحالات، إنّهم بحالة قيام، قياميُّون.

يعرفون أنْ ليس هناك من يخيف، بل هناك من يخاف فيجبن ويخون الأمانة. أمّا هم، فواثقون بأنّ يسوع غلب العالمَ بقوّة الحبّ.

١.٢- ثبات وثوابت

محطّات ثلاث تضجُّ بالعِبَر هي:

أ- سنة ٤١٠ تحلّق الرهبانُ حول مار مارون، ذاك الناسكِ السّاعي إلى عبادة الله في الهواء الطلق anaeros bios كما وصفه تاودوريطس القورشيّ. فجدُّوا مثلَه طالبين حريّةَ الحريَّة* في العبادة، فلا تلجمُها حروفُ النّواميس، ولا تحجرُ عليها قوالبُ العَمارات حتّى ولو كانت دينيَّةَ المنشأ والمهمَّة.

ب- سنة ٦٨٥ بعدما شغر المقام الأنطاكيّ، أقام الرهبانُ لهم من أنفسهم شرعيَّةً استمدّوها من ممارسة إرادتهم الحرَّة، لا من فرمانٍ خارجيّ تُمليه عليهم أوامرُ بيزنطيَّةٌ أو أمويَّةٌ. إجتمعوا ونصبّوا عليهم بطريركاً رئيسَ أحد أديرتهم المتمتّعة كلّ باستقلاليَّة ذاتيَّة. تحدوهم رغبةٌ في استمرار تواصل الرسالة البطريركيَّة الأنطاكيَّة، وفي حسم مسألة التّساؤل حول مصدر شرعيَّة الحكم؛ أتهبطُ الشرعيّةُ من الخارج أم تنبعُ من الدّاخل، من الشعب؟ كان هدفهُم، في كلتا الحالتين، إدارةَ عيشهم الحريَّةَ بحريَّة، والتطلُّعَ نحو إشراك الآخرين معهم في نعمةِ وبطولةِ ممارسة الحريَّة بسلام.

ج- سنة ١٦٩٥، تلاقى الرّهبان وأعادوا تنظيمَ الحياة الرهبانيَّة في الكنيسة المارونيَّة. وكان هدفُهم تزخيرَ رسالة الحريَّة، والإنطلاقَ بها برسوليَّةٍ إلى كلّ من مات المسيحُ من أجله وقام.

إتّبعت الرهبانيَّةُ، عبر هذه المحطَّات التاريخيَّة الثلاث، هدفاً واضحاً، هو أن تكون ذاك

السامريَّ، للعناية بكلّ جريحٍ أريحا مجروحٍ في جسده، في خبز يومه أو خبز كرامته، ملقىً على قارعةِ طرق الشّرق، فتكون ذاك القيراونيّ في حسن اتّباع يسوع، على طريق جلجلته التي لمّا تَزَلْ جلجلتَها.

لقد قامتِ الرهبانيَّةُ بعدّة مهامّ، وأنجزتْ جملةً من المشاريع تصبُّ كلُّها في هدف واحد، هو مشروعُ تحضير محيطها Projet civilisateur تحضيراً قائماً على فعل أنسنة acte humanisant يطول أبعاداً ثلاثة:

أ- **أنسنة القيم**، بموجب فهمهم سرَّ التجسُّد، أدرك الرهبانُ أنّ يسوعَ أعطى للقيمِ وجهَ إنسان. فاندفعوا لتأوين هذه القيم في معاشهم اليوميّ، ومقياسُ صدقيّتهم صدقُ خدمتِهم القريبَ. تشكّل الحريَّةُ قاعدةَ نظامِهم، والكرامةُ قمّتَه، والسّلامُ نهجَه، والمحبّةُ روحانيّتَه. وما سُكناهم في وعورة الجبال سوى للحفاظ على هويّتهم وحرّيتهم وكلٍّ مشتقّاتها: الصّدق، العدل، المساواة، الخدمة، المصالحة، الضّيافة المشاركة، المروءة، الحقيقة،...

ب- **أنسنة الأرض**. أدرك الرهبانُ قيمةَ بذلِ الجهد للحفاظ على حرّيتهم. «أصبحتِ الأرضُ هي الأمُّ والزّوجة والحبيبة، بعدما جاءها الشّعبُ المارونيّ يتيماً تركته أمُّه أنطاكية، وخانه أخوه، ونهبه حاكمُه، وطعنه مَلكُه البيزنطيُّ. كانت الأرضُ، فاقترن بها وأصبحت بيتَه، فآوته بعد حرمان. زيَّنها بجميع الألوان؛ نصب لها عروشاً من العنب والزّيتون والتّين. طمعت نفوسُ الكثيرين بها. فكم من محاولةٍ للفصل بين الإنسان وأرضه بالقتل بالتّهجير. وإن يُقتلِ الإنسانُ يَمتزج رمِيمُه بترابها، وإن يُهجَّرْ أو يهاجرْ يَعُدْ بالحنين إليها»(٥).

ج- **أنسنة الإنسان**، لكون الإنسان خُلق على صورة الله imago deii فهو غايةٌ بذاته. في سبيله كان سرُّ التجسُّد والفداء. لذا اجتهد الرهبانُ في خدمةِ الإنسان من أجل الارتقاء به نحو شَرَفِ بنوَّة الله (أنظر أدناه)

٥- الأب ميشال حايك: «ما معنى أنّنا مسيحيّون هنا» أعمال المؤتمر الأوّل، بيت غازو، العدد الأوّل مركز الدراسات والأبحاث الرعويّة - أنطلياس ١٩٩٣، ص ١٢٩-١٣٠.

هناك نوعٌ من الزّواج المارونيّ يربط القيمَ والإنسانَ والأرض بنظر المارونيّة، يمكنُ بموجبه مطالعةُ أحداث التاريخِ قديماً وحديثاً، والنّفاذُ إلى قانون سوسيو–مارونيّ، مُفادُه:

بمقدار ما يتمسَّكُ الموارنةُ بالقيم بالأرض وبالإنسان ويدافعون عنها، بمقدار ذلك يكونون أقوياءَ شهودَ قيامة، فيجتذبون إليها من لم يكونوا معمّدين بها بعد. وبالمقابل، بمقدار ما يتغافلُ الموارنةُ عن القيم والأرض والإنسان أو يتغافلون عن إحداها، بمقدار ذلك تصيبُهم التفاهةُ، وتنزلُ بهم النوازل، حتّى يصيحَ الدّيك، وإلاّ فحتّى يومِ القيامة.

٢– الأرض مساحة حريَّة، وشرطها لبناء وطن الإنسان

٢.١– التحرّر بالأرض ومعها والتقدُّس فيها

تتفرَّدُ الرهبانيَّةُ المارونيَّة عن سائر المدارس الرهبانيَّة الباخوميَّة أو الباسيليَّة... لا من حيثُ التّنظيمُ الرهبانيّ[٦] وحسب، بل من حيث ارتباطُها بالأرض ومعنى تعاملِها معها ومرماه.

١– **إيمانيّاً**: لئن اعتبُرتِ الأرضُ مَلعونةً بسبب معصية آدم، وبمشقّةٍ يأكلُ منها طوال أيّامِ حياتِه، (تك ٣/١٧–١٩)، فقد اعتبرها الرّهبانُ مباركةً بسبب «نَعَمْ» المسيح، بل هي تَئِنُّ للخلاص به. كما الصلاةُ هي تَخاطبُ الراهبِ مع الله، كذا العملُ هو تَخاطبُه مع الأرض. وترى الراهبَ يتفانى في الصّلاة والعمل معاً.

ب– **أدبيّاً**: تحوَّل العقابُ في أمر «بعرق جبينك تأكل خبزك» إلى مقولة أدبيَّة حضاريَّة مع المسيح، بل اعتبرها الرهبانُ دعوةً إلى مشاركة الخالق في استكمال الخليقة تمجيداً للّه.

فبعرق جبينك تأكلُ خبزك، لا خبزَ غيرك. وبعرق جبينك، لا بعرق جبين سواك، تأكلُ خبزَك. وفي ذلك نهيٌ عن السّرقة والاستعباد، ودعوةٌ إلى النّضج النفس – إجتماعيّ وفق مبدأ الواقع principe de réalité وإلى الارتقاء الاجتماع – سياسيّ بالاستقلاليَّة الاقتصاديَّة.

٦– راجع الأب يوسف محفوظ: التّنظيم الرهبانيّ في الكنيسة المارونيّة. جامعة الرّوح القدس – الكسليك ١٩٧٠ ص ٣٤–٦٣.

د- **إكولوجيّاً**: تعلّق معظمُ الرّهبان بالأرض بسبب منشئهم الريفيّ الزراعيّ(٧)، فتلاقوا مع فلاّحي بيئتهم وشركائهم على اعتناق قيم التّعامل مع الأرض.

د- **اجتماعيّاً**: لجأتِ الرهبانيَّة إلى الجبل، وارتبطت بأرضِ لبنان، من أجل حماية حريَّة إيمانها وسدِّ عَوَزها المعيشيّ بعرق جبينها، فلا يتصدّقُ به عليها أحد، ومن أجل رعايتها شعبَها الذي تكوكب حولها كما لم يفعلْ شعبٌ آخر حول أيّةِ رهبانيَّة، فقاسمها شجونَها، وشاطرته مصيرَه.

«من جرّاءِ الخصبِ الروحيّ الذي عَنصر حياتَها كمتَّحدِ إيمان، وخَمَّرَ عجينَ بيئتها الإجتماعيَّة اجتذبتِ الرهبانيَّةُ المارونيَّة معمَّدين كثراً، شكّلوا معها شعباً رهبانيّاً، فجعلت منهم، كالرّسل الأوّلين، كنيسةً أنطاكيَّة»(٨). **أنشأتِ الرهبانيَّةُ المارونيَّة كنيسةَ الموارنة**، على عكس مألوفِ التّاريخ الكنسيّ حيث الرهبانيّاتُ هي وليدةُ كنائسها الأمّ. لم يكنْ نشوءُ الكنيسةِ المارونيَّة ممكناً لولا هذا الارتباطُ بالقيم بالإنسان وبالأرض الذي أبدته الرهبانيَّةُ فسعت إلى تأوين ملكوت الله ههنا والآن على هذه الأرض.

٢.٢- السّيادة على الأرض والسّلام

تسمحُ مقارنةُ إدراكات الأرض ما بين مجتمع جبل لبنان والمجتمعات المجاورة، بكشف رؤىً عميقةِ التَبَاين للقيم، للأرض وللإنسان. وتسمحُ بفهم معنى نضال الموارنة بالإشتراك مع أبناء شعب لبنان الطيّبين، في سبيل حريَّة الإنسان وكرامته، وفي سبيل تلقٍّ مجتمعٍ حقوقٍ يكونُ أكثرَ أخوَّةً وسلاماً. يظهرُ الجدولُ -١- بعضَ عناوين عمليّة المقارنة، أكتفي باستعراض أهمِّها:

أ- تملّك الرّهبانُ الأرضَ بسلام

تشكّلُ الأرضُ موضوعَ شهوةٍ إستحوازيَّة، تمنطقَ بها من تعاقب على السّلطة في الشّرق، منذ آشور والأكاسرة، والفراعنة والقياصرة، وبني أُميَّة والعبّاس... حتّى العثمان،..

٧- الأب مارون كرم: رهبان ضيعتنا، جونيه ١٩٧٥ ٢٧٢ صفحة. بحيث يعرض منشأُ الرهبان الجغرافيّ.

٨- سمير الخوري: الرعيَّة إطار حيويَّة الحياة المسيحيّة مؤتمر العمل الرعويّ. المجلّة الكهنوتيّة عدد ١-٢-١٩٩٣ ص ٤٨.

ولمَّا تزلْ سوسةُ الشّهوة ترعى مخيِّلاتِ أحفادِهم في الشّرق اليوم، للسّيطرة على الأرض بالفتح والإحتلال، بالغزو والمصادرة والتأميم، من المحيط الهادر حتّى أبعدَ من الخليج الثّائر[٩]. إنّ واقعَ لبنان اليوم هو خيرُ برهان على ذلك. بالمقابل تملَّك الرهبانُ أرضَهم بالسّلام[١٠] فبذلوا دون ذلك التّعبَ والجهد لمقاومة عواملِ الطبيعة ومقاومةِ جلاّدي الشّرق وزيرانهم[١١] تشكّلُ الوقفيَّاتُ أقلّ من ١٠٪ من مجموع الملكيّات الكنسيَّة: الرهبانيّة والإكليريكيَّة معاً. والـ ٩٠٪ الباقية إقتناها الرهبانُ بعرق الجبين، أي بأدواتِ السّلام. فتكرَّسَ هذا التّعاملُ مع الأرض باعتماده من قبل اللبنانيين، وبخاصّةٍ سكانِ جبل لبنان. ثمَّ التحوُّلُ إذ ذاك من أرض المارونيَّة إلى مارونيَّة الأرض»[١٢] كمفهوم مشترك لدى اللبنانيين.

٩- صُنِّفت الأرض منذ الفتح الإسلاميّ إلى أراضي الصلح الخراج، الصوافي الخاصّة، الغامرة.
راجع الماورديّ: الأحكام السلطانيّة ص ١٣٧-١٣٨ واقتطاع الأرض وتسليمها إقطاعاً لكسب النّاس إلى جانب الإسلام كما فعل الرّسول محمّد مع حمزة بن النعمان العذريّ، أو مع أبي رقيّة تميم بن أوس فأقطعه أرضاً في بلاد الشّام قبل أن تُفتح. (راجع القلقشنديّ: صبح الأعشى جزء ١٣ ص ١١٩-١٢٠ وطبقات ابن سعد جزء -١- ص ٣٠٢-٣٢١.
أو اعتماد إحدى سياسات الرّسول الثلاث في تعامله مع الأرض وساكنيها.
- مصادرةُ الأرض تبعاً لموقف أصحابها من الدّعوة الإسلاميّة إمّا بالطّرد. (مثلما فعل مع بني النضير وأهل خيبر) وإمّا بالقتل وسبي النساء والذراري (كما فعل الرّسول مع بني قريظة)
- تقسيم الأرض بين أصحابها والمسلمين
- إبقاء سكّان الأرض عليها لقاء جزية أو خراج. يؤدّونها للمسلمين. أنظر. محمّد علي نصرالله: تطوّر نظام ملكيّة الأراضي في الإسلام بيروت دار الحداثة ١٩٨٢ ص. ٥٠-٥٨.
١٠- الأب مارون كرم: قصّة الملكيّة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة - بيروت ١٩٧٢. فيعرض المؤلّف نوعيّة الملكيّات أوقاف، مغارسة وشراء.
راجع أيضاً على سبيل المثال حجج ملكيّات دير القدّيسين سركيس وباخوس - إهدن للأب شربل أبو خليل - إهدن ١٩٩٥. ص ٨٣ وما يليها. ودراسة الأباتي شربل القسّيس: الممتلكات والأوقاف الاكليريكيّة والرهبانيّة، تاريخ، واقع ومرتجى. قُدّمت لمجلس الأساقفة الموارنة، بكركي ١٩٩١، ص ٨-٩.
١١- قد ردّدت صدى هاتين المقاومتين الأدبيتين Resistance morale الصلاة الشعبيّة التي يتناقلها الموارنة شفويّاً باللغة اللبنانيّة. وقد تكون ترجمةً عن السريانيّة لغتِهم الأم: «يا ربّ لا تموّتني لا حريق ولا غريق، ولا مشنطل (مشحشط..) عَ الطريق، لكن قربانة طريَّة، وميتة هنيّة..» إنّ صورةَ القهر النازل بالإنسان، حريق غريق وعلى الطريق، تفيد من غدر عناصر الطبيعة: الجفاف، الفياضانات، وجرف المزروعات والبيوت،... كما تصوّرُ أشكال التعذيب الذي أنزله الجلاّدون بهذا الإنسان؛ الكيّ بالنار، الرمي في الجب والتهجير.
١٢- عنوان لمقالة تقوّم بها المطران حميد موراني في مجلّة الفصول عدد -٥- سنة ١٩٨١ ص ٤١-٦٤.

في الجيل الثاني عشر لفتَ الرحّالةَ ابن الجبير[١٣] ظاهرةُ الملكيّةِ الفرديّة في لبنان خلافاً لما كانت هي الحالُ في المجتمعات المجاورة.

جـدول ١: جدول مقارنة نموذجيّة إدراكات الأرض وإسقاطاته بحسب بيئة المجتمع

الخصائص \ البيئة	المجتمعات الشرقيّة	المجتمع اللبنانيّ
أصحاب العلاقة	القياصرة – الخلفاء – الأمبراطوريّات	سكّان جبل لبنان الموارنة
إمتلاك الأرض	إنتزاع بالقوّة	تملّك بالسّلام
وسيلة الإمتلاك	إنتزاع بالقوّة	العمل، وثائق حقوق
ملكيّة الأرض	– للسّلطان – إقطاع تسلسليّ	– للأفراد – ملكيّة خاصّة
صورة الأرض	– الأرض سلعة – الإنتفاع منها	– الأرض قيمة – تتميّز – إنتاج
الإرتباط بالأرض	– ترحال بدويّ في الواحات – عدم استقرار زراعيّ وسكنيّ	– لا واحات – إستقرار ثبات زراعيّ وسكنيّ
قاعدة نظام السّلطة	– نظام مائيّ سهليّ – مركزيّة مصدر الماء: النهر أو الواحة – مركزيّة السّيطرة على مصدر الماء	– نظام ريّ جبليّ = توزع مصادر المياه، ينابيع، عيون، سواق – تعدّديّة السيطرة على مصادر الماء
التّعامل مع السّلطة	– السّلطة قدسيّة – خضوع، خوف	– السّلطة خدمة – مشاركة، مساواة
الريفيّ المزارع هو	– الأجير، العبد، الرّقيق	– الشّريك، الفلاّح، العامل المنزليّ
التّعامل الهامشيّ	– السّخرة، أعمال شاقّة	– العونة، التّضامن

13- "En quittant Tibnin, nous avons traversé une suite de fermes et de villages aux terres efficacement exploitées. Leurs habitants sont tous musulmans vivent bien avec les Fronj leurs habitations leurs appartiennent et tous leurs biens leur sont laissés... or le doute pénètre dans le cœur d'un grand nombre quand ils comparent leur sort avec celui de leurs frères qui vivent en territoire musulman. Ces derniers souffrent, en effet, de l'injustice de leurs coreligionnaires, alors que les Franj agissent avec équité. {Cité in MALOUF. Amin: Les croisodes vues par les arobes. F.M.A 1983. P. 281.

١٣– إبن خلدون: المقدّمة. ص. ١٤٩ «.. غاية الأحوال عند العرب الرحلة والتغلّب وذاك منافٍ للسّكون الذي به العمران. فالحجر مثلاً، إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخرّبونها. والخشب أيضاً، إنّما حاجتهم إليه ليعمّروا به خيامهم فيخرّبون البيوت.... إنّ رزقهم في ظلال رماحهم».

ب- ارتبط الرهبان بالأرض صوفيّاً myotique

سُرى ابن البادية. وهو بحالة ترحال سعياً إلى ماء الواحةِ وكلأها. فالصّحراءُ كالمرأة، شرٌّ كلُّها وشرُّ ما فيها أنّه لا بدّ منها. بسبب إسرائه حمَّل لغتَه عجزه وإعجازه، وسكنَها كما يسكنُ بيته(١٤). أمّا الأرضُ المرويَّة فهي كلُّها هوميون، مُلكٌ للسّلطان، يُقطِعُها للوالي، والوالي للحاكم، وهذا للأمير، والأميرُ للإقطاعيّ، ممّا يُرهِقُ المزارعين....

إعتنى الرهبانُ بالأرض. واستقرُّوا. فتّتوا الصخرَ، جلَّلوا الوعرَ ليحيوا بحريَّة، حيث لا تصلُ جِمالُ الصحراء أو عرباتُ عسكر السلطان.

تعلّقوا بالأرض بصوفيَّةٍ مميّزة.

أ- أسماء الأعلام Onomastique

تعلّق الرهبانُ وشعبُهم بالأرض. ومنها اتّخذوا أسماءهم(١٤): العاقوريّ، الإهدنيّ،... خلافاً لمألوف أسماء جيرانهم: «لمّا رأى صلّى اللهُ عليه وسلَّم سِكَّةَ المحراث في بعض دور الأنصار قال، مشيراً إلى السكَّةِ: ما دخلتْ هذه دَارَ قَومٍ إلاَّ دخلهم الذُّلّ»(١٥). يتّخذُ الرُّحّلُ في الباديّة العربيّة أسماءهم نسبةً إلى ذويهم فلان إبن فلان وأبو فلان. وفي حال استُعيض عن الوالد باسم الله أو إحدى صفاته الحسنى، تحوَّلتْ لفظة إبن إلى عبد: عبدالله، عبد المطّلب، عبد الوهّاب، عبد الكريم...

ب- علم الدلالات الفيلولوجيا

أخذتِ الجذورُ الساميَّةُ للأفعال مدلولاتٍ مختلفةً، طبقَ البيئةِ الاجتماعيّة - الجغرافيّة

١٤- مثال ذلك: الراهب يوحنّا السبعلي، بطرس البزعوني، سليمان المشمشاتي، موسى البعيراتي.. الذين أرسلهم المطران جبرائيل البلوزاني لتشييد دير مار أشعيا وانطلاقة الرهبانيّة الأنطونيّة سنة ١٦٧٣.
ومثله الراهب يعقوب الحلبي، يوسف البسكنتاوي، طوبيّا الشبابي، جرجس العشقوتيّ... وهم رهبان كتبة مؤلّفون في الرهبانيّة المريميّة.
وأيضاً الرّاهب، يوسف الديرانيّ، مبارك الصباحي، شربل الجزّيني، أنطوان البكاسيني، جراسيموس التّدينيّ...
وهم بعضُ الرّهبان من بين ٢٩ راهب قتلوا في دير سيّدة مشموشة يوم ٢ رمزيران ١٨٦٠: راجع مجلة بالما العدد -٤- الجزء -٢- ١٩٩٤. ص ١١-٦٧.

١٥- إبن خلدون. المقدّمة، ص ١٤٢

حيث تداول النّاسُ بهذه الأفعال. مِثالُ ذلك فعل عبْادْ، إمار، لَحْمو.. إنّها تعني عمل – اشتغل، قال وخبزاً في السريانيّة، وتعني العبوديَّة، الأمر، واللحم في العربيَّة. كما يظهره الجدول –٢–

جدول –٢– جدول مقارنة فيولوجيّة لبعض الأفعال السّاميّة في السريانيّة والعربيّة.

الجذر الساميّ	مدلول السريانيّة	مدلول العربيّة
عبْاد	عمل، اشتغل	استعبد
إمار	قال، حكى	أمر، فرض
صَبرُوُ	رجاء، أمل	إحتمال، صبر
رحمو	حبّ، محبّة	رحمة، شفقة
كريهو	مريض، عليل	كريه، مقرف
لحمو	خبز	لحم
هلك	مشى، سار	هلك
اتدامار	تعجّب	تذمّر
آسي	شفى، طبّب	آس، أرض

ج– خبرة الأرض وخيار الحريَّة

تمتازُ نظريَّةُ النّظام المائيّ[١٦] بقدرتها على تفسير انحسار الاستبداد في مجتمع جبل لبنان وتفشّيه في المجتمعات المجاورة. بغيةَ الإفادة من نُدرة الماء ومركزيَّة مصدرِها الجغرافيّ، في نهر أو في واحة، لا بدَّ من قيامِ **سلطة مركزيَّة** تصبح وحدَها مالكةً الأرضَ وما عليها. فيَسهُلُ لها:

١– تعبئة العمالة، وقسمة العمل، وفرض الإنقياد لمشروعها.

٢– إيصال الماء من النّهر إلى الأراضي البعيدة لريِّها...

١٦– راجع نظريّة كارل فيفوغل: الإستبداد الشرقيّ ذكرى إمام عبد الفتّاح: الطاغية. منشورات عالم المعرفة. عدد ١٨٣ ١٩٩٤ ص ٣١٨–٣٣٢

٣- حماية الأرض والنّهر أو الواحة من الأعداء أو من العناصر الطبيعيّة، ومن الفيضانات
٤- توزيع الماء واحتساب توفّره في أيّام الشّح والجفاف
٥- عقلنة أعمال الريّ: قناطر، خزّانات، سدود أقنية، سُخْرَة، مراقَبة، معاقبة...

تشبه مجملُ هذه الأعمالِ الأعمالَ الحربيّة يقومُ بها حكمٌ عسكريّ. لذا يقومُ الحكمُ المائيّ على:

أ- مبدأ التّخويف، العقاب، الموت.

ب- مبدأ الإنصياع - الطاعة، الركوع، الاستزلام

ج- اعتبار الملك السلطان، سيادة الرئيس... الله... كأنّه القوّةُ الوحيدة الضروريّة الكبرى، لا يُستغنى عنها، يجبُ التغنيّ بها لكونها واهِبَة الماء والحياةِ وأرزاق النّاس.

وهكذا تُصبح السّلطةُ قدسيَّةً sacrale لا تُمَسّ. فالنّاسُ رعيَّةٌ، والأرضُ مرعى، والكلُّ مُلكٌ لصاحب السّلطة الأكبر. تلك هي الحال في الصّين والهند والعراق ومصر والمكسيك...

أمّا في لبنان فلوفرة الينابيعِ والعيون، ولوعورة الجبال، ولوفرة السّواقي حتّى ولو أُسميت أنهاراً، ولضيق رقعةِ الأرض الزراعيَّة عدا البقاع... لم يكنْ تفشّي الطغيان ممكناً. فالفلّاحُ عادةً هو مالكُ أرضه، وغالباً ما له فيها عينُ ماء.

لذا اعتُبر أنّ «الفلاّح المكفي سلطان مخفي» لكونه يتمتّعُ بالحريّة وبالشّجاعة قادراً على اتّخاذ البادرات والمواقف. فهو أغزرُ إنتاجاً من الأجير والعبد[٢٥]، يعي حقوقَه، ضنينٌ بها ويَنْهَدُ إلى الترقّي الإجتماعيّ، ويجهدُ لإرساء قواعدِ استقلاليّةِ مجتمعِه وسيادةِ وطنه.

25- "... Cette sécurité a paru un bien sipécieux aux habitants de la montagne du Liban, qu'ils ont déployé dans les rochers une industrie que l'on chercherait vainement en Egypte et en Syrie. Aforce d'art et de travail, ils ont contraint le sol rocailleux à devenir fertile... J'oubliais alos que j'étais en Turquie (Empire Ottoman) ou, si je me le rappelais, c'était pour sentir plus vivement combien est puissante l'influence, même la plus légère, de la Liberté..} VOLNEY. C.F: Voyage en Egypte et en Syrie. Tome -2- P. 96. cérit en 1775

٣.٢- الأرض وفكـرة الـوطـن وهـويّتـه.

١- مـن نظـرة مـوطـن إلى فكـرة وطـن

تسود الشّرقَ نزعةٌ إمبراطوريَّة توتاليتاريَّة تُقوّي أصحابَ السّلطة فيه، إنفاذاً للنّظام المائيّ القائم اليوم على سَائلين: الماء والنّفط. قاوم الرهبانُ والموارنةُ هذه النّزعةَ فتألّب ضدّهم تبّاعُها البيزنطيّون، ومثلُهـم الإسلاميّـون[١٧].

إستنبط الرهبانُ فكرةَ الوطن إنضاجاً لمفهومهم للأرض. فباتوا معها قادرين على التحوُّل **من الواقع الوطنيّ** situation، إلى الشعور الوطنيّ sentiment فالوعيّ الوطنيّ المقلق conscience. وعلاماتُ هذا التحوّل هي:

١- صياغة أسمائهم نسبةً إلى الأرض.

٢- إدخال أرض لبنان وجباله ورموزه في مواضيع صلواتهم وليتورجيّاتهم[١٨].

٣- إدخال رموز الوطن في الصّور والرّسوم والمنحوتات وعلى الثياب البيعيّة والبطريركيّة، وإتّخاذ شعار **«مجدُ لبنان أُعطي له»** شعاراً لدير بكركي.

٤- إقحام نداء «يا أرزة لبنان» على ترجمة طلبة السيّدة من اللاتينيّة إلى العربيّة.

٥- كتابة تاريخ لبنان والكنيسة المارونيّة، وإبراز أبطاله وأحداثه حقيقيَّةً أو ميتولوجيّاً، لتذهين النّاس. إطلاق تسمية المجمع اللبنانيّ ١٧٣٦ بدل المجمع المارونيّ.

٦- هناك مؤشّرات أخرى ومنها: مقولة لبنان الملجأ، وطن المستضعفين، مفهوم جبل لبنان، الزّجل...[١٩]

لم تبرزْ فكرةُ الوطن بوضوح وصفاء لدى شركاء الموارنة في لبنان وفي جبله لأسباب

١٧- ناصر الجميّل: ميّزات الشّخصيّة المارونيّة الذكرى المئويّة الرّابعة للمدرسة المارونيّة في روما الكسليك عدد -٧- ١٩٨٥ ص ١٣٥

١٨- راجع مجمل الرموز الزراعيّة في الليتورجيا المارونيّة لدى الأباتي يوحنّا تابت: إنسان الشخيمة المارونيّة مزارع طيّب. منشورات معهد الليتورجيّا عدد -١٥- ١٩٩٢، ص ٧٩-١٤٠

١٩- راجع الدكتور الياس القطّار: مفهوم الوطن في آثار تلامذة مدرسة روما. في الذكرى المئويّة الرابعة.. ص ١٦١-١٧٩.

أهمُّها. إنّ السُّنَّةَ هم على دين السلطان، أما الشيعةُ والدروز، فلم يتخلُّوا كفايةً عن اتّباع حكم السلطان، تسهّلُ لهم ذلك مقولةُ التقيّة.

يشهد لبنانُ انكفاءً جغرافيًّا للمسيحيّين عامّةً، وللموارنة خاصّة، نتيجةَ تهجيرهم، كان من جرّائه:

أ- اختلال لحمة التّواصل بين مُختلف الطوائف والمذاهب في لبنان في العيش ضمن قرىً مشتركةٍ.

ب- حيثُما انكفأ الموارنةُ برزت مكانَهم عصبيّاتٌ دينيَّةٌ وسياسيَّةٌ وسلوكاتٌ عدوانيَّة هي عكسُ الإنفتاحِ والاعتدالِ الذي دعا إليه الموارنة.

ج- حمل الموارنةُ فكرةَ وطنٍ لبنانيّ ورمزَه، فبانحصارهم اختفى العَلَمُ اللبنانيّ وانتشرت أفكارٌ تروِّجُ لضمّ لبنان إلى مجموعات محيطة.

ب- من مفهوم الأرض إلى فكرة أرض الإنسان

- حملتِ الرهبانيَّةُ، ومعها الموارنة، رسالةً قيّمة الإنسان وحرِّيتهِ الكيانيَّةَ. نظّمتْ بموجبها تعاملَها معِ الأرض ومع الإنسان. فناهضت بذلك مقولةَ الأمَّة القدسيَّة sacrale حيث لا حقوقَ للفرد، ولا قيمة له، إلاّ بمقدار عضويّته في جماعته: العشيرة، القبيلة، الطّائفة، المذهب، الأمَّة...

١- الشّراكة:

وحدها الرهبانيّة أوجدت حالةَ الشّراكة مع فلاّحيها، وبالتّالي مشاركة وإشراك الآخرين في استثمار الأرض وخيورها[٢٠]، فيما لم تعرفِ المجتمعاتُ المجاورةُ سوى نظامِ الأجراء والعبيد، والرقيق، والإماء، والخدم الغلمان، والخصيان، والمملوك[٢١]

٢٠- هناك تجنٍّ بنعت الرهبانيّة بالإقطاع كما في كتاب: تاريخ ملكيّة الأرض في لبنان، لميخائيل عون دار المصير ١٩٨٢ ص ٩١-١٠٨

٢١- خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربيّ ص ٨٤-٨٥.

٢- نضال من أجل الإنسان

منذ سرجون الأكّادي، والشّرق يُعيد إنتاجَ حروبِ الآلهة باسمها ومن أجلها؛ أكانت هذه الهةً في السّماء أم كتباً نُسبت إليها، أم بشراً وإيدولوجيّات مؤلّهة قدسيَّة.. فالنّاسُ هم وقودُ حروبٍ في سبيلها.

دعا الرهبانُ إلى النّضال من أجل الإنسان وفي سبيله إذ إنّه من أجل الإنسان كان التجسُّد والفداء. فالزّعيمُ والقائد... كالأب الذي يجوعُ ويشعر ويموتُ كي يَحيا أبناؤه. كذا هي صورةُ اللهِ الأب. بَذَلت الرهبانيَّةُ كلَّ ما في وسعها من أجل خدمة الإنسان، فأقامت أو ساهمت بإقامة:

أوّل مطبعة، أوّل مطالبة بتعليمٍ مجّانيّ، تعليم الفتيات وتعليم مهنيّ (راجع المجمع اللبنانيّ ١٧٣٦ أي أربعون سنة قبل الثّورة الفرنسيّة)، إنشاء أوّل جريدة، أوّل مرسح، وضع أوّل قواعد لغة، أوّل دائرة معارف، إطلاق أوّل دعوة لتحرير المرأة، أوّل ثورة ضدّ الإقطاع، أوّل إعلان جمهوريَّة ديموقراطيّة، أوّل مدرسة - جامعة متعدِّدة اللغات والاختصاصات (عين ورقة)...

٣- الدّير مدرسة جامعة العلوم

قام الدير بعدَّة مهامّ تعليميَّة. فالرّاهب هو المعلّم.

- تعليم القراءة والكتابة والحساب...
- تعليم فنون الزراعة، الفلاحة، الريّ، القطاف...
- تعليم فنون العمران، بناء الجلول، البيوت...
- تعليم فنون حرفيَّة: نجارة، حدادة، سكافة...
- تعليم فنون طبيّة، تداوٍ بالأعشاب، بيطرة...

٤- زراعة استقلال

إعتنى الدّيرُ بالزّراعات المتوسّطيَّة وطوَّرها. ومنها الكرمة، الزيتون، التين، الجوز واللوز، والخرنوب... وهي زراعاتٌ متعدّدةُ الاستهلاكات طويلتُه دون تَلَف. فالعنب مثلاً، يمكنُ استهلاكُه: ورق عنب، عنب مائدة، زبيب دبس، عرق، خمر، خلّ، سبيرتو...

واستعماله كمطهّر طبيّ، والاستعانة بالخمر في الأفخارستيّا. ومثله الزيتون... إنّها زراعةُ استقلال، واقتصادُ مقاومة، كونُها غيرَ مرهونةٍ لأسواق تصريفها، كما هي حالُ التفّاح والأشجار المثمرة اليوم.... لقد بدّلوا الزراعات، ولم يدعّموا السيادةَ الوطنيَّة بالمؤسّسات، فارتهنوا للخارج وأنهار الاستقلال اليوم...

٥- تحرّر المرأة

ساهمت زراعةُ التّوت وصناعةُ الحرير التي رعتها الرهبانيَّةُ في إرثاء قيمة المرأة كطاقةٍ على الإنتاج، لا كقدرة على الإنجاب وحسب. بفضل هذه الزّراعة، تعاطتِ المرأةُ عملاً مأجوراً خارج القطاع المنزليّ.

فبقدر ما تصيبُ المرأة استقلاليَّةً اقتصاديَّة، بمقدار ذاك تقوى على التحرّر الاجتماعيّ.

لذا، فالمرأةُ اللبنانيّة هي أكثرُ تحرّراً من أخواتها في المجتمعات المجاورة.

بارتباطها بالأرض تمكّنت الرهبانيَّةُ من إبداع

١- فكرة وطن

٢- فكرة متّحد - شعب حرّ

وهما أخطر فكرتين بوجهِ ذهنيَّة الإمبراطوريَّات، ويوجه مفهوم الأمَّة القدسيَّة، لكونهما فكرتين مشبعتين بمفهوم الحريَّة الكيانيَّة.

أدركتِ الرهبانيَّةُ أنّه، إذا لم يَقضِ المجتمعُ على حاجاته الإصطناعيّة، فحاجاتُه المصطنعةُ هذه سوف تقضي عليه لا محالة.

وأدركت أنّ وحدةَ الشّعب الذي يبذل الجهدَ بتقشّف، ليحظى بخبز يومه، يقوى على بذل الجهد للفوز باستقلال وطنه وسيادة شعبه.

٣- رسالة أنسنة الألف الثالث ورسوليّة أنجلته بالقِيَم.

يَتمُّ استمرارُ فعل الرهبانيَّة التاريخيّ في تحضير وأنسنة محيطها بالاستناد إلى قاعدتين تنفرجان إلى ثلاثة أبعاد.

١- الجسارة النبويّة

هي الجرأة الأدبيَّة لدى المعَنْصَرين بالرّوح القدس، في المجاهرة بالخير والحقّ دفاعاً عن ثلاث:

أ- **الإنسان:** جرأة النبي ناتان بوجه الملك داوود قاتل أوريَّا طمعاً بزوجة بتشابع (٢ صمو. ١٢/١-١٥)

ب- **الأرض:** جسارة النبي إيليًّا بوجه آحاب وإيزابعل قاتلي تابوت الإزراعيلي طمعاً بأرضه. (١ ملك ٢١/١-٢٩)

ج- **القيم:** وقفة الرّسول بولس بوجه الصفا في أنطاكية، المتلكّيء عن السّير بحسب حقائق الإنجيل (غلا ٢/١١)

٢- المشاركة في الإعداد وصناعة القرار Collégialité

تتمُّ معجزةُ تحويل الماء خمراً، وتكثير الخبز وشفاء الأشلِّ اليه (يو ٢/١-١٢)، متّى ١٤/١٣-٢١، متّى ١٢/٩-١٤) بمقدار ما تتمُّ شروطُها الماديَّة. فلو لم يجدِ التلاميذُ خمسةَ أرغفة وسمكتين لما كثَّرها يسوع لإشباع آلاف الجياع.

إنّ معنى هذه الشروطِ الماديّة اليوم، هو المشاركةُ في جمع المعلومات وترجمتِها إلى مشاريعَ قابلةٍ للتّنفيذ. المعلومات هي القوّة. «والرّوح يتكلّم فيكم»، لإنجاز ثلاث هي التوجّه والمشروع والخيار.

٣.١- التوجُّه: إلتزام أيديولوجيَّة الحريَّة

في بحثٍ[٢٢] أجريتُه حول ما يرجو العلمانيّون من الكنيسة في مرحلة الإعداد لسينودس الأساقفة من أجل لبنان، كانت الإجاباتُ حول بعض الأسئلة على الشّكل الآتي:

جدول -٣- توزيع الإجابات بحسب درجة الموافقة على بعض الأحكام. (١٠٤٢ مستجوَب أي مجموع ١٠٠٪)

٢٢- راجع نتائج هذا البحث في مجلّة الرعيّة عدد ٢٨٦ ١٩٩٢ ص ٨-١٦.

أحكام تطلق على الكنيسة	موافق	غير موافق	لا جواب
يجب أن تتخلّى الكنيسة عن ممتلكاتها لكي تعيش الفقر	٨	٦٧	٢٤
كنيسة سنة الفين يجب أن تكون كنيسة الفقراء	٦٨	٢٩	٢
ليس الخطأ أن تمتلك الكنيسة أوقافًا، بل أن لا تحسن التصرّف بها لخدمة الإنسان	٧٤	٣	٢٣
لا يتّخد المسؤولون في الكنيسة دوراً نبويّاً بوجه الظّلم والفساد الحاصل	٦٨	٢٥	٦
ليس المطلوب أن تلبّيَ الكنيسة كلّ حاجات النّاس، بل أن تبقى الصوتَ الصّارخ بوجه السّلطات المدنيّة من أجل خدمة النّاس	٨٩	٨	٢
اختصاص الكنيسة هو الدفاع عن القيم، الحريّة، العدالة.. أمّا تنظيم تلك القيم في المجتمع فهذا اختصاصُ العلمانيّين	٧٣	٢٥	٢

يُطالب الناسُ الكنيسةَ وبالتّالي الرهبانيّة أن تكونَ إلى جانب فقراء يسوع، وأن تبقى الصّوتَ الصارخَ بوجه الحكّام دفاعاً عن حريّة النّاس وكراماتهم وحقوقهم. تتلو القيمَ والحقَّ وتطالعُها في كلّ جسمٍ حقوقيّ يمشرعه العلمانيّون بجرأة نبويّة دفاعاً عن الإنسان.

٣.٢- المشروع: إعتماد تكنولوجيا حضارة المحبّة

تشكّل مساحةُ الأرض الزراعيَّة في لبنان ٣٨٪ من الأراضي اللبنانيَّة البالغة ١٠٤٥٢ كـ٢. تبيَّن بنتيجةِ إحصآتٍ دقيقة قام بها المشروعُ الأخضر[٢٣] أنّ مجموعَ مساحاتِ الممتلكات الإكليريكيَّة والرهبانيَّة في لبنان، يبلغ ٢٦,٠٠٠ هكتاراً، أي ما يعادلُ ٢,٥٪ من مساحة لبنان. أمّا المساحةُ المستصلحة وتلك التي يمكنُ استصلاحُها منها، فهي تشكّلُ الثلثَ، أي ما يعادلُ ٨,٣٠٠ هكتار، أي ما يعادلُ ٢٪ من مجمل أراضي لبنانَ الزراعيَّة، فيما الذين يتجنّون على الكنيسة يتّهمونها بامتلاكِ عشراتِ أضعافِ هذه النسبة.

هناك حلولٌ ثلاثة لكيفيَّةِ التّعاملِ مع الممتلكات الرهبانيَّة والكنسيَّة في لبنانَ.

٢٣- راجع الأباتي شربل قسّيس، نفس المرجع ص. -٨-

الأوّل – التخلّص من الأوقاف

التخلّص منها بالتخلّي عنها بيعاً أو هبة... يحملُ هذا الحلُّ أخطاءً ثلاثةً مميتة:

أ– التنكّر لماضٍ مجبولٍ بالدّمع، بالعرق، وبالدم، كمامرّ معنا أعلاه.

ب– تشويه الحاضر وإعطاء براءةِ ذمّة للحكم في لبنان، وشحن النّاس ضدّ الرهبانيَّةِ وفق ترويجِ مقولةِ أنّ الأوقافَ هي سببُ فقر النّاس، فيما ظلمُ الحكمِ هو السّببُ المسؤولُ وحَسْب.

ج– ارتهانُ المستقبل بحرمان الدّير من إمكانيّاته الماديَّة، وبالتّالي تهميشه.

لقد دَرَجَ حلُّ التخلّي عن الأوقاف على ألْسِنة بعضِ الإكليروس. في ١٩٩١/١٢/٢ قال السّفير البابويّ بابلو بونتي مخاطباً مجلسَ البطاركة والأساقفة الكاثوليك «أما يكونُ وضعُ جزءٍ من أملاك الكنيسة في خدمة المؤمنين بالطريقة التي ذكرتها (هبات) أو بغيرها أفضلَ أسلوبٍ لتحريك قلوب الجميع؟ ولهدم سوءِ التّفاهم؟ وهذا يحملُ فرحاً كبيراً، ليس فقط من جرّاء المساعدة الإقتصاديَّة، ولكنْ بالأخصّ، لأنّهم يستطيعون أن يقولوا مثل تلميذيّ عمّاووس «هذا هو الرّب»، سيّما وأنّ تلميذيّ عمّاووس لمْ يَفهما يسوعَ عندما كان يتكلّم، ولكنْ صدَّقا أعمالَه لمّا كسر الخبز»[٢٤] أيعتبرُ هذا تشخيصاً سليماً لأزمة اللبنانيين؟ أتكونُ الكنيسةُ مؤسّسةَ توزيعِ خدماتٍ ومنافع؟ أهذا هو دورُها أم دورُ الدّولة؟ أوَليس المطلوبُ أن يضعَ رؤساءُ الكنيسةِ أنفسَهم بخدمةِ الجميع، لا أن يضعوا فقط ممتلكاتِهم في الخدمة؟

الثّاني: تثمير واكتناز الأوقاف

ينهدُ الديرُ أن يكونَ بخدمةِ الفقراء، ويرفضُ التمثُّلَ بالغني تجاه إليعازر (لو ١٦/١٩–٣١) وتقليد أمراء العالم. إنّه يجهدُ أن يكونَ ذاكَ السامريّ الذي يدفعُ من ملكيّته ومن كينونته ما يساعدُ به كلَّ جريحِ أريحا في لبنان.

٢٤– سمير الخوري: الراهبة قوّة حضور وسلطة محبّة مكتب دراسات جمعيّة الرّاهبات الأنطونيّات ١٩٩٢

الثّالث: التجرُّد تجاه الأوقـاف

«كلُّ شبر بقبر». هكذا تملّكتِ الرهبانيّةُ الأرضَ، ومقصدُها: النّضالُ في سبيـل حقـوق الإنسان، التعلّق بالأرض، الدّفاع عن كرامة الإنسان، مقاومة كـلّ إخضاع واحتـلال، حمايّة الكيان والهويّة المتحدّية والـوطنيّـة... فـالأرضُ هي شرطُ ممـارسةِ الحـريّـة. وقـد وضعتها الرهبنةُ في خدمة الإنسان: فرهنت كلَّ أوقافِها للـدّولـة الفـرنسيَّـة أثنـاءَ الحرب العالميّة الأولى لقاءَ مالٍ تنفقُه لإطعام المعدمين اللبنانيين. استقبلتِ اللاجئين الفلسطينيين في أديارها سنة ١٩٤٨ والمهجّرين اللبنانيين منذ ١٩٧٥. هذه المهمَّةُ الإجتمـاعيَّـة هي ما نصّت عليه المادّة ٤٢ من قانون الرهبـانيّـة.

يقضي هذا الحلُّ، بالتجرّد في ضرورة استثمار الأرض خـدمـةً لـلإنسان، وفـق مشاريـعَ ثلاثة:

أ- مؤسّسة الانماء الزراعيّ لحسن استثمار الأوقاف بمشاركة جميع الرهبانيّات، إضافـةً إلى الاخصائيّين العلمانييـن.

ب- إطلاق «مدرسة الحياة» لإعداد أخصائيي الزراعة وكوادرها العمليَّة (مشروع الأباتي قسّيس).

ج- تحفيز المشروع السكنيّ الـذي أعـدَّه الصنـدوقُ الاجتمـاعيّ المـارونيّ، وأطلقـه البطريرك صفير في حـزيـران ١٩٩٤.

٣.٣- الخيـار: تـزخيـر استـراتيجيَّـة تحقيـق الـذّات معـاً

تشكّلُ نظريّةُ «تحقيق الذّات معاً» استراتيجيَّةَ عملٍ قاعديَّة. إنَّها الأكثرُ استيعاباً لأفعـال التحضير والأنسنة التي أنجزتها الرهبانيّة. يبقى أن تُقْدِمَ الرهبانيَّة، وتحسمَ أمرَ الخيـارات العمليَّة الكبرى تلك التي تسهِّلُها لها مبادئها الخمسة (راجع مقطع -١٠١- أعلاه)

١- السّيـر معـاً صفّـاً واحـداً أم في اتّجـاه واحـد؟

من الخطأ الاعتقادُ بأنّ الموارنةَ بشكل خاص، وسكّان الجبال بشكل عامّ، ساروا يـومـاً أو سوف يسيرون صفًّا واحداً. إنّهم يسيرون معاً في اتّجاهٍ واحد طبق ما يُمليه عليهـم

فهمُهم للحريَّة وللالتزام بها. وحدَهم دعاةُ التّسطيحِ أو الصّهرِ يُنشدون السّيرَ صفّاً واحداً، كما القوافل. أمَّا الأمراءُ، الذين لا يعانون «قلق الإنفصال» Angoisse de séparation، فإنّهم يرتاحون إلى السّير باتّجاه واحد، يحقّقُه كلٌّ بحسب خياراته وانتمآته الحزبيَّة أو السياسيّة، كما الماعز السائرة باتّجاه واحد في أصعبِ مسالكِ الجبال وعورةً، وليس بصفٍّ واحدٍ، أما انقسمتِ الرهبانيّةُ سنة ١٧٧٠ بعدما عاش كلُّ ديرٍ باستقلاليّةٍ منذ سنة ٤١٠؟ ولِمَ لم تنقسمِ الرهبانيّةُ الأنطونيّة أو المرسلون اللبنانيّون؟)

٢- أصِراع من أجل الآلهة أم من أجل الإنسان؟

يقضي فعلُ الأنسنة السليمة بنقل الصراع الاجتماعيّ إلى مستواه الصحيح؛ ومثالُه موقفُ يسوعَ من الرّجل الأشلّ اليد، نهار السّبت في المجمع، أي في الزّمن والمكان المقدَّسَين (مرقص ٣/١-٦). فالسّبت للإنسان لا العكس.

والسّبتُ دلالةٌ واضحة لكلّ مقدَّسٍ قدسيّ Sacrale، أكان حاكماً أم رئيساً، أم مقولةً إيديولوجيَّة، أم نظريَّةً، أم عشيرةً، أم مذهباً أم إلهاً».

الإنسانُ قيمةٌ مطلقة بذاته ولذاته. إنّه موضوعُ حقوقِ الإنسان.

٣- أمربَّعات مذهبيَّة طائفيَّة أم إنسان مواطن؟

تشدُّ أوّليّاتُ المربَّعاتِ الطائفيَّةِ - المذهبيَّة في لبنان إلى رهافةِ استفظاع كلِّ غبنٍ يَلحَق بالطّائفة، والتّعامي عنه إن لَحق بسواها. لذا تدفعُ الحريَّةُ الكيانيَّةُ بمعتنقيها إلى الارتقاء نحو الدفاع عن كلّ إنسان، أيِّ إنسان. فَلتتبارَ المذاهبُ والإيديولوجيّات في لبنان والشّرق في من يقوى منها على هذا النّوع من الدفاع. فمن نجح فاز، ومن تخلّف انقرض.

٤- أتعايشٌ أم الحريَّةُ هي القيمة؟

حَسَمَ البطريرك مار نصرالله بطرس صفير أمرَ التّعايشِ والحريَّة بقوله في شباط ١٩٩٣:

«إذا خُيِّرنا بين التّعايش والحريَّة، فخيارُنا واضحٌ: إنّها الحريّة». العيشُ المشترك وكلُّ مرادفاته، العيشُ معاً، التّعايش... ليس قيمةً بذاته أو لذاته. إنّه شكلٌ من أشكالِ المحاذاة.

وحدَها الحريَّةُ هي القيمةُ التي تشعُّ من فيضها على التعايش قيمتَه. بدون الحريّة يصبحُ التّعايشُ تعايشَ عبيدٍ ورهائن...

٥- أتعايشٌ أم تحقيقُ الذّات معاً؟

يتلازمُ تحقيقُ الذّات مع الحريَّة الكيانيَّة، ويشترطُها وُجُوباً لقيامه. إنّه يقومُ بها، وهي تقيمُ فيه. أمّا العيشُ المشتركُ فلا. قد يكونُ هناك تعايشٌ من دون حريَّة، ومثالُه زواجُ الإماء وما ملكت أيمانُكم، وتعايشُ الجلاّدِ مع السجناء، والمحتلّ مع ضحيّته، والزّواجِ المورغناتي، وتعايش أهل الأمّة مع أهل الذمّة... بحيث يكونُ تحقيقُ الذّات تامّاً لأحد المتعايشَيْن، وملجوماً محدوداً للآخر. يمكنُ للزميّين مثلاً تحقيقُ ذواتِهم اقتصاديّاً، تربويّاً، دينيّاً... ما عدا سياسيّاً. فوحدهم المسلمون، أهلُ الأمّة، يحقّ لهم تحقيقُ ذواتهم سياسيّاً، أمّا أهلُ الذمّة فلا.

إنّ كلّ حدٍّ من ميادين تحقيقِ الذّات هو ضربٌ لمبدأ تحقيق الذّات من جرّاء تقزيم الإنسان نفسَه والحَجرِ عليه في قمقم النواميس الدينيّة أو العرقيَّة...

يستوجبُ مبدأُ قيمةِ الإنسان وقيمةِ حرِّيته وكرامته، وبالتّالي مبدأُ المساواة الإنسانيَّة وحقوق الإنسان، الاعترافَ بمبدأ تحقيق الذّات بالتّساوي للجميع على المستوى السياسيّ.

تلك هي الديموقراطيّةُ بوجهها الإنسانيّ السّليم. إنّها التطلّعُ نحو تحقيق الّذات معاً على المستوى السياسيّ للجميع، من أجل ارتقاء الفرد والمجتمع سويَّةً، ومن أجل بناءٍ جديدٍ للبنان، أرضِ القِيم ووطنِ الإنسان، بناءٍ يتمُّ برافعةِ الحريَّةِ وبأداة السّلام.

٤- أنتم ملحُ الأرض وخميرٌ لعجنة الشّرق

بخلافِ مؤسّسي الديانات ومصلحيها، لم يكنْ يسوعُ مشترعاً، لا في أُصول العبادات، ولا في أحكام المعاملات، بل استودع المؤمنين به كنهَ ذاتِه وديعةَ محبّةٍ، واسترعاهم العالمَ كلَّه. باح لهم بسرِّ الآب. أباح لهم النّظرَ في كلّ أمر. دعاهم كأناس راشدين خلاّقين أحراراً، إلى تأوين المحبّة في جسم قوانين وشرائع يجدِّدونها باستمرار.

لم يعطِ المسيحُ تلاميذَه واحدةً من أدوات منطق العالم. فما أعطاهم قوّةَ الرّومان ولا حكمةَ اليونان، لا انسحابيَّةَ الحسانيِّين ولا انبطاحيَّة الصدوقيين، لا تزمّتَ الفريّسيين ولا أُصوليَّة الغلاة. بل أعطاهم روحَه الذي يصرخُ فيهم، أبًا، أيّها الآب. به تعنصروا وانطلقوا شهودَ قيامةٍ يشهدون للحقّ. هؤلاء كانوا رهبانَ الأمس. هم معمّدو الألف الثالث. إنّهم ملحُ الأرض، خميرٌ لعجنة الشّرق. هل يطلبُ الخميرُ ضمانةً لنفسه؟! الخميرُ هو الضمانة.

القسم الخامس

الجلسة الخامسة

الموضوع الإنتماء والهويّة

المحاضرون

الأب سليم دكّاش

النّائب بشاره مرهج

الدكتور فادي مغيزل

الدكتور مصطفى دندشلي

كلمة الأب سليم دكّاش اليسوعيّ

الإنتماء والهويّة: قضيّة الرهبانيّات في لبنان والشّرق

الانتماءُ والهويّةُ قضيّتان في قضيّة واحدة، تأخذُ أبعادَها اليوم في دور الرهبانيّات، وفي مستقبل الرسالة الرهبانيّة في لبنانَ وفي الشّرق، وفي مناسبة الذكرى الثلاثمائة لتأسيس الرهبانيّة على أيدي الثُلاثيّ الروحانيّ عبدالله قرألي وجبرائيل فرحات وجبرائيل حوّا. قضيةُ الإنتماء الرهبانيّ والهويّة الرهبانيّة تفرضُ نفسَها علينا، في زمن السينودس من أجل لبنان وفي زمن المتغيّرات والتقلّبات، وتدعو جميعَنا إلى النّظر في ما هو الأساسُ والجوهر، فيكونُ هذا الأساسُ هو المقياسُ لعملنا، وحتّى لنظرنا إلى الماضي والحاضر وحتّى لرسالتنا التي هي في الكنيسة.

معنى بدايات الرهبانيّة في الشّرق

ليس من النّافل القولُ، إذا ذكرتكم، بأنّ بدايةَ الرهبانيّة في العالم المسيحيّ كانت الشرقَ نفسَه، وبالتّحديد أرض مصر موطن أنطونيوس أبي الرهبان، حتّى أنّ الرهبانيّةَ مع القرن الرابع أصبحت ظاهرةً شرقيّة شاملة إرتبطتْ بها أسماءٌ لمعتْ في تاريخ المسيحيّة أمثال أنطونيوس وباخوميوس وكاسيانوس وسمعان العاموديّ وغيرِهم من الرّهبان. والواضحُ أنّ الرهبانيّةَ، في تفكير وروحانيّة الأوّلين، كانت استمراراً لروحانيّة الاستشهاد من أجل الملكوت الحقّ، التي طبعتِ القرونَ الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحيّة. الرهبانيّةُ جاءت أيضاً كردّة فعل على المسيحيّة التي دخلت مع بداية القرن الرابع في عالم السياسة والاقتصاد والمدنيّة، وبالتّالي عالم التّراخي والإبتعاد عن قيم الإنجيل. الرهبانيّةُ في بدايتها المشرقيّة هي فعلُ احتجاج على الفساد السائد وعلى مساومة البعض مع العادات والتقاليد الوثنيّة، وهي موقفُ رفض يقولُ بأنّ قيمَ الإنجيل تأتي أوّلاً وهي المقياسُ لكلّ عملٍ وموقفٍ وانتماءٍ ومشروعٍ عالميّ. هذه الروحانيّةُ هي التي قادتِ المئات، لا بل الآلافَ من المؤمنين والمؤمنات إلى اختيار حياة العزلة

والوحدة والتوحّد من أجل المسيح وإنجيله، لا بل مع المسيح يسوع. وهذا الاختيارُ أصبح تحرّراً، مع بعض الإفراط والتجاوز، من كلّ مجتمعٍ أيّاً كان لونُه، التحرُّر من المؤسّسات المنظورة كالعائلة والطّائفة والمنطقة والقبيلة والحزب... ليصبحَ همُّ الرّاهب، بمختلفِ وجوهه، أكان متوحّداً أم ناسكاً أو ديريّاً، أن ينتميَ إلى ملكوت الربّ في إطار شعب الله عبر طرقٍ روحانيّة متنوّعة، فيها التقشّفُ والعملُ الروحانيّ والصّلواتُ والزّهدُ والصّومُ حتّى الاستنارة التي تقودُ إلى الوحدة. فالرهبانيّةُ هي طريقٌ إلى توحّد الرّاهب بذاته وتوحيدِ ذاته عبر التحرّرِ من كلّ الوسائط وعبر ترويض النّفس والعفّة وترك كلِّ شيء من أجل ملكوت المسيح، السّلام والفرح والعدالة والحقّ والحريّة، وهي قيمٌ تأتي في ختام سعيِ المتوحّدِ وجهاده.

ثابتتان من الثّوابت: التأصُّل والروحانيّة

هذه صورةٌ موجزة للمثالِ الرهبانيّ الروحانيّ الذي عاشته الرهبانيّةُ الأولى كحياة عزلة وحياة شركة، أريدُ أن أكمّلهَا بثابتتين من الثّوابت: لم تكنِ الحياةُ الرهبانيّة بعيدةً عن الكنيسة وعن شعب اللّه، بل هي من صلب الكنيسة وفيها، وقد أتى مختلفُ القوانين ليؤمّن استمراريّةَ الروحانيّةِ الرهبانيّة ورسالتَها في الكنيسة. ولم تكنِ الرهبانيّةُ بعيدةً عن هموم الدنيا وعن الجسد الاجتماعيّ، بالرّغم من بعض المغالاة والتطرّف في رفض العالم، فهي إنجيليّةٌ في نظرتها إلى العالم حيث أنّ همَّها هو خلاصُ العالم وتوحُّده. أحدُ الرهبان النسّاك من القرن السابع يقولُ موجزاً علاقتَه بالعالم: «المجدُ لك أيّها الآب ويا ربَّ حياتي يا من جعلتني رباطاً لجميع الخلائق لكي تصعدَ بي الخلائقُ كلُّها تسبّحُك». هذا الرّاهبُ الناسك كرّس نفسَه ليكونَ في خدمة العالم، فيحملُ العالمَ كلَّه إلى اللّه. إنّها طريقُ الرهبانيّة في نقائها وحقيقتها وجوهرها. الهويّةُ الرهبانيّة، من خلال اختبار الحالة الرهبانيّة الأولى وقد امتدّت على العصور اللاحقة حتّى اليوم، هي أن نكونَ للمسيح نفسِه وأن نكونَ ثانياً للمسيح في وجوه إخوته وأحبّائه حيثما وُجدُ الرّاهب، فيساعدُ شعبَ اللّه في أن يصلَ إلى كمال دعوته وأن يحقّقَ ذاتَه.

والثّابتةُ الثانية التي أتت بها الحياةُ الرهبانيّة عبر مرحلتها الأولى حتّى الفتح الإسلاميّ هي ارتباطُ تلك الحياةِ بروحانيّةٍ متكاملةِ الوجوه أكانت في تعبير يونانيّ أم قبطيّ أم

سريانيّ. فالشّرقُ المسيحيّ هو صاحبُ الروحانيّة الأولى في الكنيسة، أي النّظر الواقعيّ إلى الحياة وإلى حياة المؤمن كانشراد وتوقٍ إلى المطلق. الروحانيّةُ هي تلك الرؤيةُ وتلك الممارسةُ التي تجمعُ بين القيم والمبادء من ناحية، وبين واقعِ الإنسان وتاريخيّته وهي قوّةُ الدفع المستمرّة لأيّ مشروعٍ يرمي إلى أن يحقّقَ الإنسانُ دعوتَه وجوهره.

ربّما يرى البعضُ في هذه الصورة المثاليّة للحياة الرهبانيّة تحرّراً من الإنتماء، أو دعوةً إلى اللاانتماء. الواقعُ أنّ الانتماءَ هو على نوعين: الأوّل انتماءٌ منطقيّ حسابيّ خارجيّ؛ فالانتماءُ المنطقيّ علاقةٌ اعتباريّة محدّدة بين الفرد والصنف أو الفئة التي يدخلُ هذا الفردُ في نطاقها. والثّاني الانتماءُ الوجوديّ الاجتماعيّ، وهو انتماءُ علاقةِ هويّةٍ ومصير بين الفرد وجماعةٍ محدّدة معنيّة. وفي هذا الانتماء الأخير لا بدّ من إظهار محدوديّة الانتماء كانتسابٍ إلى حبّ معيّن أو بيت معيّن أو بطن معيّن... بالرّغم من أنّ البعضَ يرى في هذا النّوع من الانتماء علاقةَ هويّةٍ تربطُ أفرادَ الجماعةِ المباشرة بعضهم ببعض.

هذا الانتماءُ لا مكانَ له في الحالة الرهبانيّة أكان للدلالة على الرهبانيّة كحياة مشتركة، أو على الرهبانيّة في علاقتها بالعالم المحيط بها. هذا الانتماءُ لا مكانَ له في الحالة الرهبانيّة، لأنّه يجعلُ من الفرد عضواً على أساس ارتباط خارجيّ، وهو انتماءٌ قابل للانقطاع في أيّ وقت.

إنّ الانتماءَ الذي هو في صلب الحياةِ الرهبانيّة وجوهرِها لا بدّ أن يكونَ انتماءٌ يتضمّنُ علاقةً قويّةً، روحيّةً، متأصّلةً في الذّات والنّفس، علاقةً عميقةً تحوّلُ العضويّةَ في حياة الجماعة إلى تفاعل حيويّ مصيريّ. إنّ الإنتماءَ الوجوديّ الاجتماعيّ يمكنُ أن يكونَ متعدّداً ومتنوّعاً فتتكوّنُ لدى الفرد مجموعةٌ من الانتماءات التي لا بدّ له أن يرتّبهَا ترتيباً متوازناً في شخصيّته لكي يحافظَ على التّوازن والانسجام. وربّما يترتّب عليه أن يغلّبَ انتماءٌ على آخر في حال تضاربِ تلك المجموعة من الانتماءات. ولا شكّ أنّ تعدّدَ انتماءاتِ المجتمعِ نفسِه، وتضاربَها أحياناً، وتنافسَها أحياناً أخرى وتعقّدَها، هذه كلُّها تنعكسُ على الحالة الرهبانيّة اليوم، كما هو الأمرُ بالنّسبة إلى أيّ فرد من المجتمع. وفي إطار الحياة الرهبانيّة والكنسيّة، لا شكّ أنّ من مواضعِ الإشكالِ علاقةَ الشموليّة

بالخصوصيّة أو الخصوصيّة بالخصوصيّة الأخرى، أهذه العلاقةُ هي علاقةُ نفيِ الآخر، أم علاقةُ تغليبٍ، أم ترتيبٍ أو توفيق!

الإنتماء الثلاثيّ

إنّ انتماءنا اليوم هو ثلاثيّ:

أوّلاً نحن ننتمي إلى الكنيسة الجامعة، وفي الوقت عينه إلى الكنيسة الشرقيّة، ورهبانيّاتُنا، منها من مصدرٍ غربيّ، ومنها من مصدر شرقيّ.

- إلاّ أنّ الانتماءَ إلى الكنيسة الجامعة لا يمنعُ أن تكونَ همومُنا هي همومُ الكنيسة الشرقيّة بقدر ما تعبّرُ هذه الهمومُ عن حاجات الكنيسة، ولا يمنعُنا أيضاً من أن نحملَ كذلك همومَ الكنيسةِ الجامعة والكنائسِ الأخرى؛ وذلك نابعٌ من جوهر هويّتنا ورسالتنا.
- رسالتُنا هي من رسالة الكنيسة، بقدر ما للكنيسة المحليّة دعوتُها الخاصّة، ورسالتُها الخاصّة في محيطها الشرقيّ العربيّ الخاص.
- المجمعُ الفاتيكانيّ الثّاني دعا الرهبانيّاتِ، كلٌّ في موقعه، إلى إصلاح ذواتها وإلى الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيّاتِ الثقافيّةَ، إذ إنّ لكلّ شخصيّةٍ ثقافيّة ميزتَها وغناها، وأصبح بالتّالي الانتماءُ إلى الشموليّة هو انتماءٌ إلى روحانيّةٍ لها منطلقاتُها ومبادئها، إلاّ أنّ هذه مدعوّةٌ أن تتأقلمَ وأن تتجسّدَ في أوضاعٍ معيّنةٍ محدّدة.
- لسنا في هامش الكنيسة أو فوقها أو النموذج المثاليّ، بل دعوتُنا ورسالتُنا هي أن نكونَ تلك العلامةَ الفارقة بمشوراتنا الإنجيليّة، وبالموهبة التي أُعطيت لكلٍّ منّا، التي تذكّرُ شعبَ اللّه بمعنى التزاماته في المدينة البشريّة وبأنّ هدفَه الأخير هو المدينةُ السماويّة. إنّنا كلّنا، إلى أيّ روحانيّةٍ انتمينا، نقومُ بهذه الخدمة، بكلّ أمانةٍ وتجرّد، فإذا كانتِ الرهبانيّاتُ ذاتُ المصدرِ المحليّ، هي رسوليّةٌ في خدمتها للإيمان ضمن نطاق الخصوصيّة، على مثال الليتورجيّة والخدمة الراعويّة...، فإنّ الرهبانيّاتِ ذاتَ المصدرِ الغربيّ والتي لها انتشارٌ عالميّ في كلّ الأصقاع والعوالم تقومُ بدور الرديف المكمّل للخدمة حيث يجب ذلك، فيحملُ همَّ الوحدة بين

الكنـائس، والحـوارِ الإسلاميّ المسيحيّ، والتّـراثِ المسيحيّ المشرقيّ، والـلاهـوتِ المسيحيّ العـربيّ المشرقيّ.

الانتماءُ هو انتماءٌ إلى كنيسة شرقيّة واحدة. وهذا الانتمـاءُ جعل من الرهبانيّات ذاتِ المصدرِ الغربيّ جزءاً من الكنيسة المحلّية دون أن يُفقدَها طابعَها العالميّ، وجعل من الرهبانيّاتِ ذاتِ الارتباط المحليّ جزءاً من الكنيسة الجامعة فتغنيها بروحانيّتها الخاصّة... هذا الانتماءُ هو انتماءٌ تكامليّ بحيث أن لا تضاربَ في الخدمة والرّسالة، بل إنّ توزّعَ الأدوارِ هو بهدفِ جعل الرّسالة فاعلـةً ونـاجحـة.

نحن نكمّلُ بعضُنا بعضاً. ومن هذا المنظار لا بـدّ أن نكمّـلَ رسالتَنـا.

وثانياً نتتمي إلى روحانيّاتٍ متعدّدة، حتّى ضمن الشّرق نفسِه، وحتّى في إطار الغربِ عينِه. نحن ننتمي إلى روحانيّات مختلفة، لأنّ الدعوةَ الرهبـانيّـة هي جـوابٌ مميّـز على دعوة خاصّة متميّزة. إنّ روحَ الربّ هو الذي في الكنيسة نوّع المـؤسّساتِ الـرهبـانيّـةَ. وهو الذي يدفع كلَّ فرد إلى عطاء ذاتهِ ووجودهِ من خلال واحدةٍ من هذه المؤسّسات.

الخطرُ في الانتماء إلى الروحانيّة، كطريق خاصّ لعيشِ قيم الإنجيل وقراءةِ الأحـداث وعلاماتِ الأزمنة هو مزدوجٌ: أن تجعلَ من تلك الروحانيّة أمراً مطلقاً على الإطـلاق، أو نسقط في تجربة التعلّق بتقاليدَ ورثنـاهـا من المـاضي بشكـلٍ أعمى، فتصبحُ تلك الروحانيّةُ شيئاً جامداً متحجّراً منغلقاً على ذاته، أو ننظرُ إليها وكأنّها متحفٌ خـالٍ من الحياة، بدل أن تكونَ منطلقاً إلى الحياة والحياةِ المستقبليّة الـوفيـرة. فـالأمـانـةُ الحقيقيّـة للتقاليد والمؤسّسين هي أن تبقى الحياةُ الـرهبـانيّـة في حـالـة تـأسيس مستمرّ، فيكـون المستقبل مؤسّساً على تمييز روحيّ أكيـد، لا على مجـرّدِ عـواطـفَ وأفكـارٍ تجـاوزهـا الزمنُ، وابتعدت عن حالة الإنسان المعاصر الـذي ينبغي تحـريـرُه.

مع المجمع الفاتيكانيّ الثّاني ومع الكنيسة اليوم، ومع سينـودس الحيـاة المكـرّسة، لـن نستطيعَ من بعد أن نرى تغليبَ روحانيّةٍ على أخرى أو أن نتركَ الروحانيّةَ أداةً للسّيطرة أو أداةً ثقافيّة لقهر الآخر، بل إنّ الـروحـانيّـةَ في المـؤسّسة التي تجسّـدُهـا تـدعـو إلى

الإنثقاف أو التثاقف، أي إلى التجسّد في ثقافةٍ أخرى. ومقياسُ نجاحِ هذه الروحانيّة هي في قدرتها على التكيّفِ مع كلّ ثقافة، وأن تصبحَ جزءاً من هذا الإطار الثقافيّ.

وثالثاً نحن ننتمي إلى مجتمع معيّن، إلى العالم الذي نحيا فيه ونعيش. وهذا الانتماءُ لا بدّ أن يؤدّيَ في إطار دعوتنا إلى التزامٍ بقضايا عالمنا ومشاكلهِ وصعوباتِه. الانتماءُ من دون الالتزام الوجوديّ هو مجرّدُ انتساب خارجيّ. هويّتُنا الإنجيليّة، كأتباع للسيّد المسيح، حيثما حللنا ومن أيٍّ روحانيّةٍ كنّا، تدفعُنا دفعاً للالتزام بقضايا إنسانِ اليوم، حيث هذا الانسانُ هو في الجهل الروحيّ، في العبثيّة، في الإستهلاكيّة، في الفقر والبؤس، في الحرمان من حقوقه أيّاً كانت هذه الحقوق. الحياة الرهبانيّة، أكانت من روحانيّةٍ شرقيّةٍ أو غربيّة، لا تعرفُ في هذا المضمار إلا الحقّ والحقّ وحدَه يحرّرُ ويبني.

ويجاري الإلتزامَ، كتعبيرٍ حسّي للإنتماء إلى هذا العالم اللبنانيّ الشرقيّ العربيّ، إيمانٌ بأنّ هذا الإلتزامَ يؤدّي إلى الفداء، أي أن يكونَ الراهبُ والحالةُ الرهبانيّة في المقدّمة لا في المؤخّرة. أي إنّ الالتزامَ لا يكونُ في النزعة الخطابيّة، بل في البذل والعطاء بدون حساب. ولا يكونُ أيضاً في نزعة الظهور والبروز، بل في العمل الصّامت المحبّ. وهذا الالتزامُ - الفداء، نظراً إلى جامة القضايا والمشاكل المطروحة، لا بدّ أن يدفعَ مؤسّساتِنا الرهبانيّةَ إلى العمل الواحد في زمن الانهيارات المتنوّعة وإلى ضرورة التّلاقي بهدف جعل المستقبلِ، مستقبلَ الوطنِ والإنسان. ولن يكونَ هذا المستقبلُ قائماً على أسسٍ ثابتة قويّة، عميقةِ الجذور، إلاّ بمقدار ما نعملُ بذهنيّةٍ منفتحةٍ على الآخر.

في ختام كلمتي، أتوقّفُ عند الثّوابت الآتية:

الانتماءُ إلى الشموليّة لا يتنافى مع الخصوصيّة، لأنّ الخصوصيّةَ في انفتاحها على الشموليّة تُغني نفسَها وتُغني الشموليّة، وهي بالتّالي تجدُ المقياسَ لنقد ذاتها ومسيرتها.

الرسالةُ الرهبانيّة اليوم، كما في الأمس، مهمّتُها أن تصيغَ الروحانيّةَ التي تتوافقُ مع متطلّباتِ وطموحاتِ أنسانِ اليوم، أنسانِ الحداثة، لا أن تعيدَ أشكالَ الماضي بصورة

جامدة. الروحانيّةُ هي حياةٌ روحيّة، حياةٌ في الرّوح وفي أفكار الإنجيل المباشرة، حياةُ القيامة والتطـويبـات.

الانتماءُ الرهبانيّ في هويّته الإنجيليّة، كن للمسيح وإنجيله، وهي هويّـةٌ يعطيهـا الـربُّ نفسُه، لا يجعلُ منّا أناساً أفضلَ من غيرنا، كاملين أكثرَ من غيرنا، بل هو تحذيرٌ بـأن ننتبهَ إلى ما هو أنانيٌّ في أيٍّ انتماء آخر، ونميّزَ الأنانيَّ من غيره أكان عائليّاً أو مناطقيّاً أو طائفيّاً.... وأن تكونَ لنا الشجاعـةُ في نبـذ تلك الأنـانيّـة.

الرسالةُ الرهبانيّة، اليوم ومستقبلاً وانطلاقاً من رسالة السينـودس مـن أجـل كنيسة لبنـان، هي التذكيرُ المستمرّ بأنّنا كنيسةٌ، جسدُ المسيحِ المسكونيّ، لا مجموعاتٌ أو طوائـفُ مشرذمةٌ، لكلٍّ مجموعةٍ مصلحتُها ومستقبلُها بـالانفصال عـن الآخـريـن.

رسالةُ الرهبانيّة هي أن تكونَ خادمةً للكنيسة ولشعب اللّه، فتكـونُ لا فقـط المـؤسّسةَ التي تعطي بالكمّ والعدد، بل تساعدُ شعبَ اللّه في تمييز طريق المستقبل لكي يكـونَ هذا المستقبلُ قائماً على روح المحبّة والمصالحة والتّعاون والحـقّ.

رسالةُ الرهبانيّة هي أن تجعلَ الإيمانَ بالمسيح إيماناً حيّاً متفاعلاً مع بيئته، إيماناً متجذّراً على الـدوام.

كلمة النائب بشارة مرهج

الهويّة والانتماء

مصدرُ إشعاع الرهبانيّات اللبنانيّة تركيزُها الدؤوب على مسألتين:

الأولى: الإيمان باعتباره فعلاً دائميّاً يربطُ المخلوقَ بالخالق، وفعلاً إيجابيّاً يجسّدُ إنسانيّةَ الإنسانِ على الأرض حيث هو مميّزٌ بين المخلوقات.

الثانية: الأرض بإعتبارها مسرح الإيمان واطارَه الطبيعيَّ حيث الالتصاقُ بها، والعملُ على إحيائها، والذّودُ عنها، والجُودُ بالنّفس في سبيلها يرفعُ من مستوى العلاقةِ بينها وبين الإنسان إلى مرتبة القداسة.

والأرضُ، بهذا المنظور، ليست بقعةً جغرافيّةً للعمل المثمر، أو ميداناً للعيش الانسانيّ فحسب، بل هي أيضاً المكانُ الذي يجعلُ من المجموعة البشريّة مجتمعاً إنسانيّاً له جذورُه ووجودُه ورسالتُه، كما هي المكانُ الذي يجعلُ من المخلوق كائناً مجتمعيّاً يمارسُ فعلَ الإيمانِ مع الجماعة بحريّةٍ وحرارةٍ واطمئنان.

لقد جاهد الإنسانُ، في كلِّ مكان، في سبيل أرضِه، لأنّها كانت مصدرَ عيشهِ، ومثوى أجداده ومسرحَ حياته، وميدانَ آماله.

وكما في بقاع الدنيا، كذلك في لبنان، ارتبط مفهومُ الأرض بفكرةِ الحريّة، حيث لا معنى حقيقيّاً لانتماءٍ ما إلاّ على أرضٍ يستطيعُ فيها الإنسانُ أن يمارسَ حريّتَه إيماناً وعملاً واختياراً.

ويصعبُ على المرء بالفعل أن يغوصَ في فكرة الانتماء، لأنّه من المستحيل أن يفصلَ نفسَه عنها فيتجرّدُ تماماً في نظرته وهو ما هو عليه بسبب انتمائه هذا بالذّات، هذا الانتماء الذي يبدأُ قدراً يصوغُ حياةَ الإنسان ويتحوّلُ خياراً ينجذبُ إليه الإنسانُ بحبٍّ يكتنفُه التساؤلُ وتجوهرُه المعاناة. فالإنسانُ، في مسيرته، يلتحمُ بقدره دون إرادته،

ولكنّه يمارسُ حريّتَه في الانتماء والعمل ضمن هذه بقدر ما يتفهّمُ ضروراتِها ويقتنعُ بمقتضياتها فيُقبلُ عليها بحيويّة وتوثّب.

والانتماءُ في هذا المجال يعبّرُ عن قوّةٍ إيجابيّة بنّاءة، سواءٌ في الفرد أو المجتمع، خصوصاً إذا تسنّى له أن يعبّرَ عن نفسه وأن يأخذَ أبعادَه في ظلّ علاقاتٍ داخليّة صحيّة تسودُ المجتمعَ، وتنظّمُ نشاطَه. ولكنّ الانتماءَ، مهما كان نوعُه أو إطارُه، يبقى انتماءً مشوّهاً مريضاً ما لم يكنْ مفتوحاً على المدار الإنسانيّ ومتّصلاً بفكرة الحريّة.

وإذا كان الانتماءُ يتحوّلُ إلى قوّةٍ إيجابيّة منتجة تُثري حياةَ الجماعة في حال التصاقه بجوهر الحياة الإنسانيّة، فإنّه من السّهلِ أن يتحوّلَ هذا الإنتماءُ إلى قوّةٍ سلبيّة مدمّرة إذا انغلق على نفسه وسقط فريسةَ التمييز والتّعالي، وانفصل عن مكوّناته الأساسيّة. فالانتماءُ، بقدر ما هو موجّهٌ نحو الغيرِ للتّمايز عنه، يمكنُ أن يتوجّهَ ضدّ الغيرِ للتخلّص منه. وهنا تبرزُ أهميّةُ الثّقافة في صوغ المعادلة السلميّة التي توازنُ ما بين حقّ الدّفاعِ عن الذّات وحقّ الغير في الوجود، مثلما تبرزُ أهميّةُ السياسةِ في ابتكار الصيغِ المناسبة التي تؤمّنُ توحيدَ المجتمع واستقرارَه على قاعدةِ الديمقراطيّة وسيادةِ القانون.

فإذا كان الانتماءُ يحتاجُ إلى قوّةٍ تحميه من الغير، فإنّ القوّةَ الحقيقيّة هي القوّةُ التي تنبعُ أوّلاً من وحدةٍ داخليّةٍ راسخة تعتمدُ على فكرة القبول بالآخر والعملِ معه في مناخٍ من التفهّم والمشاركة والتكامل. فإذا كانت مخافةُ الله هي رأسُ الحكمة فإنّ رأسَ الحكم هو سَعةُ الصدر.

إنّ الهويّةَ اللبنانيّة ليست مثارَ جدلٍ جدّيّ. فهي واقعٌ ملموسٌ وحقيقةٌ متّصلةٌ بوجودنا الوطنيّ، لا تتغيّرُ بجوهرها، بل تتطوّرُ بذاتها، وتلازمُنا منذ الولادةِ حتّى المماتِ كالاسمِ وقسماتِ الوجه ونبضاتِ القلب.

وإذا كانتِ الهويّةُ هي الوجهُ الحقيقيّ للانتماء، فإنّ إرتقاءَ هذه الهويّة في مدارج النموّ والحضارة يرتكزُ إلى فعلٍ مجتمعيّ متواصل تقومُ به المؤسّساتُ الأهليّة على تنوّعها، كما يرتكزُ أيضاً على وجود الدولة وتطويرِ مؤسّساتها وتحديثِها.

فكما المؤسّساتُ الأهليّةُ بحاجةٍ إلى احتضانٍ وعناية، فإنّ الدولةَ بحاجةٍ إلى مشاركةٍ ورعاية.

إنّ العالمَ المعاصر يطرحُ علينا تحدّياتٍ لم يعدْ بالإمكان مواجهتُها بالأساليبِ القديمة المتخلّفة أو بالانقسام السياسيّ القائم. وأحدُ أبرزِ هذه التحدّيات محاولاتُ إلغاء هويّةِ الشعوب، وتحويلِها: إلى جماعاتٍ بشريّة متعدّدة تشكّلُ سوقاً عالميّة موحّدة.

وتترجمُ هذه المحاولاتُ نفسَها على الصعيد الإقليميّ بفكرةٍ جديدةٍ – قديمة هي فكرةُ الشّرق – أوسطيّة التي تستهدفُ تقويضَ الحقيقةِ الوطنيّة القوميّة، وتذويبَ الهويّة والانتماء في تشكيلاتٍ اقتصاديّة كبرى مركزُها إسرائيل.

وإذا دقّقنا في العمق بموقفِ إسرائيلَ من المفاوضاتِ الجارية حاليّاً نلمسُ بوضوحٍ أنّ الخطّةَ القديمةَ للسيطرة على المنطقة بدأت تأخذُ منحىً جديداً يحتفظُ بالخيار العسكريّ، ويقدّمُ الخيارَ الاقتصاديّ باعتباره يتمتّعُ بجاذبيّةٍ كبيرة ويتلاءمُ مع مقتضيات النظام العالميّ الجديد.

ومن هنا يمكنُنا أن نفهمَ تشبّثَ إسرائيلَ بجبلِ الشيخ ومنابعِ المياه في سوريا ولبنان، وسيطرتَها على مياه نهر الأردن وخزّانات الضفّة الغربيّة، وإصرارَها على تغيير الأنظمة القائمة وإخضاعِها لها قبل التّوقيعِ على معاهدات سلام، تدركُ، هي، قبل غيرها، كم هي بعيدةٌ عن مفهوم السّلام الشامل والعادل.

وما جرى على الصعيد الأردنيّ والفلسطينيّ لا يبشّرُ بالخير على الإطلاق، ذلك أنّ الاتّفاقاتِ المنفردةَ التي تمّ التوقيعُ عليها تثبتُ الهيمنةَ الإسرائيليّةَ أكثرَ ممّا تعكسُ استقلالَ الطرفين العربيين.

وإذا كان لبنانُ اليوم يتعرّضُ لضغوطٍ كثيفة لإلحاقه في مسيرة الخضوع والانصياع، فإنّ خيارَه الآمن لتجاوز المحنة يقعُ في دائرة التحالف الوثيق مع الشقيقة سوريا على قاعدةِ المصلحةِ المشتركة والاحترامِ المتبادل، كما يقعُ في دائرة التّحالفِ مع نفسه وترسيخ وحدته الداخليّة على قاعدة الوفاق الوطنيّ وتحقيق المشاركة السياسيّة.

فالتّحالفُ مع سوريا لا يشكّلُ استجابةً طبيعيّة لانتماء لبنانَ العربيّ فحسب، وإنّما يحمي لبنانَ أيضاً من خطر استفراده، وهو الذي يتقدّمُ الصفوفَ العربيّةَ القادرة على ممارسة فعل المقاومة، واكتساب المهارات الحديثة، واستيعاب التكنولوجيا المعقّدة بما يجعلُه هدفاً رئيسيّاً للستراتجيّة الصهيونيّة.

كما أنّ توحّدَ لبنان مع نفسه يجعلُه أقدرَ على ممارسةِ سيادته وتكريسِ استقلاله وتحريرِ أرضه المحتّلة في الجنوب والبقاع الغربيّ.

إنّ الامتحانَ الذي يواجهُه لبنانُ اليوم هو أخطرُ بكثير ممّا يتصوّرُ البعضُ، خصوصاً بعد احتفالاتِ البيتِ الأبيض التي شهدت تواقيعَ كثيرةً وتنازلاتٍ خطيرة.

إنّ لبنانَ بحاجة إلى كلّ نقطةِ مياه يملُكها، ولا يقبلُ أن يتخلّى عن ذرّةٍ من ترابه. لذلك، ربّما كان علينا أن نختارَ، في المرحلة المقبلة، بين سلامٍ مزيّف معروضٍ علينا يلغي هويّتَنا، وبين سلامٍ حقيقيّ ننتزعُه بصمودنا ويؤكّدُ إنتماءَ نا.

كلمة د. فادي مغيزل

حضرة السّادة،

نحتفلُ اليوم باليوبيل المئويّ الثّالث لتأسيس الرهبانيّةِ في لبنان، هذه المؤسّسةِ العريقة التي كانت من روّاد مَن حمى هويّتنا ولغتَنا وتراثَنا في حقبات مظلمة من تاريخنا، ولا سيّما خلال العهد العثمانيّ الذي سعى جاهداً لمئات السنين لإزالة معالم هويّتنا. فانبرى رهبانُ لبنانَ لحمل المشعل، فصانوا الفكرَ واللغة والتّراث، بل انطلقوا ممّا حافظوا عليه، ليطوّروه ويكونوا السبّاقين في النهضة الحضاريّة العربيّة في أواخرِ القرن التاسعَ عشرَ ومطلعِ القرن العشرين.

فمن الطبيعيّ أن تبقى إشكاليّاتُ الهويّة في صلب اهتماماتِ من حافظ عليها وطوّرها.

أوّلاً: تعريف للانتماء والهويّة

أستهلُّ كلمتي هذه بمحاولةٍ لتوضيح مفهومَي الهويّة والإنتماء.

يمكنُ تعريفُ الهويّة بأنّها رابطةُ مصيرٍ بين الإنسان وجماعةٍ محدّدة، تتّصلُ به، من أرض أو حضارة أو إرادة عيشٍ مشترك.

أمّا الإنتماءُ فهو نوعان: طوعيّ بفعل إراديّ، أو معطى بحكم الواقع يجعلُ الفردَ جزءاً من مجموعةٍ ما، يساهمُ في حياتها.

وقد يحتوي الإنتماءُ ارتباطاً روحيّاً عميقاً يجعلُ الإنتسابَ إلى جماعة تفاعلاً حيويّاً ومصيريّاً يترسّخُ باستمرار، فيكونُ له عندئذٍ بعدٌ ذاتيّ كيانيّ يؤثّر في نفسيّة الفرد تأثيراً جذريّاً وشاملاً.

ثانياً: مقوّمات الهويّة

يمكنُنا تلخيصُ المقوّمات الأساسيّة للهويّة بالآتي:

- اللغة.

- العادات والتقاليد، وهي ما ينتجه جيلٌ وينتقل إلى الأجيال التي تليها، وهي تقومُ بدورها بتطويره وإغنائه.
- الثّقافة، بما تعنيه من اكتساب معرفة في حقول الأدب والفنّ والفلسفة والعلوم جميعاً.
- الإرادة في العيش المشترك.

ولا أولويّة أو أفضليّة بين هذه العناصر.

وبالطّبع، إنّ هذه العناصرَ متغيّرةٌ من مجموعة لأخرى، فهي تولّدُ هويّاتٍ متعدّدةً ومختلفة، إذ إنَّ كلَّ مجموعةٍ تتفاعلُ مع محيطها وفيما بينها بشكل متميّز عن المجموعات الأخرى.

إلى جانب العناصرِ الموضوعيّة التي تكوّنُ الهويَةَ، هناك عنصرٌ شخصيٌّ، وهو إدراكُ صاحبِ الهويّة لهذه العناصرِ، والعملُ من أجل المحافظةِ عليها وتطويرِها.

ويقتضي التنويهُ هنا أنّ الهويّةَ ليست مفهوماً مبنيّاً على الإنتماء لعرق أو جنس معيّن يتميّز عن غيره بيولوجيّاً، بل هي تتكوّنُ من خلال التفاعل مع الأرض والمحيط الطبيعيّ والإجتماعيّ.

ثالثاً: التحدّيات التي تهدّد الهويّة

خلافاً لما يُقال، ما يهدّدُ الهويّةَ، ليس الهويّاتِ الأخرى، بل هو الشّعورُ باللّاهويّة. وهذا الشّعورُ ينشأُ وينمو مع مجتمع الاستهلاك. ولهذا، سأتوقّفُ عند هذا التحدّي الأساسيّ ألا وهو مجتمعُ الاستهلاك.

مجتمع الاستهلاك

١: تعريف

ويمكنُ تعريفُ مجتمعِ الإستهلاك بأنّه نظامٌ إجتماعيّ مادّيّ عالميّ مرتكزٌ على الأسس الآتية:

١) إعتبارُ المادّة جوهرَ الحياة، وهدفاً بحد ذاته، لأنّها المصدرُ الوحيد للسّعادة في حياة الإنسان. فيصبحُ على الفرد أن يحصرَ طاقاتِهِ كافّةً للحصول على المادّة التي لا حدودَ لها. وفي مجتمع الإستهلاك، إنّ هذا الهدفَ ليس فقط الهدفَ الأساسيّ في حياة الإنسان، بل هو الهدفُ الجوهريّ الوحيد.

٢) إعتبار الإنسان غيرَ منتمٍ إلى أيٍّ هويّة حضاريّة أو إجتماعيّة، لأنّ أيَّ إنتماءٍ لهويّة يقيّدُ ويعيقُ الإنخراط في مجتمع الإستهلاك وممارسة النمط الإستهلاكيّ، إذ يدخلُ اعتباراتٍ غيرَ مادّية إلى ذهن الإنسان تعطيه أبعاداً تخرجُ عن نطاق استهلاك المادّة.

٢: مقوّمات مجتمع الإستهلاك

نتوقّف عند ثلاثة منها:

- المادّيّة
- الفرديّة
- الشموليّة

أ) النّزعة المادّيّة

المادّة هي أساسُ ومحورُ مجتمعِ الإستهلاك. فكلُّ شيء يبدأُ بالمادّة وينتهي بالمادّة. وجميعُ الأمور تُفسّرُ بطبيعتها المادّية. وكلُّ ما في الوجود تفاعلٌ بين عناصرَ مادّية مختلفة تتجانسُ إلى ما لا نهاية.

تتجلّى هذه المادّيّةُ من خلال الدورة الإستهلاكية التي ترتكزُ على إيجادِ سلعٍ وخدمات متنوّعة ومتجدّدة باستمرار، وعلى نطاق واسع، والإستعانةِ بوسائلِ الإعلام لتنمية ذهنيّة المستهلك التي ترتكزُ على تعظيم شأن هذه السلع والخدمات بحيث تبدو وكأنّها جوهريّةٌ في حياة الإنسان وضروريّة لبلوغ الحدّ الأدنى من الرفاه والسّعادة.

فالمستهلكُ يسعى دائماً إلى المزيد من الإستهلاك، ويبقى دوماً غيرَ مكتفٍ.

وفي هذا الإطار، يصبحُ إلتزامُ المستهلك بإيمانه ومبادئه الأخلاقيّة مشروطاً بعدم إعاقة هذا الإيمان وهذه المبادىء لنهجه الإستهلاكيّ.

والمنتمي إلى مجتمع الاستهلاك لا يرفضُ القيمَ الروحيّة، لكنّه يقبلُها بشكل سطحيّ دون الإنخراط في جوهرها بحيث تعيقُ نهجَ حياته.

وقد يؤدّي هذا إلى تحرير للمعتقدات وتشويهها والتّنازل عنها، بقدر ما يكتسبُ الإستهلاكُ أهميّةً وأولويّة في الحياة اليوميّة للفرد. إنّ شخصيّةَ المستهلك تحول بينه وبين ممارسة الفرائض والعبادات، لأنّها تتطلّبُ منه تنظيماً ومواظبةً لا يتكيّفان مع نمط الإستهلاك.

كما أنّ النزعةَ المادّية في مجتمع الإستهلاك تدفعُ المستهلكَ إلى الابتعاد عن النشاطات الفكريّة عامّة، وعن الإيديولوجيّة خاصّة، ذلك أنّ الفكرَ والإيديولوجيّات تتطلّبُ ترفّعاً عن المادّة وإرادةً للتعمّق بمضمونِ هذا الفكر والشعورِ بضرورة الإلتزام به.

ب) الفرديّة

الفرديّة هي النّزعةُ التي تَعتبرُ الفردَ الغايةَ العليا والهدفَ السّامي والوحيد، فيصبحُ القيمةَ الأساسيّة التي يجبُ إغناؤها وإحاطتُها مادّياً باستمرار، تقديراً لقيمتها وزيادةً لمكانتها.

وبذلك تفترضُ الفرديّةُ التخلّصَ من التّضامن العائليّ والإجتماعيّ والوطنيّ، فلا يشعرُ الإنسانُ أنّه منتسبٌ إلى جماعة ما، ويفقدُ أيَّ إرادةٍ للقيام بعملٍ مشترك لمصلحةٍ تتخطّى مصلحتَه الشخصيّة المباشرة.

هذه الميزاتُ تنتجُ الإنسانَ إلاّ الحضاريَّ الذي يُرادُ به أن يحلَّ مكان الأوطان والأمم والحضارات.

في المجتمع المتنازلِ عن هويّته لا يَقبلُ الفردُ الآخرين كما هم، بل يرفضُهم حيث يصبحُ كلُّ الآخرين غرباءَ. فيصبحُ هدفُ الفردِ السعيَ لإفادة مصالحه الشخصيّة والخاصّة والمحدودة وذلك في إطارِ تسابقٍ وتصارعٍ مستمرّ.

ج) الشموليّة

يعتبرُ مجتمعُ الاستهلاك أنّ وجودَ حضاراتٍ وهويّات مختلفة ذاتِ نمط إجتماعيّ إقتصاديّ متميّز مرحلةٌ تاريخيّة منصرمةٌ يجبُ تخطّيها باعتبار أنّ العالمَ يشكّلُ الآن

كلاًّ لا يتجزأ. فالنّظامُ الإستهلاكيّ يطبّقُ على جميع الشعوب بصورة مماثلة تؤدّي إلى تحقيق مجتمعٍ عالميٍّ واحدٍ قائمٍ على الأسسِ نفسِها، ويعيشُ وفق أصول موحّدة.

إنّ هذا النمطَ العالميّ يَفترضُ أنّ الشعوبَ لم تعدْ متمسّكةً بتقاليدها وأنماطها الخاصّة، والتي تميّزُها عن غيرها، كما يفرضُ التخلّيَ عن الهويّة لحساب نظامٍ أمميّ واحد.

وفي النّظام الإستهلاكيّ العالميّ يصبحُ الفردُ عنصراً متماثلاً يمكنُ استبدالُه بغيره، وفاقداً للصّلات التاريخيّة والروابط التي تجعلُه متمسّكاً بأرضه. فالإنسانُ الإستهلاكيّ لا ينتمي إلى شعب معيّن، وليست له حضارةٌ أو تراثٌ خاصٌّ به، إنّه ينتمي إلى نظام حياتيّ واحد يجسّدُ التطوّرَ المثاليّ والحتميّ لجميع المجتمعات.

هكذا نظامٌ لا يقبلُ خصوصيّاتٍ أو استثناءات. فالإستثناءاتُ تصبحُ حالاتٍ شاذّةً غيرَ مقبولةٍ لأنّها ترفضُ المستقبلَ الحتميّ الأوحد.

رابعاً: ضرورة المحافظة على الهويّة

أوّلاً

نحن نرى أوّلاً أنّ لا مستقبلَ للشعوب ضمن مجتمعٍ ماديٍّ شموليّ أوحد فاقدِ الهويّةَ يؤدّي إلى تفكّك المجتمعات وإلى فقدانها القيمَ الروحيّة والأخلاقيّة.

ثانياً

لا يجبُ فهمُ الهويّة أو اعتبارُها مجموعةَ عناصرَ جامدةٍ غير قابلةٍ للتغيير. بل يقتضي النّظرُ إلى الهويّة نظرةَ النظامِ الديناميكيّ الذي يتطوّرُ باستمرار دون أن يفقدَ مكوّناتِه الأساسيّة. فالهويّةُ تتجدّدُ وتتطوّرُ إنطلاقاً من عناصرها، وليس باستبدالها بانتماءٍ فارغ من أيّ مضمون.

ثالثاً

لا تتمُّ حمايةُ الهويّةِ والمحافظةُ عليها عبر تعداد مكوّناتها أو التّغني بالماضي كوسيلة

فضلى لتجنّب مواجهة المستقبل. والمحافظةُ على الهويّة تتأمّنُ من خلال قابليّتها للتطوّر دون الزّوال.

رابعاً

إنّ إدراكَ الهويّةِ والشّعور بالانتماء ليسا رديفاً للجمود أو التخلّف. كما أنّ ذوبانَ الهويّةِ ليس سبيلاً للتطوّر أو التحرّر.

فمن هذا العرضِ الموجز لبعض التحدّيات التي تقومُ بوجه الهويّة والانتماء وبعض مستلزماتها، يتراءى لنا الدورُ الخطيرُ الذي يعودُ للتربية في خلق الشعور بالانتماء وإنمائه وتجذيره، ويتراءى لنا بالتّالي الدورُ الفاضلُ الذي قامت وتقومُ به الرهبانيّةُ الكريمة.

المجتمعُ المدركُ لهويّته لا يقوى سوى عندما تُعطى الأولويّةُ للخير العام على المصلحة الشخصيّة، وللتضامنِ والتكافلِ على تسلّطِ شعور المزاحمة والأنانيّة.

كلمـة د. مصطفى دنـدشلي

الإنتماء والهويّة

أشار الدكتور مصطفى دندشلي في مداخلته إلى الخلاف أو نقاط الاختلاف حول مفهوم الهويّة والانتماء، وبالتّالي مفهوم الثّقافة والحضارة، معتبراً أنّ الأسئلة هي إيّاها تُثار منذ نصف قرن. لماذا؟ ربّما لأنّنا لم نحسن طرحَ الموضوع؛ أو لوجود خلفيّات فكريّة، دينيّة، إيديولوجيّة مسبقة؛ أو لأنّنا انطلقنا من التباس أساسيّ مبدئيّ؛ أو لأنّنا لم نحسن إقامةَ الحوار المنفتح الخلاّق لجلاء هذه المفاهيم الأُساسيّة في حياتنا الوطنيّة؛ أو لأنّ الحوارَ في أُساسه كان مخلوطاً، ولم تُطرحِ القضايا كما يجبُ فتحوّل حوارُنا إلى حوار الطرشان.

وانتهى إلى تقديم تعريفات نظريّة ومنهجيّة حول مفاهيمِ الثقافة والهويّة والانتماء والدّور، إلى أن قال: إنّ ثقافتَنا هي ثقافةٌ متنوّعة ضمن الثّقافة الواحدة، وجزءٌ من الثّقافة العربيّة المشتركة...

القسم السّادس

الجلسة السّادسة

الموضوع **مناقشة عامّة وتوصيات**

الرّئيس **المطران حبيب باشا**

توصيات المؤتمر

كلمة المطران حبيب باشا

وفي جلسة المناقشة العامّة التي أدارها المطران حبيب باشا، قال سيادته: عندما نتكلّم على المستقبل، نتصوّره، بطبيعة الحال، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً وعفويّاً بالماضي تاريخاً وأصالةً وتراثاً. وكلّ ما يحفزنا اليوم، وبخاصّة في أعقاب الحرب التي مسّت لبنان في صميم هويّته ومصيره، هو المستقبل الذي ينتظر الرهبنات حياةً ورسالة. وليس من يجهل أنّ لبنان كان، ولا يزال، مرتبطاً، إلى حدّ كبير وعميق، بالرّسالة الرهبانيّة التي يصعب أن نتصوّره بمعزل عنها.

وأضاف: هدف هذه الجلسة الأخيرة أن نستخلصَ العبرَ التي يجبُ أن ترتسم في أفق المستقبل، انطلاقاً من ماضٍ رهبانيٍّ غنيّ بعطاءاته الروحيّة والاجتماعيّة والوطنيّة.

توصيات المؤتمر

الرهبانيّة: رسالة للمستقبل

برعاية غبطة البطريرك المارونيّ نيافة الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير، وبإشراف الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، وبمشاركة مجموعة من الرهبنات، وعدد من المطارنة ورجال الدّين ومن العلمانيين المثقفين والباحثين، في مختلف الإختصاصات، ومن جميع الطوائف المسيحيّة وغيرِ المسيحية، نظّمت جامعةُ سيّدة اللويزة، بمناسبة اليوبيل المئويّ الثالث للرهبانيّة، مؤتمراً في دار سيدة الجبل – فتقا، يومي الجمعة والسبت ٢٧ و٢٨ تشرين الأوّل ١٩٩٥، تحت عنوان: الرهبانيّة: رسالة للمستقبل. وقد جرى البحثُ، خلال المؤتمر، على محاور أربعة: البعد الروحيّ، البعد التربويّ والثقافيّ، البعد الاجتماعيّ والزراعيّ والعلاقة بالأرض، والبعد الوطنيّ.

وقد تخلّل الندواتِ الأربع حوارٌ، اتّسم بالعمق والصراحة والتّفتيش عن انطلاقة جديدة نحو المستقبل، بروح المحبّة والتضامن.

وفي ختام المؤتمر، كُلّفت لجنةٌ خاصّة بوضع التوصيات. وبعد العودة إلى أوراق العمل وإلى محاضر الجلسات، وإلى النقاشات المتعدّدة التي رافقتِ المؤتمرَ، صدرت هذه التوصيّاتُ على الشّكل الآتي:

١- إنّ انعقادَ السينودوس، خلال هذه السنة التي تصادف الذكرى المئويّةَ الثالثة لتأسيس الرهبانيّة، إنّما هو تدبيرٌ من الله في الدّعوة إلى: الرّجاء بالمسيح، التجدّد بروحه، والشّهادة معاً للمحبّة.

إنّ هذه العناوينَ تشكّلُ المنهجَ الأساسيّ للتجدّد الرهبانيّ المطلوبِ على باب القرن الواحد والعشرين. لهذا، يتوجّبُ وضعُ مناهجَ ومخطّطاتٍ رهبانيّة في هذا الإطار، وقبل الذّهابِ للمشاركة في السينودوس، في نهاية تشرين الثاني الحالي.

٢- إنّ الرهبانيّاتِ مدعوّةٌ إلى وضع مناهجِها الجديدة، على القاعدة الصلبة التي خلّفها

المؤسّسون والرهبانُ الأوائل. إنّ التجديدَ لا يعني قطعَ الجذوعِ عن الجذور. إنّما هو بناءٌ متكاملٍ يتّخذُ من الأصالة الرهبانيّة أساساً له، ثمّ يبني مداميكَ التجدّد التي يمكنُ أن ترافقَ حركةَ الزّمن والتطوّرات المعاصرة، على صعيد العلم والتكنولوجيا ووسائل التواصل الحديثة، تحقيقاً لإنسانيّة الإنسان والمجتمع معاً.

٣- لا تناقضَ بين الحياة الديريّة والحياة الرسوليّة عند الرهبان، بل تكاملٌ تفرضُه تطوّراتُ العصرِ وخدمةُ الإنجيل. والرهبانيّاتُ مدعوّةٌ إلى إعادة تفعيل الحياتين معاً، بمراجعة مقوّمات الحياة النسكيّة وإبراز أهميّة قيمها الروحيّة والكنسيّة.

٤- ضرورةُ التّنسيق بين الرهبانيّات المتعدّدة، إلى حدّ التّفاعل والتّكامل، والسّيرُ معاً لتحقيق جملةٍ من المشاريعِ المشتركة (جمع معلومات - تنظيم لقاءات ورياضات روحيّة - عمل رعويّ رسوليّ - مسح القدرات البشريّة والماديّة - إصدار نشرات وكتب - إعلام...)

٥- إنّ الحياةَ الرهبانيّة لا تعني أبداً الانعزالَ عن العالم، كما لا تعني الانغماسَ بالقضايا الاجتماعيّة والسياسيّة. فعلى الرّاهب أن يتميّزَ بروحِ الخدمة والتّواضع في مواقفه وسلوكه، فيواجهُ لعبةَ السّلطة بجسارةِ الأنبياء، ويتخلّى عن مجالسِ الظّهور وحفلات البذخ، لينصرفَ إلى الصّلاة وإحياء القوّة في أخيه الإنسان.

٦- ضرورةُ اتّخاذِ مواقفَ فاعلةٍ في القضايا التربويّة والاجتماعيّة والثقافيّة. إنّ دورَ الرهبان يَبرزُ في تقديم الخطط والبرامج والبدائل، لا في الاعتراض وردودِ الفعل فحسب. ويتمُّ ذلك بالتطلّع نحو إشراكِ العلمانيين في حملِ الرسالة وتكليفِهم القيامَ بمهامَّ أكبرَ في مؤسّساتِ الرهبانيّة.

٧- إنّ المواقفَ الوطنيّة التي وقفها الرهبان، على امتداد القرون الثلاثة الماضية، يجبُ ألاّ تضيعَ في زحمة الخطبِ والألفاظ. بل يُطلبُ إليهم مساعدةُ النّاس على تطوير أدوارٍ مواطنيّةٍ فاعلة في المجتمع، بالاستناد إلى المبادءِ والقيم المسيحيّة، ولا يكونُ ذلك إلاّ بترجمةِ هذه القيم أفعالاً وأعمالاً ترسّخُ إيمانَ الإنسان بالله والمجتمع والوطن وبأخيه الإنسان.

٨- إنّ العودةَ إلى الأرض، زراعةً وعملاً يوميّاً، مطلبٌ ضروريّ للحياة الرهبانيّةِ ديريّةً كانت أم رسوليّة، ولا سيّما، في لبنان، وفي هذه المرحلة من الزّمن. إنّ الحفاظَ

على الأرض واستثمارها، شراكة مع العلمانيين، هو مطلبٌ وطنيّ واقتصاديّ وسبيلٌ إلى التجذّر في هذه المنطقة وإلى إحياء روحانيّةِ الأرض.

٩- القيمُ المسيحيّة هي قيمٌ إنسانيّة يجبُ تعميمُها والدّفاعُ عنها. إنّ ارتفاعَ الصوتِ في هذا المجال ضروريٌّ، ولا سيّما في وجه الحكّام والأسياد وأرباب العمل الذين يظلمون الإنسانَ ويقهرونه ويستبدّون به وبمعيشته.

إنّ الإنجيلَ هو النجمةُ التي يجبُ الاستنارةُ بها للوصول إلى الله، ومن خلاله إلى الإنسان.

١٠- التّشديدُ على ضرورة التعمّق في العلوم والمعارف الإنسانيّة كما اللاهوتيّة، بحيث يكونُ الرّاهبُ صاحبَ اختصاصٍ ورجلَ علمٍ ومعرفة، لكي يساعدَ معاصريه على حسن مطالعةِ علامات الأزمنة وإعطائها المعنى المسيحيّ للحياة.

١١- العودةُ إلى التّقاليدِ الشرقيّة في الرهبانيّة، والمحافظةُ عليها، شأنٌ ضروريّ يتّصلُ بالأصالة الرهبانيّة. إنّ الحياة المكرّسة تختلفُ بعضَ الشيء عن الحياة الرهبانيّة، وهذا ما يجبُ أن يميّزَ الراهبَ الشرقيّ عن أخيه في الغرب.

١٢- إذا كانتِ الغلالُ كثيرةً والفعلةُ قليلين، فهذا لا يعني الرّضوخَ والاستسلام. إنّ اجتذابَ الفعلة لا يكونُ إلاّ بعمليّة التجديد. وإنّ قلّةَ الدعواتِ الرهبانيّة هي دليلٌ على الغربة التي تفصلُ بين الرّهبان والشّعب. إنّ ردمَ هذه الهوّة لا يكونُ إلاّ بالإقلاع عن بعض الممارسات التي تشوّهُ صورةَ الرّاهب، وتبعدُ النّاسَ عن الرهبانيّات. ولهذا نرى وجوبَ تصحيحِ الممارسات المتّبعة حاليّاً في بعض المؤسّسات التربويّة والاستشفائيّة والاجتماعيّة، ولا يكونُ ذلك إلاّ باعتماد الصدقيّة والشفافيّة، وبإبراز صورةِ المسيح الحقيقيّة والجذّابة، في عالمنا المعاصر.

١٣- إنّ التاريخَ اللبنانيّ، ومن خلاله تاريخُ الرهبانيّات، يجعلُ من هذا الوطن، أكثرَ من وطنٍ، إنّه «رسالة»، على حدّ قول الحبر الأعظم. هذه الرسالةُ لا تتحقّقُ إلاّ بالعيش وتحقيقِ الذّات معاً، مسيحيين وغير مسيحيين، في وطن مشترك. وإنّ الرهبانَ مدعوّون إلى إعادة صياغةٍ حقيقيّة لهذا العيش، بالاعتماد على الحريّة التي تجعلُ من التنوّع غنى، ومن البحثِ عن الوحدة، قيمةً وقضيّة. وهذا دورٌ بطوليّ مقدّس لا يمكنُ أن يقومَ به إلاّ رهبانٌ ورعون يحملون في نفوسهم والوجوه، روحَ المحبّة والإيمان.

المحتوى

صدر في السلسلة

- مجموعة في كتاب:
  السّير في لبنان
  المياه والكهرباء والهاتف
  الصحّة في لبنان
  التربية في لبنان
  البيئة في لبنان
  السكن والإسكان في لبنان.
- العائلة في لبنان
- المواطنيّة والدّيمقراطيّة والانتخابات
- المركزيّة واللامركزيّة والمشاركة الشعبيّة
- العمل والمهن في لبنان
- الجامعة والعلم والعمل
- الإرشاد الرسوليّ: رهان واستراتيجيّة ونظام تواصل
- البلديّة: سلطة محليّة ومشاركة مدنيّة في القانون والممارسة
- الاختصاص والمهنة: تحوّلات سريعة وخيارات صعبة - دور الأسرة
- الجامعة والمدينة
- الجامعة والصحّة ونوعيّة الحياة
- الإعلام: حرّية - قانون وتنظيم - علم وخلقيّة
- الموارد المائيّة في لبنان
- الرهبانيّات رسالة للمستقبل

